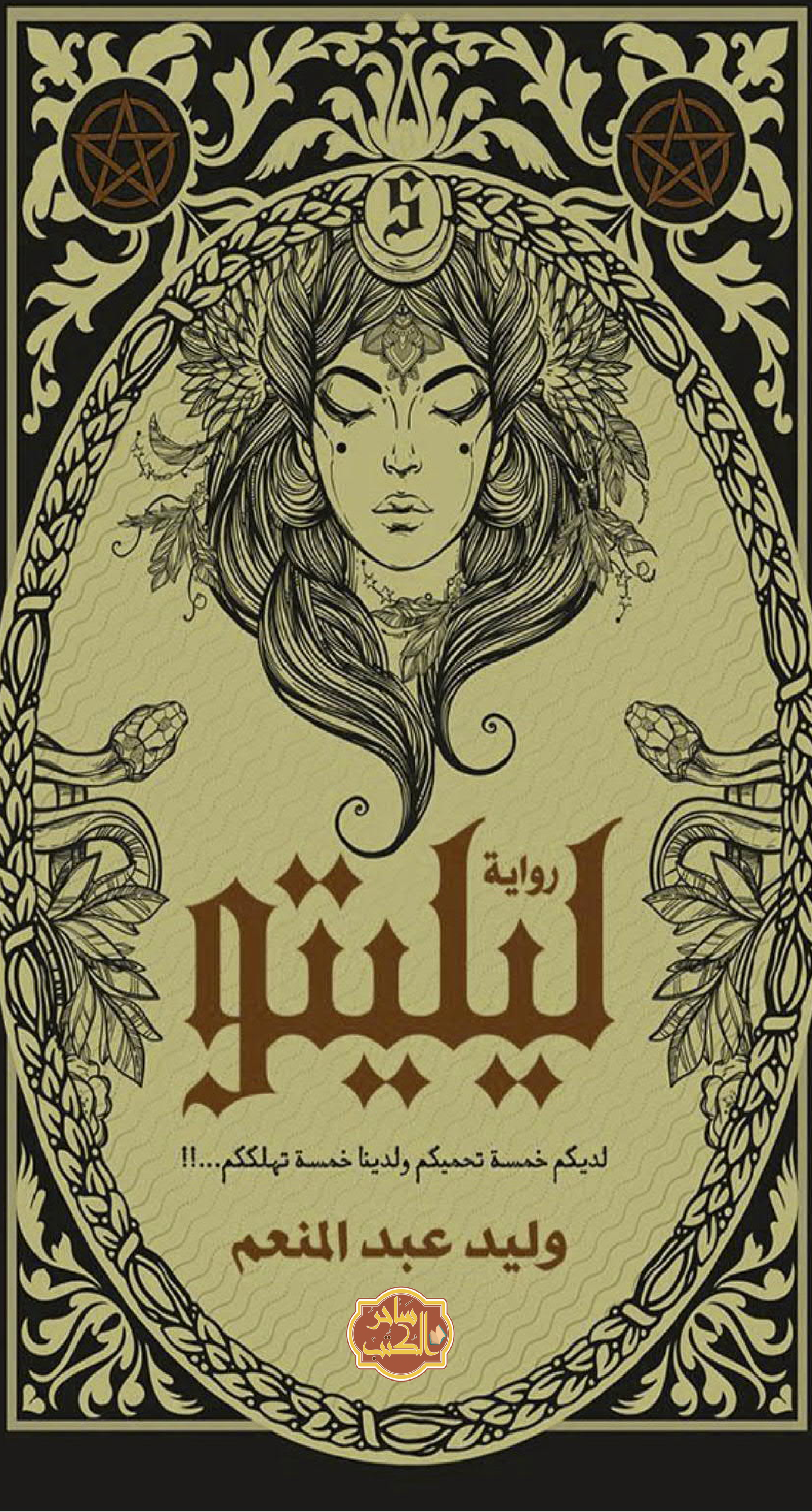
5
رواية
لييثون
لديكم خمسة تحميكم ولدينا خمسة تهلككم...!!
وليد عبد المنعم
ساحر الكتب

إهداء..

إلى روح «الساحر»...

إلى روح الفنان «محمود عبد العزيز»..!

(٥ / ٥ / ٢٠١٥)

«هناك خمسة عناصر تُدرَك بالحواس؛ الأثير بالنسبة للسمع، الهواء بالنسبة للملمس، النار بالنسبة للنظر، الماء بالنسبة للتذوق، الأرض بالنسبة للشم»..!! (052)

استغرقا تمامًا في الرقص، تناسقت حركاتهما مع الموسيقى بشكلٍ بديع، امتزجا مع إيقاع الأغنية حتى بدا وكأنهما جزءٌ لا يتجزأ من النوتة الموسيقية للحنٍ ما، وكأنها هي آلة الكمان التي تسرح بانسيابية بين تآلفات الجملة اللحنية الرئيسية، وكأنه هو آلة التشيللو التي تبرز في خلفية الأنغام لتَهَب اللحن عمقًا وتماسكًا. ظلا يدوران ويتمايلان في رشاقة وخفة وكأنهما يؤديان عرضًا محترفًا لرقصة (الفوكستروت)، بالكاد كانت أصابع قدميها تلامس خزف الأرضية، حملتها روحها المُغرمة ومشاعرها الهائمة لتصعد على درجات السلم الموسيقي متجهة عكس الجاذبية، فأطلقت العنان لجسدها النحيل ليمرح بين ذرات الأكسجين كفراشة «ريتشموند» أنيقة، بينما حافظ هو على اتزان خطواته، وتحركت قدماه بثبات، واستمر على نفس الوتيرة الواثقة المتئدة حتى يهبها الأمان ويحميها من عواقب أي حركة خاطئة. واستشعرت مقصده، فاتكأت عليه آمنة ومغمضة العينين، تراه بحدسها الموسيقي وتتوقع خطواته التالية بتزامن منضبط.

مرت دقائق طوال وهما على تلك الحالة، بل مرت ساعات عديدة وهما يرقصان ويرقصان منذ أن وصلت إلى منزله كي تحتفل معه بعيد ميلادها «الخامس والعشرين»، حتى إن أنامل أول أضواء الصباح شرعت تلامس النافذة المغلقة لتجد منفذًا تمر منه حاملة معها ملامح الشروق القادم، لم يتوقفا عن الرقص منذ العاشرة مساءً إلا بضعة مرات ارتميا فيها فوق الأريكة الرائعة المصنوعة من أخشاب الأرابيسك الفاخرة والمطعمة بقطع العاج الطبيعي، يتبادلان الأحاديث القصيرة وكؤوس النبيذ الأحمر المعتّق. كان كل شيء في تلك الغرفة يحمل نفس الطابع الشديد الشرقية الذي تتمتع به الأريكة؛ لون الجدران المزخرف ببعض الهندسات الفاطمية، والمنضدة الخشبية المصنوعة من أخشاب الأرابيسك ذاتها، والأواني النحاسية اللامعة التي تزيّن المنضدة، وصورة أبيه العُمدة المعلَّقة فوق الجدار خلفهما بشاربه الكثّ المفتول وملامحه القوية الصارمة وزيّه الصعيدي الأصيل؛ كان كل شيء متناغمًا وحميميًّا وشرقيًّا بشكلٍ جليّ، لم يشذّ عنه إلا رقصتهما الأمريكية الكلاسيكية والمقطوعة الموسيقية التي تعود إلى عشرينيات القرن الماضي. كان ذاك تناقضًا صارخًا - إلا أنه كان مفعمًا بالسحر والأسطورية - بين تفاصيل المكان التي كانت تنبض بدفء الشرق وحميميته وبين الموسيقى والرقصة اللتين تحملان نبضات حالمة من شرايين الغرب.

هذا التناقض الذي تجلّى في صورته الأبهى في الراقصَين ذاتيهما؛ بين ملامحها هي الغربية الجميلة بعينيها الزرقاوين الصافيتين وشعرها الأشقر المُجعّد بعناية ولون بشرتها القشديّ الذي يميل في بعض مناطقه لحُمرة شفق سماء يوم صيفي، وبين ملامحه هو الصعيدية الوسيمة بشعره الأسود متوسط النعومة وعينيه الواسعتين البرّاقتين وعظام وجهه المنحوتة بإزميل فرعوني لفنان من بلاط عرش الآلهة، وكأن الشاعر الجاهلي يردد بينهما بيت شعره الخالد:

«ضدان لما استجمعا حسنًا .. .. والضد يُظهِر حُسنه الضد»

كشفت أجزاء الشيكولاتة الداكنة التي سالت على حواف كعكة عيد الميلاد كم هو طويل الوقت الذي استغرقاه في رقصهما، درجة أن فاتهما قَطْع الكعكة. كانت الساعة قد تخطّت الرابعة والنصف فجرًا وانهكتهما دوامات الرقص وأصابتهما جرعات النبيذ بدوّار طفيف. شعر أن الوقت قد حان كي يُلقي عليها قصيدته التي عكف على نظمها طيلة الشهر الماضي ليهديها إياها في الاحتفال بيوم ميلادها ذاك، فنهض عن الأريكة وهو يقبّل وجنتها المتورّدة برقة بالغة، ثم شرع يقرأ القصيدة بأداء مسرحيّ خبير وبصوت ذكوريّ تتغلغل نبراته الصعيدية بين حنايا أبيات شعره الفصيح، وبقسمات وجه تترجم بلاغة العبارات بعضلاتها الصغيرة.

ونهضت هي بدورها عن الأريكة واتجهت نحوه ودمعات تترقرق في بحر عينيها الأزرق الهادئ من وقع قصيدته وتأثيرها؛ وقفت أمامه مباشرة وهو مستمر في الإلقاء والتقت عيناها -لاإراديًّا- بوجه ساعة الحائط المعلقة على الجدار خلفه وهي تعلن باستفزاز أنها الخامسة إلا خمس دقائق صباحًا. تحجّرت الدموع الرقيقة في مقلتيها واستحالت الزرقة الرائقة فيهما إلى محيط ثائر، فيما شكّلت الأوردة فوق عنقها خيوط متاهة جبلية. تحركت بعصبية متشنّجة حتى توارت خلفه، والتقطت سكينًا عريضًا أخفته تحت فستانها في جراب جلدي ملتف حول فخذها.

لم يلحظ «صبري» الحالة التي انتباتها وهو منتشٍ بين أبيات قصيدته ومستمرٌ في إلقائها، يترنح كدرويش في جلسة مدح صوفية تسيطر عليه روح الذِكر والإنشاد، حتى إنه لم يشعر بها وقد دارت

حوله، وأتت من خلفه، ورفعت يدها حاملة السكين وتهوي بها بعنف شديد تجاهه..!!

(٣١ / ١٢ / ٢٠١٤)

«الجسد لا يدرك شيئًا إلا عن طريق المدخل ذي الخمسة أبواب: النظر، والسمع، والشم، واللمس، والتذوّق. فمن يضبط نفسه في النظر والسمع والتذوّق واللمس والشم بعيدًا عمَّا هو غير طاهر، يحمل لقب «عذراء»..!! (051)

غريب جدًّا أمر هذا اللون؛ فكلما تأملناه وحاولنا البحث عن دلالاته والانطباعات التي يتركها بداخلنا، كلما ازددنا حيرة وازداد هو غموضًا وغرابة، فهناك من يرونه اللون الأكثر كلاسيكية في عالمنا، فيرمز إلى التقاليد ويدل على احترام الذات والاعتزاز بها، وهو أيضًا اللون المرتبط بشكلٍ وثيقٍ بالقوة والأناقة والأجواء الرسمية الفخمة. ليس هذا فحسب، فهو أيضًا لون الإغراء والغواية، وعشّاق هذا اللون هم أصحاب إرادة صلبة؛ ماهرون ويمتلكون البصيرة النافذة في فهم الآخرين.

وهناك من يراه اللون الأكثر دراماتيكية في الحياة، حيث يميل إليه أصحاب النفوس المكتئبة والقلوب الممزقة، وهو اللون الذي يرمز للعُزلة والوحدة، ومن يفضّله هو الشخص صاحب الشخصية الانقيادية التي تميل دائمًا للخضوع والتبعية.

اللون الأسود هو لون كل المعاني المتناقضة والتأثيرات المتناحرة، وليس هناك من الألوان ما هو أكثر إثارة للاضطراب والفتنة مِنهُ، كيف يدل على الهيبة والسُّلطة إذا ارتداه القضاة في المحاكم وهو في نفس الوقت يدل على الخضوع والاستسلام إذا ارتداه الكهنة والرهبان في المعابد والأديرة، هل تجلّت عبقرية هذا التناقض في مصطلح «الكوميديا السوداء»؟

اللون الأسود لا يظهر بين ألوان قوس قزح، ربما لأنه ملك الألوان، أو ربما لأنه ليس لونًا بالأساس كما قال الرسام الفرنسي «إدوار مانيه»

السوق السوداء، التاريخ الأسود، الموت الأسود، السحر الأسود، الثقب الأسود، اليوم الأسود، كيف للون يقترن في كافة الثقافات واللغات بهذا الكم من السلبيات أن يكون نفس اللون الذي قال عنه الأديب «غوته» «الفتنة مرتبطة بشكل مباشر باللون الأسود، لكن هل يمكن أن نطلق على الأسود وصف لون؟ «غوته» نفسه لم يكن متأكّدا من هذا؟!»

أما العُرف السائد في بيوت البعض هو أنه متى توفى لهم قريب أو عزيز فإنهم يعمدون إلى تغطية المرايا واللوحات بأشرطة الحداد السوداء، وبشكل أكثر دقة اللوحات التي تصوِّر مشهدًا من مشاهد الطبيعة أو تصوِّر أشخاصًا؛ فهذا

الطقس قد ظهر في هولندا في القرن السابع عشر، حيث كانوا يعتقدون أن من شأن ذلك أن يساعد الروح على مفارقة الجسد دون أن تتشتت وتنشغل في رحلتها الأخيرة بانعكاس نفسها أو بإلقاء نظرة أخيرة على الحياة من خلال تلك المرايا والصور؛فاللون الأسود هنا ينقذ الروح من الوقوع في متاهة الحياة وعدم استكمال رحلتها المقدسة لسماء الخلود.

وإذا كانت كلمة أسود في اللغة اليونانية تعني حرفيًّا الحزن، فقد تغيَّر هذا الانطباع بشكلٍ ما في القرن العشرين وصار الأسود رمزًا للمسؤولية والثقة المنبعثتين من القوة.

كان كل هذا التناقض والتضارب في رؤية اللون الأسود هو ما كانت تشعر به تمامًا منذ أن استيقظَتْ في وقتٍ متأخر عصر ذلك اليوم، ويبدو أن اللون الأسود قد قرّر أن يكسو روحها ويصبغ نفسَها بغموضه وأمره الملتبس المحيّر، فجلست فوق الفراش ربما لأكثر من ساعتين تدخن سيجارة تلو الأخرى دون أن تنهض حتى لغسل وجهها فتمحو آثار نومها الطويل، فبمجرد أن فتحت عينيها سرى بداخلها شعورٌ بائسٌ وغير مبرَّر بأن اليوم لن يكون مثاليًا؛ وعزّز من شعورها ذاك ما اكتنف رأسها من أفكار مشوَّشة ومتتشابكة، فضلًا عن الملل الشديد بداخلها، المشوب بمزاج كدر، وقد جعلها هذا الشعور الدخيل غير قادرة على اتخاذ قرار النهوض من

الفراش، وغير عابئة بالوقت وهو يمر كالقطار التوربيني من خلف نافذة غرفتها ساحقًا أسفل قضبانه آخر خيوط لون الغروب الأحمر في السماء. ولأن الوقت استمرَّ في عدوه السريع صوب خط نهاية اليوم، أصبح لزامًا عليها أن تنهض لترتدي ثيابها كي تذهب لحفل رأس السنة الذي دعتها إليه صديقتها المقربة، والتي لن تقبل منها أية أعذار من أي نوع، خاصة أنها ألحّت عليها كثيرًا حتى تقبل هذه الدعوة.

وقفت طويلًا أمام خزانة ملابسها غير قادرة على الوصول لقرار أي فستان من بين كل ثيابها سوف ترتدي، وحتى حين قامت بتجربة أربع فساتين بأربع ألوان مختلفة لم تشعر بالرضا عن أيٍّ منهم، لم تشعر أن لون أي منها يتسّق مع لون حالتها المزاجية آنذاك، وهي الفنانة المؤمنة تمامًا أن اللون الداخلي للنفس لا بد أن يتآلف مع لون ما نرتديه وإلا صار الناتج عبثيًا وفوضويًا. وأخيرًا وقفت لدقائق طويلة أمام الفستان الوحيد أسود اللون من بين كل ثيابها المتراصّة في الخزانة، والذي يختفي في آخر الصف بعد كل الملابس المعلَّقة على الشمّاعة العريضة، وكأنه لم يتوقع أن يكون خيارها لتلك الليلة مثلما لم يكن خيارها أبدًا في أيٍّ من لياليها وسهراتها السابقة، فآثر البقاء منزويًا ووحيدًا مذ ليلة دخوله لتلك الخزانة. كما أنه كان على يقين أن لونه الأسود هو أكثر لون كانت تتحاشاه دائمًا في كل اللوحات التي

رسمتها منذ أن احترفت الفن التشكيلي، أو ربما منذ أن اكتشفت موهبة الرسم في نفسها، وهو اللون الذي تتجنبه في كل التفاصيل المحيطة بها، حتى إنها لم تمسك حقيبة سوداء ولم تنتعل حذاءً أسود اللون قَط طيلة حياتها. استبعد الفستان نفسه من خياراتها لأنها استبعدت لونه من نطاق رؤيتها. لكنها فاجأته تلك الليلة حين لامست قماشه المصنوع من «الدانتيل الفرنسي» بأناملها النحيلة ومرّرتها فوق تفاصيله المطرزة بعناية وأناقة، وخيّل له أنها تطلب منه الإذن في ملامسة جسدها المثير في تلك الأمسية، فاستسلم لرغبتها فوزًا على الرغم من كل تاريخهما العدائي السابق ودون أي مقاومة منه؛ قَبِل طلبها المفاجئ ذاك وبدون أي تمنّع أو مساومة، وارتضى أن يكون خيارها الخامس.

نظرت لنفسها فى المرآة بعد أن دخل جسدها الثلجى الناصع في جوف الفستان، كانت فاتنة درجة أن المرآة تمنّت لو أنها تتكلم فتغازلها. لكنها كانت تنظر لنفسها من زاوية أخرى غير فتنتها، كانت منشغلة بتلك الطاقة السلبية التي تعتريها وتقفز من داخلها وتتجسد في فستانها، وقد أصبحت على يقين من ذلك الحدس الذي سيطر عليها لحظة استيقاظها من النوم؛ كل شيء في هذه الليلة سيكون كلونِ هذا الفستان..!!

***

قفزت من مقعدها فجأة وهي تهتف جذلة:

- ها قد جاءت أخيرًا.

وتحرّكت مسرعة نحوها بفرحة عارمة وضمّتها إليها بودٍّ بالغ، ثم وضعت يديها برفق فوق كتفيها وهي تتأملها بإعجاب، ثم أردفت:

- يا إلهي! كم تبدين جميلة جدًّا في هذا الفستان الأسود، هذه هي المرة الأولى التي أراكِ فيها ترتدين هذا اللون، كيف لم تفعلي ذلك من قبل؟! لكم يناسبك !

- إنه يناسبني اليوم.

- بلى، تبدين رائعة جدًّا، أحمد الله أنكِ أتيتِ. لقد حاولت الاتصال بكِ مئات المرات ولكن هاتفك المحمول كان مُغلقًا على الدوام. خِفتُ كثيرًا ألا تأتي، فالاحتفال بليلة رأس السنة بدونك كان سيبدو كطقس جنائزي؛ حدث ما كنت أتوقعه واحتسى زوجي الكثير من الشراب وها هو قد بدأ يعاني من آثار الثمالة. أما بقية الأصدقاء الذين يشاركوننا منضدة السهرة، فهم مملون للغاية.

قالت هذا وأشارت باتجاه المنضدة التي يجلس عليها الرفاق:

- هيّا لننضم إليهم، لقد احتفظت لكِ بالمقعد المجاور لمقعدي حتى نتجاور في تلك السهرة العجيبة.

تحركت مع صديقتها في اتجاه منضدة الرفاق وهي تشاهد المكان كما اعتادت دائمًا أن ترى الأماكن، أو كما اعتادت أن تشاهد أي لوحة أو عمل تشكيلي. كانت تتمتع بالقدرة على تثبيت صورة أي مشهد يمر أمامها وكأنها ضغطت على زِرّ إيقاف الصورة من جهاز التحكم عن بعد، ثم تبدأ التعامل مع المشهد وكأنه لوحة معلقة فوق جدار أبيض، فتستغرق فى النظر إلى تلك اللوحة وتبدأ رحلتها الروحية في البحث عن التفاصيل والخطوط والألوان. ومثلما تعرض المتاحف والمعارض اللوحات الرائعة فإنها تعرض كذلك اللوحات الرديئة والفقيرة فنيًا؛ ذلك التمايز في الإبداع الذي لا تحدده ما إذا كانت خامة الألوان والأوراق وفرشاة الرسم من الخامات باهظة الثمن أو رخيصة الصُّنع، بل يحدده الناتج الفنيّ المعلَّق على الحامل الخشبي في صورته النهائية. أما هي فتبحث دائمًا عن الجزء الذي يشكّل عمق الصورة؛ عن تلك المساحة الغامضة التي تراها الروح قبل أن تراها العيون، تلك هي عادتها الدائمة وطبيعتها الكاشفة والمستغرقة في المضمون؛ فهي ترى الأمور دائمًا من العمق وتُهمل كل ما يدور على السطح.

والمكان بالفعل كالألوان باهظة الثمن الذي لا يستطيع شراءها رسامٌ فقيرٌ مغمور؛ فهناك مطعم وبار فخم من نوعية الأماكن التي لا يرتادها إلا عِلية القوم وأفراد الطبقة الميسورة، يقع على سطح باخرة ترسو على شاطئ النيل في قلب القاهرة تمامًا، لكنه لا يشبه القاهرة التي تحبها في شيء، أو ربما يشبه عالم القاهرة الغامض الخفيّ المخصص لطبقة اجتماعية محددة، أما هي - غير المتصالحة مع الأماكن التي لا يستطيع عبورها الجميع - فقد تجاوزت سريعًا مجال الرؤية المحدود على سطح تلك الباخرة الفارهة وراحت تبحث عن العمق الذي تعشقه، المجال الذي يشغل روحها المتأملة، فتجاوزت المحيط الضيق للمكان وانطلقت بعيدًا فيما وراءه، ولامست بروحها خلفية الصورة والبُعد الثالث لها، فإذا ببعض البسطاء وهم يستندون على السياج الحديدي لكوبري أكتوبر، يحتفلون أيضًا بليلة رأس السنة، ولكن بطريقتهم العفوية البسيطة، فيشاهدون أمواج نهر النيل المتلألئة بأضواء الفنادق الفارهة والبواخر السياحية الضخمة على ضفته القريبة، يرقصون ويتمايلون في خفة ظل وتلقائية على إيقاع بعض الأغاني الشعبية الصادرة من مذياع سيارتهم صينية الصنع، وامرأة تبدو من تلك المسافة البعيدة كتشكيل فوضوي بجسدها الممتلئ السمين، تحاول جاهدة الحفاظ على وضعية حجابها فوق رأسها حتى لا تعبث به الرياح

الباردة القادمة من قلب النهر، بينما يجتهد زوجها لاستبقاء القلنسوة الحمراء البرّاقة الخاصة بعيد رأس السنة من فوق رأسه، وكل منهما يفعل هذا بيدٍ واحدة فقط حين يد الرجل الأخرى ملتفة حول كتف امرأته فى حُبٍّ ويدها الأخرى ملتفّة حول ضلوع رجلها في أمانٍ. تمنت لحظتها أن تعبر مسرعة بين المناضد فتتخطى السياج الأنيق للباخرة وتقفز في النهر لتسبح وتسبح حتى تصل لأسفل كوبري أكتوبر وتناشدهم انتشالها حتى تحتفل معهم بطريقتهم البسيطة المرحة، غير المتكلفة، فتنجو بروحها من البقاء وسط هؤلاء المتكلفين، وتُفلِت من أجواء احتفالهم، ولا تظل حبيسة ذلك الفستان الأسود الذي صبغ لونه روحها منذ بداية اليوم؛ فلربما وجدت مع البسطاء لونًا احتفاليًّا يناسب تلك الليلة ويسدّ الطريق على السواد الذي يواصل التغلغل بداخلها.

عادت روحها من رحلتها المتأملة، واستعادت إدراكها الماديّ بمحيطها حين اخترق قلبها صوت يهتف بحماس شديد «خمسة»، فانتبهت لما يدور حولها، وكان المطرب المشهور الذي يُحيي احتفالية الليلة مستمرًّا في هتافه الحماسيّ ومواصلًا عَدّه التنازلي للثواني الأخيرة في حياة العام الحالي قبل ميلاد العام الجديد وسط خفوت شديد في إضاءة المكان. شعرت برجفة تسري في أوصالها حين ردّد جميع الحاضرين مع المطرب في صوت هتافي متزامن «خمسة»،

قبل أن يتابع المطرب والجميع العدّ التنازلي؛ أربعة، ثلاثة، اثنان، واحد.

عادت الأضواء تبرق بقوة وسط حالة صخب أصابت الجميع وهم يتبادلون التهاني والقبلات بأول لحظات العام الجديد، لكنها كانت ترد على تهانيهم بكلمات مقتضبة، ولم تستطع رسم ابتسامة ولو زائفة تجامل بها الرفقة، وأخفقت في أن ترد القُبلة المهنئة لصديقتها بنفس الحميمية، واجتاحها في تلك اللحظة حنين شديد لحبيبها، وتمنّت لو كان معها ليشاركها تباشير العام الجديد وهي متأبطة ذراعه ومستندة عليه كما يحلو لها دائمًا أن تفعل، وانزعجت جدًّا حين تنبهّت أنه لم يخطر على بالها منذ أن استيقظت في منتصف هذا اليوم أن ترسل إليه رسالة نصيّة تهنئه فيها بالعام الجديد، بل وفات عليها أن تهنئه بجائزة الأدب والشعر التى يتسلمها اليوم من أكبر الجهات الثقافية في مدينة دبي. كيف أغفلت أن تظهر له اليوم بعض شعورها بالفخر به وهو المدعو إلى الاحتفال برأس السنة في قصر أحد أمراء دبي، أو حتى أن تلقي نظرة على حسابها على «فيسبوك»؛ لا بد أنه قد أرسل إليها بصورة من تكريمه او ارسل لها رسالة ما، وهي التي لم تهتم بأن تفتح هاتفها المحمول المغلق منذ ليلة الأمس، ولا بد أنه قد حاول الاتصال بها مرارًا ليهنئها بالعام الجديد، بل وما الذي حداها إلى الذهاب إلى ذلك الحفل بالأساس طالما أن

مزاجها سيء درجة أنها أغفلت حبيبها في ليلة كتلك. لم تجد إجابة لكافة تساؤلاتها، ولم تجد في نفسها الرغبة في إنعاش هاتفها من غفوته الإجبارية، وقرّرت ألا تفعل أي شيء وأن تُبقي الوضع كما هو عليه.

قاطع أفكارها تلك، صوت زوج صديقتها الأجش الثمل وهو يصيح غاضبًا:

- هل يعجبك ما تفعله صديقتك؟

- ماذا تقصد؟

- انظري هناك..

تتبعت بعينيها الاتجاه الذي يشير إليه فوجدت صديقتها تراقص رجلًا من رفقتهم وابتسامتها تملأ وجهها النحيف، وكانت رقعة الرقص مزدحمة جدًّا بجموع المحتفلين على صوت المطرب الذي كان يحفزهم على الاستمرار في الرقص على نغمات أغنيته الإيقاعية المتحركة، وتعلقّت نظراتها على صديقتها دون أن تنظر لزوجها:

- ولماذا لا تراقصها أنت؟

- أنتِ تعرفين أنني لا أحب الرقص.

لم تكن تعرف إذا كان يحب الرقص أم لا، أو بالأحرى لم تكن

مهتمة باستدعاء تلك المعلومة من ذاكرتها؛ فهذا الرجل شأنه شأن شخصيات كثيرة في حياتها؛ موجودون لأسباب لا دخل لها فيها، ومستمرون باستمرار تلك الأسباب، لا تحبهم ولا تكرههم، ولا يمرّون بخاطرها بأي انطباع إيجابي أو سلبي، فهم اعتباريون درجة أنها لم تبهت عليهم أية ألوان مميزة. وذاك الرجل الاعتباري موجود في حياتها فقط بحُكم أنه زوج صديقتها العزيزة. وكان من المستحيل أن تشاركه هذه الطاولة في يوم من الأيام إلا لذلك السبب فحسب، وكل ما تستطيع التفكير فيه في تلك اللحظة هو أنه لا ينتمي إلى ذات الشريحة الاجتماعية التي تنتمي لها صديقتها، ولا لمجتمع أغلب الموجودين في هذا المكان. صحيح أنه رجل أعمال شديد الثراء، إلا أنه من التركيبة الاجتماعية التي تحتفل أمامها الآن بليلة رأس السنة من فوق كوبري أكتوبر. كيف يدّعي أنه لايعرف الرقص وأمثاله هم الراقصون بين جميع الطبقات والثقافات، وهم المشوهون بين تقاليد التربية والنشأة المحافظة وبين وجاهة الانتساب للفئات الراقية المتحررة؟! هم خليط الماء بالزيت.

- لقد تخطى الأمر حدود صبري ولابد من إيقاف هذه المهزلة. قال جملته الأخيرة تلك بانفعالٍ شديدٍ، وانطلق وهو يدفع بطنه الكبير أمامه متجهًا بخطوات رنّحتها الثمالة صوب رقعة الرقص وهو يزيح من أمامه بعض الراقصين في عصبية

حتى وصل إلى صديقتها وأمسك بها بشراسة وهو يحاول دفعها بعنفٍ بعيدًا عن المرقص فيما كانت هي تحاول نهره ليتوقف عما يفعله، لكنه استمر في عنفه ونوبته العصبية المحمومة، وحين تدخل الآخرون لمنعه وتهدئته صرخ فيهم جميعًا صرخة متوحشة وانطلق السباب من فمه كقذائف طائرة حربية تضرب حقلًا من القطن، وأخيرًا تحرّرت هي من قبضة يده وراحت تعدو تجاه المنضدة تحتمي بها وقد شوّهت دمعاتها مساحيق التجميل الرقيقة التي تغطي ملامحها.

- احميني من هذا الحيوان!

لم تعرف ماذا تفعل لها؛ كانت تشاهد ما يحدث بين الزوجين وهي متحجرة، متصلبة، ومتهدجة الأنفاس. كل ما استطاعت فعله هو أن تقبض على يد صديقتها وتستميت في تلك المسكة دون أن تتفوه بكلمة، وهنا عاد الزوج لهما مندفعًا كقطيع وعول بريّة وملامح وجهه تكاد تتمزق من جمّ الغضب وهو يصيح بصوت هادر:

- وهل ستحميكِ منّى هذه الدمية؟!!

صاحت الزوجة من بين دموعها:

- كف عن هذه الهمجية أيها السكير الوضيع.

استشاط غيظه لإهانتها له فأجابها في غلظة:

- حسنًا.. فلتشاهدي إذًا ما هي أصول الهمجية يا ابنة الأحساب والأنساب.

قال هذا وانهال على وجهها بصفعات متتالية مستكملًا ثورته الوحشية، ثم أمسك بسكين صغير من فوق المنضدة وهو يرفعه باتجاه زوجته، وهو يردف وقد فقد صوابه:

- بل سوف أقتلك حتى أبلغ بالهمجية حدّها القصي وحتى تكفّي عن معاملتي بهذا التعالي.

أشاحت بوجهها بعيدًا عن صديقتها وزوجها الهمجي ونظرت هناك حيث كانت روحها منشغلة منذ وصولها إلى هذا المكان، ولكنها لم تجد أيًّا من المحتفلين على كوبري أكتوبر، وكان الجميع قد انصرفوا عدا عامل نظافة يجر مكنسته بإرهاق وهو يلملم ما تبقّى من مراسم الاحتفالات البسيطة.

بدأت الكثير من المشاهد غير المترابطة وغير المرتبة تتابع أمام عينيها بسرعة عدّاء أوليمبي؛ مشهد للمرة الأخيرة التي ارتدت فيها فستانًا أسود اللون قبل تلك لليلة، ثم مشهد نافذة غرفة تطل على جسر يشبه كوبري أكتوبر يعبر بين ضفتي نهر صامت بلا أمواج، ومشهد رقصة رقيقة على أنغام موسيقى الفالس لم تكتمل، وصوت يشبه صوت زوج صديقتها وهو

يهدّد ويسب.

تركت يد صديقتها وسقطت على الأرض، لم يسقط جسدها فحسب، وإنما سقطت روحها من أعلى الجبل دون أي فرصة لنجاتها، بدون مظَلّة وبدون حبل الأمان.

انحنت صديقتها من بين دموعها غير مبالية بالسكين في يد زوجها وصرخت بقلب مفطور:

- جوليا ..جوليا..

(١ / ١ / ٢٠١٥)

«أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أولياء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا»(050)

قال مجاهد: إن كيفية وجود النسب منه أنه أدخل فرجه في فرج نفسه فباض «خمس» بيضات.

جافى القمر السماء في تلك الليلة، ولم يُعرها جزءًا منه كي يترك بصيصًا بسيطًا من النور، فكانت السماء متشحة بالسواد الحالك وكأنها ترتدي ملابس الحداد وفي طريقها لحضور مراسم جنائزية مهيبة، وحتى النجوم بدت وكأن طاقة الضوء بداخلها قد استُنزفت تمامًا ولم يعد هناك ما يكفي في أحشائها لتعكسه على وجه الأرض القاتم، بينما تسللت الريح في خفة لتضرب غصون أشجار «دم التنين» المخيفة والمصطفة على جانبي الممشى الترابي، فعزفا معًا صوتًا مقبضًا للقلوب تعهدت فيه الريح بعزف آلات النفخ وتركت لأشجار «دم التنين» العزف الوتري الكئيب بأغصانها الملتوية كعروق عنق امرأة عجوز، وأوراقها التي تشبه أشواك حيوان قنفذ يهرب من أنياب حادة تحاول افتراسه، بينما استمرت دقات قلبها بالتزايد في سرعة محمومة وكأنها تشكِّل جملة الإيقاع للعزف الذي تعزفة الريح مع الأشجار، فاكتملت أركان هذا اللحن المشؤوم، وهي مدفوعة دفعًا لمتابعة السير في

ذلك الممشى الترابي المفزع، وكأن هناك قوى غامضة تدفعها للمضي قدمًا على الرغم من ارتياعها الشديد وتلك الرهبة التي تحيط بها صوتًا وصورة. واستمرت في المسير وهي تُقدّم قدمًا وتؤخر الأخرى دون أن توشي لها تلك الظلمة بما إذا كان لذلك الممشى نهاية أم أنه ممتد بلا انتهاء حتى نهاية الزمن، وبدون أن تحدوها أدنى رغبة في التوقف والبحث عن مخرج أو طريقٍ آخر يأخذها للهدى. لم تعرف على وجه التحديد كم مرّ من الوقت وهي بَعد تتقدم في خطى متخبطة نحو المجهول، واللحن البغيض يفرض سيطرته المستبدة على روحها بلا هوادة.

وفجأة، وعلى حين غرة، هَوَت يدٌ ما على كتفها من خلفها، فشعرت بقلبها ينخلع من الخوف ولم تقوَ على الالتفات لتعرف يدّ من كانت تلك. تخشبت في مكانها كوّتد خشبيّ شاهقٍ وعتيقٍ يعود إلى القرن الماضي ويحمل على كتفيه أسلاك الهاتف ثم يمررها لوتد آخر يليه في تلك المتتالية الثابتة والمطلقة. ارتبك إيقاع نبضها فارتبكت كل جُمل اللحن، وتحيّنت الريح الفرصة فأمعنت النفخ في بوقها الرنان وارتعشت لها أوراق الأشجار الدميمة حتى غدت كل الأشياء صاخبة من حولها وتنفث في وجهها كحية سامة.

عادت اليد لتحطّ فوق كتفها مرة أخرى لكن هذه المرة

صاحبها صوت عميق كأنه يأتي من حفرة تُلامِس لُبّ الأرض؛ صوت من البشاعة درجة أنه يتعذر تحديد جنسه إن كان لذكرٍ أو لأنثى:

- جوليا؟

كان الصوت عميقًا تصاحبه جلجلة جعلت الاسم يتردد ويتردد بلا توقف. استجمعت ما تبقى لها من دماء في عروقها كي تأمر قدميها فتتحركان قليلًا حتى تلتفت لمصدر الصوت وصاحب اليد، وبالفعل نظرت، وليتها لم تفعل، فقد انخلع قلبها من صدرها وكأنه مزّق ضلوعها واخترق قفصها الصدري وسقط بين قدميها حين عاد الصوت ليكرر من جديد:

- جوليا؟

حاولت أن تتكشف ملامح صاحبة الصوت أو صاحبه من بين ستائر الظلام المنسدلة أمام عينيها ومن بين دخان مخاوفها التي أعمت مستقبِلات الصورة في عقلها.

بدا لها أن الطيف الماثل أمامها هو لامرأة في ثوبٍ أسود فضفاض ضاعت تفاصيله في الخلفية السوداء لتلك الليلة، وتغطي رأسها بغطاء بنفس درجة السواد تلك فلا ينكشف من ملامح وجهها أي شيء؛ ربما كان أشبه بزِيّ منتقبة من نساء الإسلام المتشددات، أو كزِيّ راهبة مسيحية، أو كهيئة امرأة

يهودية من طائفة «الحريديم»، تلك الطائفة الأصولية المتشددة التي تلبس نساؤها ما يسمى بالفرومكا، شيء واحد فقط كان يؤرّق سطوة ذلك السواد في هيئة المرأة المخيفة، ألا وهو سلسلة فضية طويلة تبرق بشدة وتنتهي بنجمة خماسية شديدة اللمعان تحمل صورة في منتصفها تمامًا صعب تمييز تفاصيلها.

زاد صوت المرأة عمقًا ليثير في نفسها رعبًا أكبر، وكأن الموجات الصوتية لتلك الحروف لا تنتهي أبدًا وهي تكرّر للمرة الثالثة:

- جوليا؟

تعذّر عليها الجواب، بل لما تطاوعها حنجرتها لتأتي بأي صوت على سبيل الردّ، فاستجمعت كل قواها كي تومئ برأسها موافقة، فعاد الصوت يسألها:

- هل تذكرينني؟

ومجددًا لم تستطع الإجابة واكتفت بأن أومأت برأسها بصعوبة نافية أنها تعرفها.

اقتربت منها المرأة أكثر حتى كاد وجهها يلتصق بوجه جوليا، وبدأت في رفع الغطاء الذي يخفي وجهها ببطء حتى انكشف وجهها برغم ذاك الظلام الدامس؛ بشرة رمادية باهتة

وكأن دماء عروقها قد نضبت، بل وكأنها بلا عروق بالأساس، وفم غليظ أسود، وقرنية عين سوداء حالكة ينتصفها حدقة شديدة الاحمرار، ثم كرّرت على «جوليا» سؤالها:

- هل تذكرينني الآن؟

تلاشت بقايا التماسك في أوصالها حين رأت ملامح المرأة، وشعرت بدوّار عنيف يدقّ جنباتها، وحين أوشكت أن تفقد وعيها تلقفتها المرأة قبل أن تسقط فوق الأرض، وأمسكتها من كتفيها بيديها الرماديتين المنتهيتين بأنامل نحيلة وطويلة بشكل ملحوظ، تنتهي بأظافر سوداء حادة، وهي تطلق ضحكة صاخبة اهتزت لها أشجار «دم التنين» وكأن زلزالًا عنيفًا قد ضرب جذورها:

- سوف تتذكرينني قريبًا؛ أنا سيدتك التي عادت من جديد..!!

***

رُبَّمَا نَقَصَ الْخَمْسُونَ بَارًّا خَمْسَةً. أَتُهْلِكُ كُلَّ الْمَدِينَةِ بِالْخَمْسَةِ؟(049)

قفزت من نومها مفزوعة وكل أوصالها ترتعد كشخصٍ أصابته نوبة من نوبات الصرع الجنونية، أو كأن طاقة كهربائية عنيفة راحت تعدو محمومة داخل أوردتها. فركت عينيها بأناملها علّها تتخلّص من التشويش وتستعيد وضوح الرؤية، فيما اختلط حابل أفكارها الضبابية بنابل مشاعرها

الدخانية فباتت كمن يسبح في برزخ يخلط الموت بالحياة، حاولت دون جدوى أن تتذكر تفاصيل الكابوس المريع الذي نفضها من نومها العميق، ولكن لم يتبقَ في ذهنها المضطرب مشاهد واضحة إلا صورة غير مكتملة لامرأة مخيفة كانت تتحدث إليها؛ بماذا كانت تخبرها؟ ومن تكون هي؟ خُيّل لها أنها قد رأت تلك المرأة من قبل في كوابيسها السابقة لكنها لم تستطع الجزم بذلك. أمسكت بالكوب المجاور لفراشها وحاولت أن تبتلع بعض توترها مع شربة ماء، ونظرت للساعة الألكترونية المعلّقة على الجدار المواجه لها فوجدتها قد تخطت الخامسة فجرًا ببضع دقائق.

دقائق أخرى قليلة مرّت وهي متكئة على الوسادة تحاول استجماع هدوئها والسيطرة على أنفاسها اللاهثة، بيد أن ذلك لم يسفر عن نتيجة مغايرة حتى بعد أن استطاعت الهدوء وتنظيم انفعالها؛ لم تتذكر أية تفاصيل أخرى من ذلك الكابوس المرعب؛ فقط صوت المرأة وشعورها بأنها قد رأتها في أضغاث أحلامها من قبل.

انعقد حاجباها مرة أخرى حين استدعى ذهنها سؤالًا صامتًا جديدًا: أين كنت قبل ذلك الكابوس؟!

أغمضت عينيها بشدة كمن يحاول التركيز وتحفيز ذاكرته. نعم.. لقد كانت منذ سويعات في حفل رأس السنة مع

صديقتها «ريم» وزوجها الغبيّ، وتذكرت كيف تهجّم ذلك المتوحش على «ريم» وصفع وجهها الجميل، بل وحاول قتلها وهدّدها بالسكين أمام جميع الحاضرين قبل أن تسقط هي مغشيًا عليها. بئس الرجال!.. كيف تجرّأ ذلك الحقير وضربها بذلك الشكل الهمجي؟ ومن أين واتته الشجاعة كي يروّع أنثى شديدة الرقة مثل «ريم» بتهديدها بالقتل؟ أمعنت «جوليا» في إحكام جفنيها كي تستدعي إلى ذاكرتها ما حدث بعد عودتها إلى الوعي. تذكرت أن «ريم» قد نقلتها بسيارتها إلى منزلها، ووضعتها في فراشها، وظلت بجوارها لبعض الوقت حتى اطمأنت عليها، ثم أخبرتها أنها سوف تذهب إلى بيت أبيها وتطلب الطلاق من هذا السمين السكّير، بل قالت إنها تفكر في إبلاغ الشرطة عن تهديده لها بالقتل على رؤوس الأشهاد.

ثم انتفضت «جوليا» فجأة كالملدوغة حين تذكّرت أمرًا آخر شديد الأهمية، وصاحت:

- يا إلهي، «صبري»؟!

أمسكت بهاتفها المحمول الذي كان مازال مغلقًا منذ اليوم السابق، وضغطت زرّ الطاقة، وما إن استيقظ الهاتف من غفوته الطويلة حتى انهالت أصوات الإشعارات التي كانت تنتظر تلك اللحظة طوال اليوم؛ الكثير من التنبيهات

بمكالمات ورسائل كانت حبيسة تنتظر عودة الهاتف إلى الحياة كي تتنفّس بدورها. تجاهلتهم «جوليا» جميعًا ومرّ بنانها فوق سطح الشاشة يبحث عن اسم «صبري» بين قائمة الأسماء حتى وجدته فضغطت مسرعة على أمر الاتصال.

ثوانٍ معدودات سبقت صوته الذي أتاها مشبعًا باللهجة الصعيدية وهو في منتهى القلق واللهفة والعصبية في آنٍ:

- «جوليا» أين كنتِ طوال اليوم؟ لقد بلغ بي القلق مبلغه!

- سنة جديدة سعيدة.

- أتمزحين؟! الآن فقط تذكرتِ؟! هل يوجد ما يبرر اختفاءك طوال أمس على ذلك النحو؟! هل تشعرين أي توتّر سبّبتِه لي جرّاء غيابك ذاك؟! هل أنت بخير؟!

- مبارك عليك جائزة شاعر العرب، تستحقّها بجدارة.

- «جوليا» .. ماذا بك؟

- أحبك، وأحتاج جدًّا لذراعيك السمراوين كي يلفاني الآن.

- حبيبتي، أنا أيضًا أحبك، لكنكِ تزيدين من قلقي الآن؛ سأحاول أن أجد مكانًا على أول طائرة متجهة إلى القاهرة.

- لا داعي لذلك، هل نسيتَ أنك مدعو لتكريم آخر في أبو ظبي بعد يومين؟!

- سأعتذر عنه.

- الأمر لا يستحق، أنا بخير، وسوف أكون في انتظارك بصالة المطار ظهيرة يوم السادس من يناير كما كان اتفاقنا.

تثاءبت بشدة وهي تستطرد:

- هيّا عُد إلى نومك وسوف أتصل بك لاحقًا.

***

خمسُ يُعرفْن بخمس: الشجرة تُعرَف من ثمارها، والمرأه عند افتقار زوجها، والصديق عند الشدة، والمؤمن عند الابتلاء، والكريم عند الحاجة .(048)

أزاحت «ريم» درفتي الباب الحديدي القصير ودلفت من بينهما إلى حديقة متوسطة المساحة ولكنها مُنمّقة بشكل رائعٍ، تفوح منها روائح رائعة لأريج الزهور المنتشرة في كافة أركانها، وفي منتصفها تمامًا دائرة ينتشر بداخلها «الورد القزمي» الفاتن بألوان تراوحت بين الأبيض والأصفر والخمري والزهري حتى صنعت من تلك الدائرة لوحة تسترقي النظر. ويتاخم سور الحديقة غير المرتفع صفٌّ من أشجار «التويا» متوسطة الارتفاع والتي تقوم بدورها في حماية المكان من عيون المتلصصين والفضولين، بينما تعمل أزهارها على نشر البهجة لدى المسموح لهم بدخول الحديقة. وعلى الجانب

الأيمن تراصّت بعض الصفوف المنضبطة لنبات «أوز النهر» بوروده الشعاعية الجميلة متعددة الألوان، وفي جنبات تلك الحديقة كانت تفوح رائحة أزهار شجيرات «المورای» بخليطها الزكي الذي يمتزج فيه شذى الليمون بعبق الياسمين فينعشان الرأس ويمسّان الوجدان.

ويعود فضل هذا التنسيق الرائع لـ «عم حسّان»؛ ذلك الرجل النوبي العجوز صاحب الابتسامة الصافية التي تشبه زهوره في لطفِها وجاذبيتها، وصاحب الملامح التي تشبه أشجاره في أصالتها ورسوخها، والذي يعمل بستانيًّا في تلك الحديقة الصغيرة منذ أكثر من خمسين عامًا، حين كان والد «جوليا» مراهقًا يافعًا في عُمر «عم حسان» تقريبًا، يعيش مع عائلته الأرستقراطية في الفيلا المشرفة على تلك الحديقة التي تطل بدورها على نهر النيل، في بقعة من أروع بقاع حي الزمالك.

حينها كان «عم حسان» مجرد مراهق آخر أتى به أحد أقاربه للعمل في ذلك المكان، ومن حينها وهو مرتبط بتلك الفيلا ارتباط الرجل بمعشوقته؛ مُتيمًا بمحيطها الصغير، واقعًا في غرام حديقتها درجة أنه تزوجها زواجًا كاثوليكيًّا لا طلاق فيه، وأخلص لها ولم يعرف طيلة حياته مكانًا آخر غيرها، فاعتبرها وطنه ومستقرّه ولم يحاول أبدًا الابتعاد عنها ولو لمرة واحدة.

حين جاء «عم حسان» هنا للمرة الأولى كانت تلك الفيلا واحدة من بين أخريات مصطفّات أمام صفحة النهر الخالد كمقاعد الصف الأول في دار أوبرا «فيينا»، وكان أغلب سكان تلك الفلل من غير المصريين، قبل أن يُزال الكثير من تلك المقاعد لتظهر بدلًا منها أبراج سكنية كبيرة شوّهت من ذلك الجمال القديم ولوّثت بديع تأثيره السابق، فاستبدل النهر موسيقاه الأوبرالية الكلاسيكية بأغانٍ سوقية مبتذلة المعاني وعنيفة الإيقاع تصدر من بعض المراكب الصغيرة التي تتجوّل بالبسطاء في رحلاتهم الترفيهية القصيرة، فتنفذ إلى أذني «عم حسان» في الكثير من الأوقات وهو يرتّب زهوره ويقلّم أوراق شجيراته، فيتحسّر على الماضي القريب ويتندر على أيامه الجميلة.

وكانت تلك الفيلا فيما مضى تعجّ بأصدقاء «عم حسان» القُدامى؛ الطباخ والسائق والسفرجي والمضيفة، لكن الجميع ذهبوا تباعًا ولم يتبقَّ غيره، حتى إنه عاش فيها وحيدًا لسنين طويلة بعد أن هجرها أصحابُها لأسبابٍ متعددة كما هجرها أصدقاؤه من العاملين بها.

بدأ رحيل الأحباء من سكان الفيلا وعامليها حين جاء التكليف لـ «يوسف بك» والد «جوليا» للعمل الدبلوماسي بسفارة مصر في مدينة «بون» عاصمة جمهورية ألمانيا

الاتحادية أو ألمانيا الغربية كما كان اسمها آنذاك. كان «يوسف» هو الابن الوحيد لـ «شهاب الدين بك» و«ياسمين هانم»، أصحاب الفيلا، والذي بدأ حياته العملية بوزارة الخارجية المصرية بمجرد تخرُّجه من كلية الأقتصاد والعلوم السياسية، وكان لاقتراب عمره من عُمر «حسان» أثره الشديد في نشأة صداقة فريدة بينهما؛ فلم تكن أبدًا علاقة السيد بالخادم، وإنما علاقة الشاب بالشاب والصديق بالصديق. وكثير ما كان «يوسف» يذهب لمسامرة «حسان» في غرفته الصغيرة الملحقة بخلفية الفيلا فيتنادران ويتبادلان أحاديث المراهقة ونكاتها، وعلى الرغم من اختلاف المستوى الاجتماعي والنشأة والتعليم بينهما إلا أن كل منهما كان قادرًا على التواصل مع الآخر وفهمه واستيعابه. ولذا شعر «حسان» بافتقاد شديد حين سافر «يوسف» ليخطو أولى خطوته في عالم الدبلوماسية، وتسرّب داخل نفسه يقين ما بأن فرص لقائه بيوسف من جديد صارت قليلة جدًّا، بل ومنعدمة. نبّأه حدسه أن من يدخل عالم السلك الدبلوماسي لا يخرج منه بسهولة، ويطول غيابه وترحاله وتنقله بين الدول، وهذا ما حدث بالفعل؛ حيث استمر غياب «يوسف» كثيرًا ولم يعُد من «بون» إلا مرة واحدة فقط كانت بعد عامين من رحيله، وكانت عودته لحضور عزاء والده المستشار «شهاب الدين بك» الذي توفى بشكل مفاجئ ودون أية مقدمات من مرض

أو علة أصيب بها، ولم يمكث «يوسف» في تلك الزيارة إلا خمس ليالٍ فقط ليعود أدراجه إلى «بون» مجددًا. وكانت تلك عودته الأولى والأخيرة منذ رحيله عن مصر ولم يكرّر عودته تلك أبدًا، حتى إنه لم يحضر مراسم عزاء والدته «ياسمين هانم» التي توفّت بعد عام واحد من رحيل زوجها، وصدق حدس «حسان» وتنبؤات قلبه؛ فصديقه الوحيد ذهب ولم يعد.

ومع ذلك، لم ينقطع «يوسف» أبدًا عن مراسلة «حسان»، صديقه العزيز ورفيق مراهقته وخليل أوليات شبابه، فكان يرسل إليه برسالة كل شهر يطلعه فيها على أحواله ومستجدات أموره، وعرف «حسّان» من تلك الرسائل أن «يوسف»

قد انتقل من العمل في السفارة المصرية بمدينة «بون» إلى السفارة المصرية بمدينة «واشنطن» الأمريكية بعد خمس سنوات من الخدمة الدبلوماسية في ألمانيا، كما عرف منها أيضًا بأمر زواج «يوسف» من شابة أمريكية تدعى «ليليت» أحبها كثيرًا وقرّر الزواج منها في نهاية الأمر. وأرسل «يوسف» إلى صديقه أول صورة التقطها لابنته «جوليا» بعد ولادتها بأيامٍ قليلة، وحين رأى حسان صورة تلك الطفلة شديدة الجمال كانت سعادته لا توصف، وفرحته لا حدود لها،

وتعلّق قلبه بصورة الطفلة تعلُّقًا كبيرًا حتى شعر في قرارة نفسه أنها ابنته التي لم ترزقه السماء بها، وعلّق تلك الصورة فوق الجدار المواجه لفراشه في غرفته الصغيرة الملحقة بالفيلا ليرسل لها تحية الصباح كلما استيقظ مع أضواء الفجر الأولى، وتحية المساء قبل نومه في أخريات ساعات الليل.

واستمرت تلك الرسائل بين الصديقين لعدد غير قليل من السنوات، استطاعت فيها الصداقة والعلاقة القوية قهر المسافات وظروف الحياة، وهي الصداقة التي بنَتْ جسورًا غير مسبوقة من الثقة والأمان دفعت «يوسف» بعد وفاة أمه إلى أن يرسل إلى «حسان» توكيلًا عامًا يعهد فيه إليه بإدارة شؤون الفيلا والتعامل مع كافة أمورها القانونية، بل وسمح التوكيل لـ «حسان» ذاته بالتصرف في جزءٍ من أموال ميراث «يوسف» من أبيه وأمه كي تساعده في الاعتناء بالمكان ودفع مستحقات المرافق الخاصة بها بحيث تظل الفيلا دائمًا في حُلّتها البهية تلك، فضلًا عن توفير راتب «حسان» الشهري بالإضافة إلى مبلغ جيد من المال يستطيع به الزواج إن أراد.

شعر «حسان» أمام تلك الثقة العمياء بمسؤولية كبيرة جعلته يتعلق بأمر الفيلا أكثر وأكثر ويقرر العناية بها كرجل يرعى امرأته الجميلة ويعاملها معاملة شديدة الرقة والاهتمام ولم يفكر في الرحيل عنها لأي سبب كان، بل أنه لم يسمح

لنفسه بأن يتواجد داخلها لأي سبب غير تنظيفها ورعايتها، حتى ظنّ العاملون الآخرون في الفيلا والفيلات المجاورة أنه لم يتزوج ولم يُرِد أن يدخل في حياته أي شخصٍ كي لا يحدّ من اهتمامه بالفيلا أو من غرامه بحديقتها، ويُروى أنه نَهَر صديقًا له ذات مرة - حارس إحدى البنايات المجاورة - حينما تعجّب لاستمرار نومه في غرفته الصغيرة والامتناع عن النوم في غرفة مريحة من الغرف الموجودة بداخل الفيلا، وكان مبرر صديقه في ذلك أنها فيلا خالية تركها سكانها إما للوفاة وإما للسفر ولن يعودوا إليها، فضلا عن أنه يمتلك وثيقة قانونية تجعله في مقام صاحب الفيلا الفعليّ. حينها ردّد على مسامع ذلك الحارس مقولة الإمام «علي بن أبي طالب» التي دائمًا ما يرددها بينه وبين نفسه (من ضيّع الأمانة، ورضِيَ بالخيانة، فقد تبرّأ من الديانة).

مرّت سنوات عديدة على هذا المنوال حتى كان ذلك التطور المفاجئ وغير المنتظر الذي أربك كل حسابات «حسان» حين انقطعت خطابات «يوسف» دون أي سابق إنذار، واستمر ذلك الانقطاع لفترة طويلة بلغ فيها قلقه منتهاه، ولم يعرف كيف يتصرف إزاء ذلك. ولمّا كان قد أرسل العديد من الخطابات التي لم يتلقَّ ردًا عليها، ظلّت الظنون تضرب رأسه في كل دقيقة كلاعب الملاكمة المترنح؛ فماذا عساه حلّ بيوسف وجعله ينقطع عن مراسلته للمرة الأولى منذ رحيله إلى مدينة

«بون»، لا بد أن مكروهًا قد ألمّ به، ولكن كيف له أن يطمئن؟ ولم يكن ليوسف أقرباء يعرفهم «حسّان»، بل إن كل معلوماته عن عائلة «يوسف» تفيد أن أغلبهم - وربما جميعهم - قد غادروا البلاد في فترة حكم الرئيس «جمال عبد الناصر» نظرًا لأنهم كانوا من طبقة البشوات والبهوات القدامى التي طاردها نظام «ناصر» وأمّم ممتلكاتها. فلم يكن هناك عائلة ليوسف يبلغها بمخاوفه ويطمئن منها.

شهور عديدة مرّت بحسّان وقد استبدّت به مخاوف شرسة، منتظرًا لحظة أن يصله أي خطاب من يوسف يهدئ من روع نفسه، ولكن بلا طائل، حتى عقد العزم أخيرًا على التوجه إلى مقر وزارة الخارجية المصرية والسؤال عن «يوسف»، فلا بد أن لديهم عنه أية معلومات، بل لا بد وأنهم يعرفون كل شيء؛ ألم يكن يوسف موظفهم المرموق الذي يعمل في إحدى أهم سفاراتهم خارج مصر.

وبالفعل ذهب حسّان إلى وزارة الخارجية، وليته ما فعل! وما كان منه إلا أن عاد إلى حجرته في الفيلا ليعيش ليلة من أتعس لياليه هناك.

فبعد محاولات مضنية داخل أروقة الوزارة، وبعد التجول بين الكثير من غرفها ومكاتبها، كل ما توصّل إلى معرفته هو أن يوسف قد استقال من وظيفته في وزارة الخارجية منذ

فترة ليست قصيرة، ولسبب لم يرد الموظف أن يذكره لعم حسان، كما أبلغه أن لديه معلومات تفيد بأن يوسف وزوجته الأمريكية قد لقا حتفهما في الولايات المتحدة على أثر حادث أليم ولم يستطع الحصول على تفاصيله، ولم يبلغه أحد كيف ومتى حدث ذلك، كما أنه لم يصل لأية معلومة تفيده عن مصير «جوليا» ابنة «يوسف» التي قد بلغت العاشرة من عمرها آنذاك.

عاد حسّان حزينًا مكلومًا، يتخبط في جنبات الأسى، فاقدًا ومفتقدًا خليل حياته وصديقه، دون أي كشفٍ واضحٍ عن تفاصيل موته، وبدون صورة واضحة عن مكان الفتاة الصغيرة التي تعلّق قلبه بها مذ رأى صورتها للمرة الأولى واعتبرها ابنة روحه وسلواه في وحدته.

إلا أن حسّان لم يترك اليأس ليتسلل إلى روحه الحزينة، وكرّر زياراته إلى مقر وزارة الخارجية محاولًا الحصول على أية معلومة جديدة، بيد أن كل محاولاته تلك باءت بالفشل حتى مُنع أخيرًا من الدخول مجددًا باعتباره شخص مزعج لا يحمل الحق العائلي لأهلية السؤال.

نحو اثني عشر عامًا عاشها «حسان» بعد علمه بوفاة «يوسف» وهو يتذكر الأمر كل يوم، فيقرأ له الفاتحة، ويترحّم عليه، ويتذكّر ليالي صباهما الرائعة، ويُخلِص لذكرى صديقه

إخلاصه للفيلا وللأموال التي تركها «يوسف» له بموجب التوكيل الرسمي الذي يحمله.

حتى كان ذلك اليوم الرائع...

توقفت سيارة ليموزين كبيرة أمام بوابة الفيلا، وترجّلت منها فتاة رائعة الجمال، ذات شعر أشقر مجعّد وعينين زرقاوين كسماء صيف هذا اليوم. عرفها حسّان منذ الوهلة الأولى وكأنه كان ينتظر وصولها طوال كل تلك السنوات. هرول نحوها بخفة ومرح شاب صغير على الرغم من سنوات عمره التي تخطّت الستين، وهتف في فرحة عارمة:

- «جوليا» هانم؟

جاوبته بلهجة مصرية لم تُفلِت من تأثُّرها الشديد باللكنة الأمريكية:

- عم حسان؟

لم يشعر بنفسه إلا وهو يعانقها عناقًا أبويًّا شديد الحميمية كمن يضم فيها كل الصبر والاشتياق اللذين خبِرهما كل تلك السنوات الماضية. أما «جوليا» فلم تضمه، ولم تبادله الحميمية ذاتها، بل ظلّت ذراعاها إلى جانبيها مُسدلتين بلا حركة.

كان ذلك العناق صورة مختصرة لطبيعة العلاقة بينهما فيما

بعد؛ فقد ظلّ «عم حسّان» يعاملها بشغف الأب إلى ابنته، فيما ظلّت هي تعامله باحترام لا يحمل أي مشاعر خاصة؛ هو الذي يستعيد بها ذكريات سنوات عمره التي ضاعت في ربوع تلك الفيلا، وهى الممتنة فقط لأمانته فى الحفاظ على إرث عائلتها كل تلك الفترة، درجة أنها لم تبادله منذ عودتها إلا بضعة أحاديث مقتضبة لا تتجاوز بضع دقائق، وكانت إجاباتها عن أسئلته الشغوفة لا تتعدى الجمل القصيرة المبتورة، وحين سألها عن أهمّ ما شغل باله وحيّر خاطره طوال تلك السنوات قبل مجيئها بشأن ما حدث لوالديها، والحياة التي عاشتها هي بعد موتهما،

كانت «جوليا» تجيبه بدون أية تفاصيل: «لقد قضيا في حادث سيارة وتولّت خالتي الأمريكية رعايتي بعدهما».

أما بالنسبة للفيلا فسرعان ما تغيرت الأوضاع بداخلها تمامًا منذ عودة «جوليا» المفاجئة، وتبدّل كل شيء حرص «عم حسان» على بقائه كما كان أيام أبوها وأجدادها؛ فاستُبدِل الأثاث العتيق بأثاث على الطراز الأمريكي الحديث، وتبدّلت الألوان المحافظة للجدران بألوان شبابية صارخة، وتحولت الإضاءة من المصابيح الكلاسيكية والسُرُج الحالمة إلى إضاءة متعددة الألوان تشبه أحيانًا عالم النوادي الليلية، فيما تحول الطابق الأرضي من الفيلا، والذي كان يعج بصالونات

الاستقبال البلجيكية الطراز، إلى مرسم كبير مارست فيه «جوليا» موهبتها المتوجة بالدراسة الأكاديمية وقدراتها الاحترافية في الفن التشكيلي، فضلًا عن إغلاقها إحدى غرف ذلك الطابق الأرضي تمامًا ومنعت «حسان» من دخولها أو المساس بها، وأخبرته أنها تحتفظ ببعض اللوحات الهامة بداخلها. وكانت كلما همّت بالعمل على لوحة جديدة من لوحاتها تدير موسيقى «الجاز» الأمريكية لتنتشر في ربوع المكان بدلًا من صوت السيدة «أم كلثوم» والشيخ «عبد الباسط عبد الصمد» اللذين لم تعرف جدران الفيلا إلا صوتيهما لسنوات طويلة ماضية. وعن الحديقة التي لم يدخلها أحد منذ وفاة جدتها «ياسمين هانم»، فراحت رويدًا رويدًا تعج بأصدقاء «جوليا» الذين بدأت تتعرّف عليهم سريعًا بعد دخولها إلى عالم الفن التشكيلي في مصر، بل إلى عالم الفنون عمومًا.

تسلل شعور مقيت بالاغتراب إلى قلب «عم حسان» حتى سيطر على روحه تمامًا؛ شعور كان يختبره للمرة الأولى منذ ما يزيد عن الخمسين عامًا التي عاشها هناك. كانت تلك الفيلا هي عالمه الوحيد الذي لم يعرف غيره، وها هو يشهد تحوّلها إلى عالمٍ آخر لا يعرفه ولم يشاهده من قبل.

لم يهوّن عليه ذلك الشعور الأليم بالغربة سوى ظهور الأستاذ

«صبري» في حياة «جوليا»؛ ذلك الشاعر المرموق والشاب الصعيدي الأصيل الذي تعرّف عليها في إحدى الحفلات التي أقامتها لأصدقائها الجُدد في حديقة الفيلا، والذي سرعان ما استحوذ على مشاعرها وقلبها ونشأت بينهما قصة غرامية عنيفة حتى صارا أمام الجميع في حُكم المخطوبين اللذين يستعدان لزفاف وشيك. شعر «عم حسان» أن دخول «صبري» حياة «جوليا» قد يعيد بعض التوازن في عالم الفيلا مرة أخرى، بل وربما سيبعث في أركانها بعض الأصالة والهدوء من جديد.

- مساء الخير يا «عم حسان»

نظر «عم حسان» إلى «ريم» التي تخطت البوابة الحديدية وعبرت الحديقة مسرعة نحو باب الفيلا دون أن تنظر إليه ودون أن تنتظر منه ردًّا على تحيتها المسائية....!!

***

أصابعُها مخضوبة، وهي خمسةٌ،

تختَّمْنَ بالأوتَارِ في العُسْرِ واليُسْر.(047)

جلست أمام لوحة الرسم تحرِّك يدها في رشاقة في اتجاهها لتخطّ أول خطوط لوحتها الجديدة على الرقعة البيضاء الفارغة وهي تحرّك رأسها يمينًا ويسارًا في استغراق كامل

وكأنها تستدعي الخطوط المختزنة من مكان ما في مخيلتها كي تبعث بإشارات الحركة إلى يدها من جديد لتستنسخ خطًا آخر فوق لوحتها. كان الإرهاق الشديد الذي عانته ليلة أمس قد ترك بصمته حول عينيها في صورة هالات سوداء شاحبة، فلقد حاولت النوم بعد ذلك الكابوس اللعين إلا أن النوم جافاها فمكثت في الفراش ساعاتٍ طويلة تداعب شاشة هاتفها المحمول وتتنقل بين تطبيقات مواقع التواصل الاجتماعي وبين بعض الألعاب الرقمية حتى قررت أن تنهض وتعدّ لنفسها كوبًا ضخمًا من القهوة الأمريكية تستمتع به مع حمَّام دافئ، علّ القهوة والمياه الساخنة يساعدانها في الحصول على الهدوء واستعادة بعض النشاط المفقود. وحين شارف النهار على الرحيل، قررت النزول من الطابق العلوي للفيلا حيث غرفتها إلى الطابق الأرضي حيث مرسمها، وجلست هناك لفترة ليست بقصيرة أمام حامل اللوحات الخشبي بلا حراك حتى بدأت أخيرًا في تحريك ريشتها فوق الورقة البيضاء، حتى أتاها صوت «ريم» فوق رأسها كمطرقة حديدية ليخرجها من حالتها تلك:

- لوحة جديدة إذًا في الطريق؟

نظرت «جوليا» صوب ريم التي عبرت لتوها إلى داخل الفيلا حتى وقفت أمامها وتعلو وجهها ابتسامة مرحة

مصطنعة ونظرة في عينيها لا تحمل أي معنى خاص:

- مساء الخير.

- مساء الخير، كيف حالك اليوم؟

- كما ترين، أنا في حالة الرسم.

- كنت في غاية القلق عليك فجر هذا اليوم. سامحيني لقد تسببت لكِ في كل هذا التوتر، وتحولت احتفالية رأس السنة التي رغبتُ في إسعادكِ بها إلى ليلة كابوسية.

- لا عليك، لستِ المذنبة، فالذنب كل الذنب يقع على عاتق زوجك المتوحش البربري.

- يا عزيزتي هذا شجار معتاد بين الأزواج.

تفاجأت «جوليا» من جملتها الأخيرة تلك والتفتت إليها بحدة قبل أن يخرج صوتها مُحمّلًا بكثير من عصبية:

- ماذا تعنين بشجار معتاد؟ لقد همّ ذلك الحيوان بقتلك!

استعادت ريم ابتسامتها المصطنعة التي زادت من حنق «جوليا» وهي تقول:

- مستحيل، لم يكن ليفعل حقًا؛ كل ما في الأمر أنه كان ثملًا وغير مدركٍ لما يفعل. ولقد جاء ظهيرة اليوم إلى بيت والدي واعتذر عن تصرفاته الحمقاء تلك، وانتهت المسألة.

- انتهت المسألة؟! كيف تنتهي مسألة كانت على وشك التحول إلى جريمة بتلك البساطة؟!

- لا تبالغي، لقد سامحته وسأعود إلى منزلنا.

قالت هذا وأخرجت من حقيبتها علبة أنيقة مبطنة بالمخمل الأحمر وفتحتها لترى «جوليا» ما بداخلها؛ كان سوارًا يلمع بشدة من أثر أحجار الألماس التي ترصعه، وأردفت:

- لقد أهداني هذا السوار باهظ الثمن، واعتذر عن تصرفاته المجنونة، وطلب منّي أن أعتذر لكِ كذلك وكنت قد أخبرته كم كانت حالتكِ سيئة إثر تصرفاته في تلك الليلة.

نظرت «جوليا» إلى السوار بشيء من الاشمئزاز وقالت:

- يبدو لي هذا السوار كدية قتل لا كهدية.

تغيرت ملامح وجه «ريم» تماما كأنها تذكرت أمرًا ما، وقالت:

- دعكِ من هذا الآن. وبالمناسبة، بعد أن فقدتِ الوعي وحين كنت أقلكِ بسيارتي إلى هنا كانت حالتك شديدة الغرابة؛ كنتِ تهذين بكلمات غير مفهومة لا تشبه أي لغة أعرفها، وتتمتمين بأشياء كان وقعها على أذني كوقع الترانيم الكنسية. أصدقك القول يا «جوليا» لقد شعرت ببعض الخوف وأنا أستمع إليكِ،

خاصة تلك الجملة التي تلفظتي بها بلغة عربية واضحة المخارج والكلمات وسط كل ذلك العبث.

ظهر التوتر على قسمات وجه «جوليا» وهي تسألها:

- أية جملة تعنين؟

- جملة لم أفهمها ولكنكِ ردّدتِها بلا توقف ربما لخمسة مرات متتالية: (لقد عادت سيدتي من جديد)..!!

***

(٥ / ١ / ٢٠١٥)

بعد اكتشاف الرسم الكهربائي للمخ توصّل العلماء إلى أن الإشارات القادمة من الدماغ في حالة النوم تنقسم إلى «خمس» إشارات، ومن ثم تم تقسيم مراحل النوم لدى الإنسان إلى «خمس» مراحل مختلفة، هي:

مرحلة التيقّظ أو النعاس، ومرحلة مغزل النوم، والمرحلة الانتقالية بين النوم والنوم العميق، ومرحلة نوم دلتا، ومرحلة النوم العميق، وهي المرحلة «الخامسة» التي نرى فيها الأحلام..!! (046)

حاولت الصراخ، لكن أحبالها الصوتية لم تطاوعها، فاكتفت بالهمس الخفيض المفعم بكل الرعب الذي يعصف بجدران قلبها:

- من أنتِ، من أنتِ؟

- أخبرتكِ أنني سيدتكِ، ألم تتذكريني حتى الآن؟

- صدقيني حاولت ولم أتذكر أي شيء.

ضحكت المرأة بصوت زلزل كيان «جوليا» ونفخ في نيران ذعرها نفخة بركانية أخرى قبل أن تقول:

- لا بأس، سوف تتذكرين قريبًا.

ثم عاودت الإمساك بها من كتفيها بعنفٍ شديدٍ وكأنها على وشك سحق علبة مياه غازية، وأردفت:

- الليلة هي ليلة القربان، ليلة الطاعة والسمع، فليس بعد الذهاب عودة، وليس بعد الظلمة نور، فُتِح الباب مرة أخرى ولن يُغلَق! هيّا.. سيري في اتجاه الريح ولا تقاومي المحتوم، فلا مجال للعودة إلى الخلف، الغربان فوق الرؤوس، والشؤم ينثر بَرَكته السوداء، والنجمة تنتظر اكتمال أطرافها «الخمسة». هيّا، ردّدي معي الآن كلمات الولاء وجدّدي عهدكِ القديم:

«يا سيد كل افتراء...

أنت سند الإنسان المسكين المقهور فوق احتماله...

أنت دواء المغلوبين..

تهب عطايا الرياء والجحود والكبرياء

يا سيدي المزدري بالمتواضعين.. ويا سيد الكراهية المستمرة..

يا مانح كل مكافآت الجرائم العظيمة والرذائل القديرة، أنت وحدك تستطيع أن تدفع ذهن الإنسان المطحون بالظلم...

أنت تهمس له بخطط صالحة للانتقام وبجرائم مؤكدة

النجاح...

أنت تدفعه نحو القتل ونحو التلذذ بنشوة الانتقام، وتُسكِره حتى يرتفع فوق الآلام التي سببها لنفسه والعبرات التي تتدفق من عينيه...

يا سيدي.. يتوسل إليك خُدّامك جاثين وراكعين، يترجّون منك أن تحفظ لهم البهجة بارتكاب جرائمهم التي لا يكتشفها القانون».

قالت المرأة، ورددت «جوليا» وراءها..

انتفضت «جوليا» من فراشها كمذنب يحاكَم بالأعدام صعقًا بالكهرباء في أحد السجون الأمريكية. كانت ترتعد بشدة وهي تنهض من نومها وتقفز بدون وعي من فوق الفراش متجهة نحو خزانة ملابسها، حيث ارتدت في عجالة شديدة فستانًا خفيفًا لا يناسب طقس تلك الليلة الباردة، ولم تنظر إلى وجهها في المرآة ولم تحاول تهذيب خصلات شعرها المتناثرة أو الاهتمام بإصلاح ارتباك ملامحها ببعض مساحيق التجميل، لم تهتم إلا بإخفاء ذلك الغمد الجلدي في حقيبتها ثم هبطت مسرعة من طابق الفيلا العلوي إلى الطابق الأرضي وعبرت الباب باتجاه الحديقة وهي تهرول إلى الخارج لتجتاز الشارع إلى الرصيف المقابل، ثم أوقفت إحدى سيارات الأجرة واختفت في داخلها بين الضباب المنبعث من رئة النهر البارد.

كانت الجلبة التي صاحبت خروجها من باب الفيلا وباب الحديقة قد أقلقت نوم «عم حسان» فخرج من غرفته مسرعًا ليطمئن على ما يحدث بالخارج، وبالكاد لمحها وهي تدخل إلى سيارة الأجرة قبل أن تختفي السيارة عن عينيه، فشعر بالقلق يعتريه من توقيت خروجها حين نظر في ساعة يده التي أشارت إلى الثالثة صباحًا....!

***

يَهْرُبُ أَلْفٌ مِنْ زَجْرَةِ وَاحِدٍ. مِنْ زَجْرَةِ خَمْسَةٍ تَهْرُبُونَ، حَتَّى أَنَّكُمْ تَبْقُونَ كَسَارِيَةٍ على رَأْسِ جَبَل،

وَكَرَايَةٍ على أَكَمة. (45)

أسند ظهره إلى الحائط الممتد أمام مرفأ المراكب الخشبية الراسية وخامره نعاس ثقيل على ضفة نهر النيل، فاقترب بيديه من بعض الأخشاب المتهاكلة المشتعلة كأنه يصافح نيرانها بحثًا عن بعض الدفء الذي فقدته تلك الليلة من جعبتها، ثم ارتشف رشفة طويلة من قدح الشاي وهو يدندن مع صوت السيدة أم كلثوم المنبعث من المذياع العتيق في مركبه، قبل أن يسترعي انتباهه صوت دقّات كعب حذاء نسائي وهو يطرق درجات السلم القادم من شارع الكورنيش والمؤدي إلى مرسى هذه المراكب النيلية. وحين التفت إلى

مصدر الصوت عَلَت قسماته ابتسامة شغوفة زادت من الشقوق المحفورة بين ملامح وجهه حين أبصر فتاة شديدة الجمال تهبط السلم وتتجه صوبه. شعر بإثارة كبيرة وهو الذي تملكه اليأس من أن تأتيه تلك الليلة الباردة بزبائن يرغبون في جولة نيلية توفر له قوت يومه، حتى إن كل زملائه من أصحاب المراكب الأخرى قد خلدوا للنوم مبكرًا لذلك السبب، فجميعهم يعرف أن برودة الليلة لن تسمح بالجولات النيلية المتأخرة. ولكن ها هي الليلة تخالف توقعاته وتأتيه بزبونة شديدة الجمال بدا أنها أجنبية، ولا شك أنها تحمل بعض الدولارات في حقيبتها، فضلًا عن أنها وحيدة بلا رفيق، بما يجعل جولتها النيلية المحتملة معه مربحة على كافة الأصعدة.

تأهّب الرجل للنهوض وهى تدنو منه، وضاعَف من محيط ابتسامته وهي تحييه بتحية الصباح بالعربية، فردّ عليها تحيتها:

- صباح الخير يا هانم.

- هلا تقلّنى فى جولة نيلية؟

- بكل سرور، سعر الساعة..

قاطعته وهي تخرج مبلغًا شديد الإغراء من حقيبتها:

- تفضل.

تهلّلت أساريره وهو يصبّ بعض الماء فوق الحطب ليطفئ الجذوة المشتعلة قبل أن يتوجه إلى قاربه في عجالة، مادًّا يده إليها كي يلتقط يدها ويساعدها على اعتلاء القارب، وشعر بزمهرير يسري في كفه من برودة يدها، وشعر بحرارة تستعر في أعماقه من حلاوة ملمسها.

جلست هي على طرف القارب تراقب ابتعاده عن الضفة، فيما جلس الرجل على الطرف الآخر ممسكًا بمجدافيه ومستكملًا غناءه مع صوت أم كلثوم، وتحرّك القارب باتجاه قلب النهر الساكن في رحلة لا تحمل إلا المجهول.

وظلّ يراقبها في صمتٍ. كانت أجمل من ألاّ يفعل؛ فستانها الخفيف الذي لم يكترث لبرودة الطقس، وشعرها الأشقر المجعد الذي يتجاوب مع الريح المحملة بالبخر فيكشف عن رقبة رخامية طويلة، وعيناها بلون البحر تغريانه بتجربة الإبحار فيها وهو المعتاد على الإبحار في المياه العذبة فحسب.

حاول أن يتواصل معها بأية وسيلة تجتذب انتباهها، فسحب دثارًا صوفيًّا كان بجواره وأعطاه له وهو يفسّر قائلًا:

- الطقس شديد البرودة، يمكنك وضع هذا على كتفك

ليدفئك.

أشاحت رافضة وهي تقول:

- أريد الابتعاد أكثر فحسب.

أومأ بعينيه كمن يتفهم غرضها في الوصول إلى نقطة هادئة وغير مرصودة من النهر، فتابع دفع المجدافين في مياه النهر حتى وصل بها إلى مكان يخفيه ضباب الهواء البارد عن عيون النهر ذاته، واستمر في التحديق بها برغبة محمومة.

أما هي فلم تنظر تجاهه وهي تشير إلى الضفة القريبة وتطلب منه أن يوقف القارب:

- توقّف هنا!

زاد الانفعال في صوت «أم كلثوم» وهي تختتم أغنيتها الطويلة وكأنها تهتف في وجه قوة غيبية حطّمت مشاعرها وتركتها بجرحٍ لا يندمل، فظلّت تردّد بلا كلل (لا تقل شئنا فإن الحظ شاء).

هي أيضًا لم تكن تعرف إن كانت تمارس مشيئتها الحُرّة أم أنها مدفوعة بمشيئة قوة متجبّرة تدفعها إلى هذا المسار دفعًا، فهل هي التي تبحر في هذا القارب الصغير الآن أم أن روحها انحلّت عنها واحتلّت روحٌ أخرى جسدها فأعلنت السيطرة على مقاديره واتجاه دفته؟! شيء ما حدث في تلك

الليلة السوداء لرأس السنة وتسرّب في أوصالها، ومازال يفعل، شيء أعلن عن سطوة نفوذه التام على مشاعرها ومستقبلات الحسّ في أعماقها، فاستحوذ على إشارة البث لقناة أحلامها، وبات يعرض عروضه اليومية المخيفة؛ شيء لا تعرفه ولا تفهم كنهه كي تستطيع مقاومته أو رفضه. فالدماء لا تقاوم السم إن نفذ عبر الوريد، وتستمر في جريانها الحتميّ نحو مصبّات القلب والدماغ. شيء ما كان يهزّها من الداخل كزلزال عنيف ويتمتم في رأسها بصوتِه المُحفِّز:

«هيَّا.. هيَّا الآن، ضرب ناقوس البدء، وحلّت ساعة السؤات. الناي ينوح على الفائت، وطبول تقرع فوق الصمت، الليلة بركة وسبيل، والدم غسيل للأحزان، والموت شفاء للمحموم. يا قرص القمر العابر، اترك سماءك وارتَح، يكفينا ضوء الشر في مآقينا، يكفينا الغضب الساطع من صدر السكين، يكفينا الأسود من كل الألوان. هيَّا.. هيَا الآن!»

كان هذا الصوت يقرع بداخلها في صخب بالغ درجة أنها لم تنتبه للصوت الرخيم القادم من المذياع وهو يشير إلى أنها «الخامسة» صباحًا حسب التوقيت المحلي لمدينة القاهرة، واستمر هذا الصوت يتردد بداخلها ولم يتوقف بداخلها إلا بعد أن أنهت مهمتها، فتوقف فجأة دون أي رَجع.

لم تشعر بنفسها نهائيًّا حين تبسّمت لصاحب القارب في

دلالٍ وطالبته أن يقترب منها. وما إن فعل حتى استلّت السكين المخفيّ في حقيبتها وضربته ضربة قوية ومباشرة اخترقت عظام قفصه الصدري وتوجهت فورًا إلى منتصف قلبه، ولم تكتفِ بتلك الطعنة بل راحت تدير نصل السكين المنغرس في قلب الرجل باتجاه عقارب الساعة حتى تضمن أنه سوف يمزق كل الأوردة والشرايين في طريق دورته.

كان الرجل يحتضر وأنفاسه تتمزّق في تسارع شديد وهو يحاول أن يكمل كلمته الأخيرة:

- لماذا؟

لم يكن لديها إجابة شافية على ذلك السؤال «لماذا؟»، فما الذي دفعها للخروج في جنح تلك الليلة وسكينها يتوق لمذاق الدم هكذا؟ ما هو الدافع الحقيقي الذي أوصلها لتكون القاضي الذي حكم على ذلك الرجل بدون أي جريمة واضحة، وتكون الجلّاد الذي نفّذ الحكم بدم بارد وبدون ارتعاشة ضمير واحدة؟ كيف لفتاة في مثل تلك الرقّة أن تفجّر كل ينابيع الشر من طعنة يدها النحيفة؟ وكيف لشخصية الفنانة التشكيلية الحالمة أن تخفى فى رحمها جنين سفك الدماء وحصد الأرواح؟

بدت وكأنها لم تسمع سؤال الرجل بالأساس؛ فهو لم يكن يعرف ما الذي فعله كي يستحق هذا العقاب الرادع، وهي لم

تكن تعرف لأي سببٍ قد اختارته هو تحديدًا لتقيم عليه ذلك الحد مُبهم الأسباب؛ فالمعادلة كلها تخلو من عنصر الاختيار ولم يسبقها أي ترصّد. كان كل شيء محض الشرّ المطلق، وفي سبيل الجرم المجرد!

نظرت ببرودٍ شديدٍ في عين الرجل المسكين الذي كان يصارع سكرة موته الأخيرة، واستمرت في الضغط على السكين بقوة أكثر كي تغمده بشكل أعمق في حشايا الرجل. وما إن لفظ الرجل آخر أنفاسه حتى أخرجت السكين من بين عظامه المنسحقة ولحمه المهترئ ووضعته في مياه النهر الجاري كي تغسله من آثار الدماء قبل أن تعيده إلى غمده الجلدي داخل حقيبتها، وهي تبتسم لمرأى الدماء المستمرة في التدفق من صدر الرجل، ثم خرج صوتها كأنه منبعث من حنجرة أخرى وهى تقول:

- الرضا يا سيدتي الرضا، قربان يبتغي القرب والصفح، وليل بلا قمر يشتهي سواد القلب الآثم، ومركب سيحمل الجثمان المنتظر لشلال الباطل. العهد تجدّد وعادت البنت التائهة، سامحيها على الغياب في التيه، وباركيها بالماء الممتزج بالدماء، والدماء المغسولة بالماء، اتحدّ الشفاف بالقاني، واتحد الحلم باليقظة. الصفح الصفح!.

ثم قفزت مسرعة من القارب إلى الضفة المختفية وراء

نباتات الغاب. كانت البقعة التي اختارها صاحب القارب شديدة الهدوء حقًا وكأنه كان يضمن لنفسه عدم وجود شهود لمقتله. وراحت تسلك طريقها إلى الخارج حتى وصلت إلى طريق لم تتبين موقعه على وجه التحديد، ولم يكن هناك مارة على الإطلاق؛ فقط كان هناك على الرصيف المقابل سكّير عجوز يترنّح بشدة وهو يدندن بأغنية أم كلثوم «الأطلال».!!

***

(٦ / ١ / ٢٠١٥)

ذكرت كلمة الناس في سورة الناس «خمس» مرات..!!

(044)

عذرًا.. إنه إبحاري الأول

وتجربتي الأولى في ممارسة الأخطار

فلا أنا بالخبير في ركوب الأمواج

ولا أنا العارف بترويض البحار

أنا رجلٌ قادمٌ من رحم الجبل

ومفطوم على طعم الريح الجنوبية

وخبرتي محدودة جدًّا في مواجهة الدوامات

وتقليم أظافر الإعصار

أنا الصامت والزاهد والراهب

والمكتفي برؤية الحياة من فوق دفتر الأشعار

كيف لحورية بحر مثلك أن تغريني بالمجهول

فأسافر في عينيها وأفتح صندوق الأسرار؟

كل شيء قبل وجودك كان رتيبا

الشعر وأطباق العشاء وموسيقى الكمان

إيقاع الأيام كمارش عسكري

وضحكة الليل كنهار الأحزان

كل شيء قبل وصولك كان مألوفًا

وجوه الناس ودخان السجائر

رائحة الحانات، تذاكر القطارات

مذاق النبيذ وشكل الألوان

حبيبتي..

أنا قبلك لم أختبر الغوص في التشبيهات

ولم ياخذني الشعر لهذا العمق

ولم أقترب لهذا الحد من فوّهة البركان

أنا قبلك لم أعرف أبدًا

أن الشاعر وحين يكون عاشقًا

يكون إنسانًا..!!

كان يزداد إثارة كلما شقّت الطائرة طريقها من سماء دبي في اتجاهها إلى مطار القاهرة، وقد بلغ شوقه إلى «جوليا»

مبلغه وما عاد يحتمل الوقت المتبقّي على وصوله كي يراها، ويعانق فيها افتقاده الشديد إليها، فأغمض عينيه وهو يريح رأسه على مخدع المقعد الوثير، تاركًا ذكرياته تتدفق بأريحية حتى تؤنس افتقاده وتهدئ من فيض الأشواق بداخله فيما تبقّى من الوقت حتى وصول الطائرة إلى أرض الوطن.

وكان أوّل ما طلّ من نافذة ذكرياته، وانكشف أمام شمس لهفته هو أبيات الشعر تلك؛ أول ما كتبه لها من أشعاره، وأوّل ما عبّر به قلمه عن انجرافه في تيار بحر عينيها ورغبته الكبيرة في الإبحار فيهما.

علت وجهه ابتسامة صافية وهو يتذكّر أول لقاء لهما حين دَعَته صديقته الناقدة المتخصصة في الفن التشكيلي لحضور حفل شاي بسيط تقيمه فنانة تشكيلية جديدة في فيلتها بحي الزمالك، وكان معروفًا عنه أنه الشاعر المهتم بكل ألوان الفنون الأخرى حيث يراها تغذية صحية لخياله كشاعر. وعرف من صديقته الناقدة أن الفنانة صاحبة الدعوة هي مصرية-أمريكية-، مزدوجة الجنسية، وصلت إلى القاهرة منذ أسابيع قليلة وتريد التواصل مع أعضاء الوسط الفني والثقافي في القاهرة، وذهب إلى الحفل وهو لا يحمل أي توقعات مسبقة بأن تلك الزيارة سوف تغيّر خارطة العشق في بلاد قصائده، وسوف تكون السبب المباشر في الفتح العظيم

الذي سيبدِل إيقاع حياته ويضيف التوق للغته وأشعاره، وتبث روحًا حالمة في جسد أبياته.

في البداية أعجب جدًّا بلوحاتها التي عرضتها على الحضور في الحفل، ثم زاد الإعجاب وتنامى حتى بات انجذابًا حين تبادلا حديثهما القصير الأول؛ كانت لغتها العربية ركيكة جدًّا ولم تخلُ أيٌّ من عباراتها من كلمة أمريكية أو أكثر، لكن حديثها كان مؤثرًا ونافذًا إلى العقل والقلب معًا.

وبعد عدة أيام، في لقائهما الثاني في معرض لوحات أحد الفنانين التشكيليين، كان حوارهما أطول وأكثر تنوعًا، وشعر «صبري»حينها بشدة تميّزها عن كل النساء اللواتي صادفهن طوال حياته على الرغم من تعدد علاقاته ومعارفه وخبرته العريضة بصنوف البشر، لا سيّما النساء. ثم تعددت لقاءاتهما فتعدّدت معها النقاشات والحوارات، واكتشاف الأفكار والرؤى، فبَدَت له «جوليا» شخصية غير تقليدية لا تتبّع الأنماط التي يجيد هو وضع النساء فيها لتقصّي طبائعهن، ولم يحدث أن خاب حدسُه في أمر النساء ولو لمرة واحدة من قبل، فكان في استطاعته دائمًا بعد أي حديثٍ قصيرٍ مع إحداهن أن يفطن إلى شخصياتهن ويتوقع ردود أفعالهن، بل وتمادى في تلك القدرة درجة أنه كان يتحدّى نفسه حين يدخل في نقاشٍ مع إحداهن فكان يحدّد مسبقًا ما سوف

تقوله،

ثم يؤكّد لنفسه صِدق توقّعاته وهو يحاورها، وكان دائم الانتصار في مثل تلك التحديات، وينتهي الحوار بابتسامته الواثقة المغرورة. ولكم كان ذلك مختلفًا مع جوليا، حتى إنها أربكته، وتلاعبت بخبرته وقدراته، وأثارت فضوله، وحرّضته ليكتشف، فشخصيتها آسرة وجاذبة لأبعد الحدود كأنها أسطورة ارتدّت من تاريخ سحيق وبُعثِت من جديد في زمنٍ خلا من السحر والأساطير. فشل «صبري» تمام الفشل في تأطيرها وِفْق أطره المُعدّة سلفًا للنساء، وأخفق في استنتاج أيٍّ من ردود أفعالها تجاه ألاعيب الذكاء التي كان يمارسها عليها، وكلما خُيِّل له أنه بدأ الغوص في أغوارها لسبرها حتى قاع محيطها كلما اصطدم رأسه بشعبها المرجانية وخرج مسرعًا إلى صفحة البحر قبل أن يغرق فى أعماقها. فما كان منه إلا أن تخلّى سريعًا عن ممارسة دور العليم ببواطن كل النساء واعترف لنفسه دون غضاضة أنه أمام امرأة خارج تصنيفاته الجاهزة التعليب، وقرّر أن يترك شراع مركبه يسبح في بحرها بانسيابية تليق بعفوية نسائمها، فازدادات أواصر الصلة بينهما وثاقة في هدوء كبراعم أزهار جميلة تنمو فوق أغصانها بنعومة حتى تتفتّح جميعها دفعة واحدة في نهار ربيعي مشرق.

وطلبت منه جوليا أن يرعى بذرة اللغة العربية التي غرسها أبوها في نفسها، والتي حاولت فيما بعد أن تعمل على ترسيخها ونموّها، ولكنها لم تنجح كثيرًا بمفردها، وأجابها «صبري» إلى ما طلبت؛ فكان يزورها بشكل شِبه يومي في مرسمهما في الفيلا ليعطيها دروسًا في اللغة العربية واللهجة المصرية حتى كبرت تلك البذرة سريعًا وازدهرت بشكل مفاجئ زاد من إعجابه بذكائها وقدرات عقلها، وبلغ من السعادة مبلغها حين بات في استطاعته أن يقرأ لها قصائد شعره الفصيح وبات في استطاعتها أن تتذوق أشعاره وتُفتَتَن بها.

منحتهما تلك الدروس فرصة كبيرة للتقارب وقضاء الكثير من الأوقات معًا حتى أفضى كلٌّ منهما للآخر بغرامه وبدأت علاقتهما البرّاقة التي لم تكن تشبه أيًّا من العلاقات المحيطة بهما في بهائها وتميّزها، حتى إن تلك الحالة الفريدة لعلاقتهما دَعَت «فاروق المهدي»، الصحفيّ والروائيّ الشهير وصديق «صبري» الأقرب، إلى أن يطلق عليها وصف «علاقة النموذج».

كانت وجهة نظر «فاروق» في إطلاق تلك التسمية على العلاقة بين «صبري» و«جوليا» هي أن أفضل قصص الحب وأنجحها هي تلك التي تحقّق ولو قدرًا بسيطًا من القبول والتكامل بين طرفيها؛ فالحب وحده كشعور مُجرّد لا يؤدّي

بالضرورة إلى علاقة ناجحة ومستمرة، فالنبات لا يكفيه الماء كي ينمو ويزدهر، وإنما هو في حاجة ماسّة إلى الهواء والضوء كذلك. وإذا كانت المشاعر العاطفية هي ماء العلاقة، فالقبول هو هواؤها، والتكامل ضوؤها. وبقدر توافر تلك العناصر في أية علاقة يتحقق لها النجاح المنشود، فيرسل النبات جذوره في عمق الأرض، ويشتدّ عودُه ليواجه كل تقلبات المناخ ويجابه أيًّا من غضبات الطبيعة. وهكذا رأى «فاروق» أن علاقة صديقه العزيز «صبري» بمحبوبته «جوليا» هي نموذج نادر لا يجود الزمن بمثله كثيرا؛ فالحب يجري ويتدفق في عروقهما بلا توقف، بل ويستبِينه في نظراتهما أيُّ غريبٍ عنهما بلا عناء. أما عمّا بينهما من قبول وتكامل فحدِّث «فاروق» عن ذلك ولا حرج، وكان دائم الإشارة إلى تلك المزيّة كلما أتى على ذِكر العاشقين، فكان يقول بحماس حقيقي:

(صبري هو التجسيد الحيّ للصفات الرائعة التي نعنيها في اصطلاح «الرجل الشرقي»؛ بوسامته التي شكّلتها أنامل الشمس ونسيم الجبال ورائحة الحقول وتدفق نهر النيل في صعيد مصر، وبصفاته النقيّة الفطرية التي لم تلوّثها قفازات المدينة البلاستيكية، وهو الشهم الذي تصل شهامته حدّ التضحية وإيثار الذات، وهو الغيور بدون عصبية ولا همجية ولا تملُّك، وهو الطيب القلب بلا سذاجة تشجِّع على استغلاله، وهو الشاعر الذي يستطيع بأبياته تخدير مشاعرك مغناطيسيًّا.

أما «جوليا»، فهي تجسيد فريد للصفات المُثلى المتضمنة في اصطلاح «المرأة الغربية»؛ فهي تلك الفتاة المليحة الشقراء التي تموج في عينيها السماويتين أمواج «نهر بوتوماك» حيث ولدت في مدينة واشنطن، وبصفاتها العقلية المدنية المتزنة جمعت بين العملية دون أن تُفقدها روحها، والواقعية التي لم تفسد عليها خيالها، وهي الواثقة دون تكلّف أو غرور، وهي الفنانة التي تتقن ترجمة مشاعرك الصامتة إلى خطوط تنضح مصداقية.

ولعلّ الرؤية السطحية المحدودة الأفق لشخصية «جوليا» و «صبري» والعلاقة بينهما تعكس أنهما طرفا نقيض، والشرق والغرب لا يلتقيان أبدًا. إلا أن ما حدث بينهما كان على العكس من ذلك تمامًا، فذلك التباين هو ما مهّد القبول الكبير الذي شعر به كلٌّ منهما تجاه الصفات التى لا تشبهه فى الآخر، فتضافرت تلك الصفات وتشابكت بشكلٍ شديد التناغم حتى بات كل منهما يتكامل بالآخر ولا يكتمل إلا به.

اعتلت الابتسامة من جديد وجه «صبري» حين تذكّر تلك المرّة التي اصطحب فيها «جوليا» لزيارة بلدته في محافظة قنا في جنوب مصر. كان قد فاتَح والده الحاج «أحمد أبو حجاج»، عمدة قريتهم، في أمر علاقته العاطفية بـ «جوليا» وأخبره أنهما قد اتفقا على عدم التعجل في إجراءات الزواج

في تلك المرحلة بناءً على رغبة «جوليا» التي طلبت منه الانتظار لمدة عام تقريبًا حتى تنتهي من إعداد لوحات معرضها الفني الأول الذي قررت عقده في شهر يوليو من عام ٢٠١٥. ومع ذلك، على الرغم من عدم وجود ما يبرر التعجّل في البوح بقصته مع «جوليا» إلا أن الابن البارّ أراد من اللحظات الأولى أن يحصل على بركات أبيه الذي يعتبره قدوته وصديقه الأقرب والأهم. واجَه الأب هذا الأمر ببعض التحفّظ في البداية لكون الفتاة من وجهة نظره مجرد أجنبية تَرَبّت في المجتمع الأمريكي وتشبّعت بطباعه ونمطه حتى وإن كانت أصولها مصرية من فرع الأب. لكن، ولكونه رجل متعلم يتمتع بالبصيرة والحكمة، لم يدع ذلك التحفظ يمنعه من مطالبة «صبري» بأن يأتيه بجوليا كي يتعرف عليها، ولم يمنعه تمسّكه بالعادات والتقاليد القبلية من إمهال عقله الفرصة كي يحكم على الفتاة بعد لقائه بها لا أن يحكم عليها من خلال موقف مُسبَق، جامد ومتحجّر. وكانت هذه الزيارة التي استمرت لبضعة أيام كفيلة بأن يبارك «الحاج أحمد» هذه القصة ويعلن إعجابه الشديد بشخصية «جوليا» وأصلها الحسيب النسيب، بل وحاول إقناعها بأن زواجها من ابنه لن يعرقل عملها على معرضها الفني، وأن خير البرّ عاجله، بيد أنه عاد واحترم رغبتها بتأجيل أي إجراء رسمي لخطوبة أو زواج حتى تحقّق بهذا المعرض كيانها الفني المستقّل. وزاد من

إعجابه بها مبررها الرئيسي في ذلك؛ حيث كانت تفضل أن تخطو خطوتها الفنية الأولى في مصر معتمدة على موهبتها فقط دون أي شُبهة في استغلال شهرة خطيبها أو زوجها الشاعر المرموق المشهور. فبرغم أنها لا تخفي غرامها به وعشقه لها، لكن هذا الأمر لم يتجاوز مجال معارفهما المشتركة، ولا شك أن الارتباط الرسمي سوف يوسّع من تلك الدائرة حتى تشمل الصحافة والإعلام، فيظنّ البعض أنها تستغل جماهيرية «صبري» لصنع جماهيريتها وضمان نجاح معرضها.

قرابة ستة أشهر مضت على تلك الزيارة، وها قد بدأ عام ٢٠١٥ وانقضت نصف المدة التي حدّدتها «جوليا» لمعرضها ومن ثم المُدّة المقررة لزواجهما، وصار عليه الانتظار ستة أشهر أخرى كي يتحقق حلمه بالحياة الدائمة مع حبيبته.

أطلّ «صبري» من نافذة الطائرة المجاورة لمقعده، وسَرَت في عروقه قشعريرة مفعمة بالشوق حين بدا لعينيه نهر النيل من الأفاق العالية.

***

(١٥ / ١ / ٢٠١٥)

أسفار موسى في التوراة هي الأسفار الخمسة الأولى، وفي العبرية يساعد العدد خمسة على انطباع الشيء في الذاكرة، على عدد أصابع اليد، وقد يكون ذلك أساس بعض الفرائض الطّقسيّة.(043)

حسب نظرية النسبية الخاصة، يعتبر الزمن بُعدًا فيزيائيًّا رابعًا للمكان، لكنه أيضًا مجرّد وسيلة نستخدمها في ترتيب الأحداث ووضعها في سياق مُرتّب.

ربما يكون مصطلح الزمن هو المصطلح الأصعب من حيث وضعه في تعريف واضح يمكن استيعابه والشعور به في حيّز التطبيق الفعلي؛ فنحن نشعر بالزمن أو نقوم بقياسه أو بتخمينه. ويمكننا حصر الزمن مبدئيًّا بالإحساس الجمعي لدى الناس كافة بتَوَالي الأحداث بشكل لا يمكننا الرجوع فيه. ويتجلّى هذا التوالي أكثر ما يتجلّى في توالي الساعات، وتعاقب الليل والنهار، وتعاقب الأيام والشهور والسنين، حتى يمكننا تصوّر الزمن وكأنه نهرٌ جارٍ باتجاه حتميّ ومُحدّد ولا عودة فيه، أو كقطار يمضي في طريق واحد مستقيم بقضبان أحادية الاتجاه لا تملك الرجوع إلى الاتجاه العكسي. وبرغم تلك الصورة التي يتحتم على كل الأشخاص تقبّلها والتعامل

معها بشكل جمعي لا خيار لهم فيه، إلا أنه يبقى هناك أمر يدعو للحيرة الشديدة، وهو اختلاف رؤية كل منّا لعنصر الزمن، فيصبح لدينا الزمن النفسي أو الزمن الفيزيائي أو الزمن التخيّلي؛ فتاريخ أي يوم هو ذاته عند الجميع، لكن هناك من يمرّ به اليوم كلحظة عابرة غير محسوسة وبدون أي أثر يذكر، وهناك من يشعر أن هذا اليوم ذاته قد استطال وتمدّد حتى بدت ساعاته وكأنها دهر كامل.

وأحيانًا يحدونا شعور بأن اللحظة الزمنية التي نعيشها الآن قد تكررت من قبل بكل تفاصيلها ومشاعرها على الرغم أننا نعيشها فعليًّا للمرة الأولى، فيما تمرّ على مشاعرنا وعقولنا لحظة مكررة قد مررنا بها من قبل عشرات المرات مرور الكرام ونشعر أنها المرة الأولى التي نصادفها وتصادفنا.

ينطبق هذا الاختلاف المتشابك بشكل ما على مصطلح (زمنية الصورة) الذي يستخدمه بعض الفنانين التشكيليين؛ ويُقصد بها المراحل الزمنية المتعاقبة لبناء وتطوير لوحة فنية ما يكون وجدان الفنان هو المحدد الوحيد لعنصر الزمن فيها، فاللوحة التي تصوّر وترصد مشهدًا ما تفترض زمنًا لحظيًا عامًا نستطيع توقعه أو تخيله حين نشاهد النتيجة النهائية للصورة، إلاّ أن هذا الزمن يحمل في طيّاته أزمنة أخرى لا يشعر بها ولا يلمسها المتلقي، وهي أزمنة متعددة

بتعدد العناصر الموجودة داخل الصورة ذاتها؛ فهناك الزمن الذي مرّ على ذهن الفنان قبل إنشائه لتلك الصورة، وهو الزمن المختزَل في خياله والذي لم يتخطَّ عتبة ذهنه، ثم يأتي زمن تنفيذه للصورة وابتكاره لها فوق لوحة الرسم، وهو الزمن الذي قد تتغير فيه خيالات وخيوط كثيرة كانت موجودة في المرحلة السابقة حين كان المشهد سجين الذهن والروح.

وكما يقول الفنان المغربي «محمد كريش»:

(الزمنية التى نحن بصددها هى زمنية افتراضية بحتة، زمنية الإنشاء وزمنية النشوء، فزمنية اللوحة المستوحاة من مخزون الذاكرة تتميّز عن غيرها لكون مرحلة إنشائها تشهد زمانين متزامنين، زمن الفنان وزمن تبلور اللوحة أي الصورة. كما أن هناك زمنًا ثالثًا في طور التشكل هو زمنية اللوحة الذاتي او الزمنية المهيمنة او زمنية اللحظة المشهدية للصورة المتجسدة، والتي بدورها قد تحوي على أزمنة أخرى تتعدد وتختلف بتعدد وباختلاف معالمها التصويرية المتعلقة بها).

تحركت الكثير من تلك الأزمنة داخل «جوليا» وتشابكت بدون أي ترتيب واضح، فضربت أرقام الساعات والأيام رأسها كموجات محيط ثائر يضرب جزيرة صغيرة في منتصفها بلا هوادة، فتبعثرت أشلاء الزمن فوق الصخور البركانية للضفة وتماهت تفاصيله المرتبة. كانت قد قامت للتوّ بوضع توقيعها

على تلك اللوحة التي انتهت من رسمها تمامًا منذ دقائق معدودات، ثم تراجعت خلفًا لمسافة متر واحد واستغرقت في إمعان النظر إلى مشهدها المرسوم فوق اللوحة التي تؤكد عناصرها أن زمن تلك اللوحة هو ليلة ما، وأن المكان كان قاربًا خشبيًّا يسبح في نهر النيل، وأن الحدث كان جريمة قتل وللقاتلة ملامح تشبه ملامحها تمامًا!

لم تعرف لماذا كانت مدفوعة بذلك الشكل المحموم لرسم تلك اللوحة طيلة الأيام العشرة الماضية. كانت قد استيقظت صباح يوم وصول «صبري» من مدينة دبي وهي في غاية التعب والإعياء وقد اكتنف رأسها دوار غريب. وعلى الرغم من ذلك قفزت «جوليا» من فراشها واتجهت مباشرة إلى مرسمها في الطابق السفلي، وفتحت تلك الغرفة المغلقة دائمًا التي لم تسمح لأي شخص بدخولها، ونقلت لوح الرسم الخشبي إلى داخلها وشَرَعت ترسمُ بدون توقف حتى إنها لم تشعر حين فوّتت ميعاد ذهابها إلى المطار كي تستقبل «صبري» كما كانت تتمنى؛ لم تستطع النفاذ إلى الزمن الذي سبَّب رغبتها في رسم هذا المشهد، فهل عاشت حلمًا ما في فجر ذلك اليوم فافاقت من نومها لتصوّره بريشتها؟ أم هل كان هذا المشهد بقايا من قصة قد سمعتها في زمن ما ومكثت في زاوية من ذاكراتها حتى استيقظت وألحّت عليها كي تخرج في هيئة خطوط وألوان.

أما الأمر الذي كان محسومًا تمامًا بالنسبة لها، وبدون ذرة واحدة من شكٍّ، هو أنها لم تعِش زمن تلك اللوحة، ولم تكن جزءًا من حركات عقارب ساعاته وأن وجودها كطرفٍ رئيسيّ في اللوحة لا يعدو كونه استدعاء ذهنيًّا منها كي تشارك فقط في زمنية الصورة..!!

***

- منذ عودتي من دولة الإمارات وهي في حال غير الحال، ولا أعرف ما الذي حلّ بها؛ أصبح مِزاجُها سيئًا بشكل دائمٍ، وباتت شديدة العصبية والانفعال، تنتابها حالات غضب بشكل مفاجئ وبدون أية أسباب منطقية، ولقد حاولتُ أن أتجاوز ذلك التغيير غير المتوقع في سلوكها، بل وأقنعتُ نفسي أنها تتعرض لضغوط بسبب حالة الإبداع التي تعيشها في تلك المرحلة مع مضي الأيام سراعًا واقتراب موعد معرض لوحاتها ولم تكتمل بعض تلك اللوحات بعد. لعلّ هذا هو السبب وراء التوتر الذي يصيبنا جميعًا حين تدخل أرواحُنا مراسم الإبداع وتتجلّى في محراب طقوسه. ولكن، برغم استيعابي لتلك الحالة كوني شاعرًا ومبدعًا يمّر بالكثير من تلك المواقف، إلا أنني أشعر بداخلي أن ثمة خطبًا آخر سوى تجليّات تلك الحالة الفنية، صدّقني.. أنا أتعامل الآن مع شخص مختلف تمامًا عن ذاك الذي أَلِفتُه واختبرتُ كل حالاته

من قبل؛ شخص يتبدّل محتواه بطريقة مفاجئة برغم احتفاظه بنفس القالب أو الجسد، فهذه ليست «جوليا» التي أعرفها، خاصة مع تلك المواقف غير المفهومة والجديدة كُليًا عليها.

- مثل ماذا؟

- حسنًا، فلنبدأ باليوم مثلًا؛ لقد رفَضَت أن نلتقي الليلة، تمامًا كما فعلت في اليوم ذاته من الأسبوع الماضي. وحين ألححتُ عليها كي أعرف السرّ وراء ذلك الرفض ردّت وهي تصرخ بعصبية بسبب غاية في الغرابة.

- وما هو ذلك السبب؟

- أن اليوم هو يوم «الخميس» وأنها من الآن فصاعدًا لن تلتقي بأي شخصٍ كان – حتى حبيبها - في يوم الخميس لأنها باتت تعتبره يومًا شؤومًا!

- هذا غريب بالفعل، وماذا غير ذلك؟

- هل تذكر يوم وصولي من دبي؟ دعك من كونها لم تأتِ إلى المطار لاستقبالي مثلما أخبرتُك، ولا بأس من أنها لم تتصل بي ولم تردّ على اتصالاتي المكثّفة حين وصلت إلى مطار القاهرة ولم أجدها، وأنني قد ذهبتُ من المطار إلى فيلتها محترقًا بشوقي إليها، ومتناسيًا إهمالها لي وعدم تقديرها لغيابي،

ولكن الأمر العجيب حقًا هو ردّ فعلها حين وقعت عيناها عليّ بعد أن مكثت أدقّ باب الفيلا لأكثر من ربع ساعة حتى فتحته.

أطلت دهشة ممتزجة ببعض الحنق على وجه «فاروق» الذي قال:

- أنت لم تخبرني بذلك حين قصصتَ عليّ تفاصيل ذلك اليوم من قبل! لا عليك.. أخبِرني كيف كان ردّ فعلها حين رأتك.

- على غير المتوقع على الإطلاق، نظرت في وجهي بفتور يشبه لقاء غريب بغريب على رصيف مزدحم لمحطة مترو الأنفاق دون أن تنبس بنت شفة، ثم استدارت أمامي ودلفت مرسم الفيلا حتى أدركَت السلم المؤدي إلى الطابق العلوي، وبعد أن صعدت بضع درجات استدارت نحوي ونظرت إليّ بعينين زائغتين وقالت «صبري، حمدًا لله على سلامتك، سامحني.. فقد عكفتُ على الرسم ساعات طويلة اليوم وأشعر ببعض الإرهاق، أحتاج بشدة إلى النوم. أرجوك أن تُعدّ لنفسك مشروبًا، فالبيت بيتك كما تعلم».

كان «فاروق» يستمع إلى «صبري»باهتمامٍ شديدٍ اكتست به كل ملامحه، ومع وصول «صبري»إلى تلك النقطة لم يتمالك نفسه وهو يقاطع «صبري»منفعلًا بقوله:

- ما كل تلك العجرفة والعنجهية وانعدام الذوق؟

أجابه «صبري»بنفس مستوي الانفعال:

- فاروق، أنت تعرفني جيدًا، غير مسموح على الإطلاق لك أو لغيرك أن ينعت «جوليا» بأي نعت سلبي، فنحن لا نجلب الإهانة لنسائنا ولا نقبلها عليهن! أعلمت الآن لماذا لم أقص عليك تلك التفاصيل من قبل؟!

- أعتذر يا «صبري» يا صديقي لكنني شعرت ببعض العصبية إزاء ذلك التصرف.

ثم لكزه في ركبته ببعض المرح محاولًا تلطيف الأجواء معه مجددًا وهو يردف:

- ولكن، كيف لا يتوقف ذاك الدم الصعيدي الملتهب عن السريان في عروقك حتى وأنت تشتكي منها؟! حسنًا.. أكمل ما تقول وأعدك أن أكون ملتزمًا في ردود أفعالي.

- هذا جيّد.

قال «صبري»وهو يشعل سيجارته المصرية الصنع ثم تابع:

- حاولتُ التحلّي بالهدوء والتغاضي عما حدث في ذلك اليوم لعلّها تعتذر عن تصرفها ذاك، لكنها لم تفعل حين التقينا في اليوم التالي، وكأن شيئًا لم يحدث!

- وهل كان ذلك اللقاء الثاني لطيفًا كسابق عهدكما قبل سفرك إلى دبي؟

- كلا.. كان لقاءً باردًا أيضًا، بل حدث به أمرٌ آخر غير معتاد منها.

وقبل أن يسأله «فاروق» عن ذلك الأمر تابع «صبري»حديثه:

- كنا في أحد المطاعم المُطّلة على نهر النيل، وبمجرد أن لمحت قاربًا خشبيًا صغيرًا يطفو أمامنا توقّفت بشكل مفاجئ عن حديثها معي وأخذت تهذي بكلمات لم أفهمها وبلغة لم أعرفها، بدا لي أنها أشبه بوقع لغات الشرق القديم، كالآرامية مثلًا، وحين سألتها عمّا تقوله لم تجبني وطلبت منّي أن ننصرف من المكان إلى أي مطعم آخر لا يُطّل على نهر النيل.

صمت «فاروق» برهة وكأنه يعطي لعقله بعض المساحة لإدراك الأمر، ثم أشعل سيجارة بدوره قبل أن يقول:

- هذا غير مفهوم على الإطلاقّ!

- نعم، هو كذلك، ضِف على ذلك ما حدث بالأمس.

- وماذا حدث بالأمس؟

- لم نلتقِ بعد يوم المطعم، وكانت كلما اتصلتُ بها كي أسألها

اللقاء تعتذر متعللة بالانشغال برسم لوحتها الجديدة، وكان صوتها يأتيني عصبيًا ومشدودًا في كل مكالمتنا اليومية التي صارت مقتضبة جدًّا حتى الأمس حين طلبت أن تراني في الفيلا لأنها لا تشعر برغبة في الخروج في تلك الفترة. وحين ذهبت لزيارتها رأيتها في الحديقة تصيح في وجه «عم حسّان» بشكل هيستيري وتطالبه بعدم الصلاة في الحديقة مرة أخرى. والحقّ أن ما قالته للرجل استفزّني كثيرًا، وحين حاولت تهدئتها وإفهامها أن كل أرض الله المطهرة تصلح للصلاة، كان ردها مفاجئًا، حيث قالت «أرض الله لا تثمر هذا الشر الكامن»، ولم تُجبني حين سألتها عمّا كانت تعني بذلك.

- صبري، اسمعني جيدًا، كل ماتقوله ينذر بحلول الشر، والشر حين يحلّ ويتسرّب من مداخله الخلفية الخفيّة فإنه يفرض سيطرته على العقول ويُحجّر القلوب. للشر عيون ترى ما لا نراه نحن، وتتوغّل في زوايا لا ندركها، وتصنع أبعادًا جديدة لكل أركان الصورة ..

وهنا قاطعه «صبري»محتدًا:

- فاروق، ليس هذا بالمجال الذى تستعرض فيه مهاراتك فى نسج أحداث روائية! خبّرني بمأربك مباشرة، هل تريد القول أن عين الشرّ أصابت «جوليا» وأنها محسودة مثلًا؟

- اسمع يا صديقي، الحياة دائرة غير منتهية من صراع

النقائض؛ فالنار تخشى الماء، والماء يخشى البرودة، والبرودة تخشى الحرارة، فإذا نظرنا في كل تلك الشواهد، أرى أننا قد نصل إلى تفسيرٍ يبدو لي أكثر منطقية من أمر الحسد.

انتبهت حواس «صبري»بشدة وهو يساله:

- ماذا تعني بتفسير غير الحسد؟

- أعني أنها قد تكون مسحورة، أو ربما أصابها مسّ شيطاني..!!

***

(١ / ٢ / ٢٠١٥)

كانت الخمسة علامة شؤم عند جميع الشعوب الشرقية ومن ضمنها اليهود، ومنها نشأ القول التالي «خمسة بعيون الشيطان»..!!(042)

- حبيبتي، أصابك تغيير بات يقلقني عليكِ وعلى ما بيننا. صارت أحوالُكِ تعصف بالأفكار في رأسي وتجعل صورة مستقبل علاقتنا مشوّشة وباهتة الألوان. صارحيني القول وأعدُكِ بأن أستوعب وأتفهّم مشاعرك تمامًا أيًّا كانت؛ هل هناك ما بات يمنعكِ من التجاوب مع علاقتنا؟ هل هناك شأن يزعجك ويكدر صفو مزاجك؟

مالت عليه في حنان وهي تحتضن كفّ يده الأسمر بين يديها وأجابته:

- أرجوك لا تقل هذا، فأنا لم أتغيّر أبدًا يا حبيبي، بل أشعرُ بأنني أحبك كل يوم أكثر، واحتياجي لوجودك يزداد بلا توقف، ولا ولن يوجد فوق هذي الأرض ما يمنع مشاعري من التدفق في مجراك والانسياب في مجالك.

- فسّر لي إذًا تلك التغيّرات التي طرأت عليكِ؟

ضحكت ضحكة لطيفة وهي تضغط على كفيه أكثر وتقول:

- أنسيت أيها الشاعر بأنني جَوزائية؟

- لم أنسِ ذلك قط، وعلى الرغم أنك لا تحتفلين بعيد ميلادك في تاريخه الحقيقي، بل وفضّلتِ إخراجه من دورة برج الجوزاء، إلا أنك أكثر فتاة جَوزائية الصفات على وجه الأرض.

ارتبَكَت «جوليا» قليلًا؛ كانت قد أخبرته فيما سبق أنها من مواليد ٢٥ مايو، وأنها من مواليد برج الجوزاء، إلا أنها لا تحتفل بعيد ميلادها في هذا التاريخ احترامًا لذكرى وفاة والديها اللذين توفيا في مثل ذاك اليوم، وقرّرت هي مذ حينها أن تحتفل بعيد ميلادها في الخامس من مايو عِوضًا عن تاريخ ميلادها الحقيقي. وكانت نظريتها في اختيار هذا اليوم البديل نظرية رقمية بحتة؛ فشهر مايو يمثل الرقم خمسة ويوم ميلادها (٢٥) ما هو إلا حاصل ضرب الرقم خمسة في نفسه، لذا فلقد قامت بقسمته على خمسة ليعود خمسة مرة أخرى ويلتقي اليوم بالشهر ٥/٥.

انزعج «صبري» من ارتباكها وشعر أنه ما كان يليق به أن يشير إلى ذلك الأمر حتى لا يذكّرها بوفاة والديها فأردف مسرعًا:

- منذ البداية وأنا أعلم تمام العِلم أن اللحاق بمولود برج

الجوزاء يقطع الأنفاس ويُسبّب الدوار؛ فهو الذي يبدّل ثيابه وأماكن وجوده بالسرعة نفسها التي يستبدل بها أفكاره وآراءه وأحيانًا مشاعره، وهو الذي يمسك الحياة بين يديه وكأنه يمسك رواية جديدة، يقرأ صفحاتها بسرعة كبيرة، بل وربما يبدأ تلك القراءة من الصفحات الأخيرة ثم يعود ليقلب نفس الصفحات بعصبية مفرطة، وقد يستبدّ به الملل فجأة فيلقي الكتاب فوق أقرب الرفوف دون أن يعود إليه مجددًا أبدًا، و...

قاطعته بنعومة تحمل نظرة شديدة الغواية:

- وما هي أكثر الأشياء التي تحبها في الفتاة الجوزائية أمامك؟

- أحب كل شيء يخصّك يا «جوليا»؛ أحب تناقضاتك وسَيرك في الاتجاه والعودة من عكسه، أحب أحيانًا تلك الازداوجية التي تحاوط تصرفاتك وتفرض نفسها على رؤيتك فتصنع حولك هالة غامضة تجذبني لاكتشاف المجهول،

وفتح صندوق الكنز القديم، أحب السباحة في نهرك الزئبقي دون أن أعرف أين ساجد الضفة وأين ستجدني، أحب مشاهدة كوكب عطارد في فضاء عينيكِ؛ ذلك الكوكب الطارد المطرد المتتابع في سيره السريع والتفافه المتلاحق، أحب تأمله وهو يقترب من حضن شمسك ويسرع في الدوران

حول دفئها، أحب الحيرة التي تصيبني حين أستغرق النظر في ملامحك الفاتنة فيستحيل عليّ أحيانًا تحديد ماذا يدور بداخلك إن كان فرحًا أو ضجرًا، مثالية أم طيشًا، حزنًا أم زهدًا، سكونًا أم عاصفة، فتأخذني كل تلك الثنائيات إلى أبيات شعر تتزين ببلاغة التضاد الذي لا يبرز المعنى ولا يوضحه. أحب مراقبتك وأنت تصنعين شيئين في آنٍ واحدٍ وقدرتك على إجادتهما بنفس المقدار والكفاءة، حين ترسمين لوحة وأنتِ تتكلمين في موضوع هام على الهاتف، حين تتناولين طعامك الشهي وأنت تقرئين كتابك الجديد، حين تشاهدين نشرة أخبار الظهيرة وأنت تضعين مساحيق تجميلك دون النظر إلى المرآة، أحب طلاقة لسانك وأنت تتكلمين، وبراعتك في اختيار الكلمات، أحب كيف تبثين في جمود اللغة الإنجليزية روح الشاعرية، وكيف تضيفين لعامّيتك المصرية صخب الكرنفالات وأجواء الاحتفال، أحب ذكاءكِ الذي لا يُخّل بأنوثتك ولا يمنع رقتك من الارتقاء إلى السماء كالبالونات الملونة، وأحب أنوثتك الرقيقة التي لا تصل للسقوط في هاوية السذاجة. وأحب كذلك تلك الهالة السوداء حول عينيكِ حين تخبريننى عن ساعات الأرق التى مررتِ بها وأنت تفكرين فيّ، وأحب حتى جفنيكِ حين تخبرني استدارتهما عن ساعات النوم الطويلة التي نعِمتِ بها لأنك سعيدة وهانئة معي. أحب أناقتك وأقمشة فساتينك وولعك

بالأكسسوارات والتفاصيل وكيف تصنعين من ألوانهم لافتة كبيرة فوق بوابة الدخول إلى عالم روحك، فينبؤني كل لون ترتدينه وكل قطعة حُليّ تختارينها بمؤشر مزاجك واتجاه بوصلتك. أحب عطورك ومساحيق تجميلك حين تنقلك في لحظات بين سنوات العمر ومراحل الحياة فتظهرين يومًا كفتاة جامعية مراهقة وتظهرين في يومٍ آخر كأنثي تمتلك ترسانة من أسلحة الإغواء والإغراء.

ربما أحبك بسبب كل تلك الأشياء، وربما أحب كل تلك الأشياء فيكِ لأنني أحبك. وربما أصف مشاعري تجاهك بتلك الكيفية لأنني شاعر، وربما أصبحتُ أكثر شاعرية وشعرًا بما يليق بمقدار عشقي لك.

أصابتها كلماته بخِدرٍ شديدٍ في عروقها، وكانت مشاعرها ترتفع وترتقي مع كل جُملة منه وكأنها تتحدّى قوانين الجاذبية بقوة غرامه. كانت هي أيضًا تحبّه كل ذلك الحب وأكثر لكنها لا تمتلك موهبته في الوصف وتنسيق زهور الكلمات وتزيين كعكة ذاك الغرام بحبّات الفستق والكرز. تعرف أنها لن تستطيع مجاراته في الركض بين ميادين البلاغة وأزقّة التشبيهات، لكنها لم تكن محرومة الإبداع، فهي أيضًا تتمتع بموهبتها الخاصة وقدراتها على ترجمة مشاعرها، فنهضت فورًا من جوار «صبري» بما أثار دهشته لتنفيذ الفكرة

التي واتتها كي تهبه تعابير غرامها بطريقتها الخاصة وهي تقول:

- هل تعرف كيف ينبغي لي الردّ على كلماتك الحلوة تلك؟

ابتسم وهو يغمز بعينيه ببعض المكر:

- ربما بقُبلة؟

ابتسمت هي الأخري:

- بل تستحق مليون قُبلة يا حبيبي، لكنني عنيتُ شيئًا آخر؛ لا أعرف كيف لم تخطر تلك الفكرة على بالي من قبل!

- وماهي؟

مالت عليه وهي تحرك أناملها فوق ملامحه برقة وغنج جعلته يرتبك:

- هذا الرجل المليح القسمات، الوسيم الملامح، صاحب الوجه المصري الأسمر الجميل يمثل جذبًا فنيًا لأي رسام؛ الجبهة العريضة واجهة الذكاء والنبل، والشعر الأسود المتموج كليلة صحراوية، والعينان الواسعتان البرّاقتان اللتان ألقتا عليّ سحرهما منذ لقائي الأول بهما. سأقوم برسمك حالًا أيها الوسيم.

قالت هذا وتركت قُبلة ناعمة فوق وجنته قبل أن تبتعد من

أمامه برشاقة وهي تردف:

- لا تتحرك من مكانك، سأذهب لإحضار بعض ريشات الرسم والألوان وسأعود فورًا.

تحركت «جوليا» مسرعة، وأخرجت علاقة المفاتيح الفضية من حقيبتها في اتجاهها للغرفة المغلقة الموجودة في ركن من أركان المرسم، ثم فتحت بابها المغلق بإحكام ودلفت داخلها مغلقة الباب من خلفها بنفس الإحكام من الداخل.

وعلى الرغم من سعادته الكبيرة التي كان يشعر بها بتدليلها إياه بتلك الكلمات، ولرغبتها المفاجئة في رسمه، إلا أن «صبري» لم يستطع أن يسيطر على فضوله وتعجّبه لأمر تلك الغرفة التي تحرص كل هذا الحرص على إبقائها منيعة عليه، بل منيعة وسرية عن الجميع، وكان السؤال يزحف في رأسه بدون توقف:

- تُرى.. ماذا تُخفي «جوليا» غير الألوان وريشات الرسم داخل هذه الغرفة"؟!

***

كانت الساعة قد أوشكت على منتصف الليل حين ودّع «صبري»جوليا بقبلة فوق يديها بعد أن اتفقا على استكمال اللوحة التي شرعت في رسمها لملامحه إلى يوم آخر. كان

التعب قد حلّ بهما وأرهقتهما ساعات الرسم الطويلة، لكنه على الرغم من كل ذلك الإرهاق الذي يسري في أوصاله بعد الجلوس ثابتًا هذا الوقت الطويل أمام ريشتها وألوانها، كان منتشيًا ويشعر بسعادة غامرة؛ فالثبات أمام عينيها كالإبحار في بحيرة كاريبية، والجلوس في صمت بين يديها هو تعبّد أمام محراب ذهبي، ومشاهدتها وهي متوحدة مع حالة الإبداع هو كشف صوفيّ وتجلّي.

خرج «صبري» إلى حديقة الفيلا بعد أن ودّعته «جوليا» وأغلقت الباب من خلفه، ووقف في منتصفها لبعض الوقت يملأ رئتيه بالهواء الرطب المفعمة به سماء تلك الليلة، ويستنشق عطور الزهور المنتشرة حوله. لم يكن يشعر برغبة في العودة إلى بيته وأخذ يفكر أين عساه يذهب الآن.

أخذ يقلب هاتفه المحمول بين يديه وهو يفكر في الاتصال بـ «فاروق» ربما يجده مازال بالخارج فيطلب منه اللقاء في المقهى المعتاد، لكنه تراجع عن ذلك حين طرأت على رأسه فكرة أخرى، فهو لم يجلس مع «عم حسّان» ولم يتبادلا الحديث منذ فترة ليست بالقصيرة. كان «صبري» يعرف أن «عم حسان» يحبه ويراه الزوج المناسب لـ «جوليا»، ويرى في جنوبيته وأصوله الصعيدية حميمية وأصالة سوف تحمي «جوليا» وتهبها الأمان، وكان هو أيضًا يحب «عم حسان»

ويحترم تجربته الإنسانية إلى أبعد مدى وحدّ؛ فهو ذلك الرجل الذي صان الأمانات ووفّى العهود لسنوات طوال هي أحلى سنوات عمره. وكان «صبري» يحكي لأصدقائه من الكُتّاب والشعراء حكاية «عم حسّان» باعتباره أيقونة للوفاء الإنساني والإخلاص المجرّد؛ الرجل الذي قَدّس علاقة الصداقة وزاوجت روحه مكان ذكرياتها ولم يخنه ولو لمرة واحدة. ربما لم يكن مقتنعًا في داخله بأن هذا الإخلاص للفيلا من جانب «عم حسّان» كان سببًا مقنعًا لعزوف الرجل عن الزواج، أو أن هناك أي تعارض بين الفكرتين من الأساس، إلا أنه لم يكن يملك إلا احترام اختيارات الرجل ورؤيتها كنوعٍ من التضحية حتى وإن كانت تضحية غير مبررة أو غير مفهومة من جانبه.

حسم «صبري» أمره بلا تردّد وقّرر أن يذهب إلى غرفة «عم حسّان» فيوقظه من نومه ويطلب منه إعداد كوبين من الشاي النوبي الرائع ليتجاذب معه أطراف الحديث الجنوبي الممتع.

وبالفعل تحرّك تجاه غرفة «عم حسّان» التي تقع بشكل مستقل في الركن الخلفي للفيلا، وبمجرد أن اقترب منها رأى النور ينبعث من النافذة المفتوحة للغرفة، مما أخبره أن «عم حسّان» مستيقظ فلا حاجة لحرج إيقاظ الرجل من نومه

وإزعاجه، وقرّر أن يداعب «عم حسّان» قليلًا، وبدلًا من أن يطرق الباب سيظهر له فجأة من النافذة حتى يخيفه. لكن حين اقترب من النافذة هَمَت إليه بعض الهمسات والهمهمات الغريبة التي أثارت تعجّبه وفضوله وجعلته يتوقف فجأة ليرهف السمع لها قبل أن يبدو بوجهه للرجل، فاقترب بحرص من النافذة ونظر من خلال شقوق شباكها الخشبي ليستطلع ما يدور بالداخل.

كان «عم حسّان» يرتدي سروالًا أبيض اللون تحت جلباب قصير من اللون ذاته؛ ذاك الجلباب الشهير بين النوبيين كزي تقليدي، ويجلس فوق سجادة الصلاة المفروشة على أرضية الغرفة وأمامه مصحف أخضر كبير موضوع فوق حامل خشبي من الطراز العثماني، وبجواره مبخرة نحاسية عتيقة الطراز يتصاعد منها الدخان الناتج عن احتراق بخور «الحرمل» الذي أدركه «صبري» فورًا من رائحته النفاذة التي يعرفها جيدًا مذ نعومة أظفاره حين كانت جدته تبخر به منزلهم في الصعيد ظنًا منها أنه يطرد الجن والشياطين ويُحصّن المنزل من الشر والحسد. كان الرجل يتمايل بشدة إلى الخلف وإلى الأمام وهو يضرب دخان المبخرة بيديه وكأنه يمسك بكرات من النار ويلقيها على كائنات غير مرئية من حوله، ويتصاعد صوته بعد كل ضربة من ضربات دخان المبخرة وهو يردد:

- يا معشر الجن.. أناشدكم بالعهد الذي أخذه عليكم سليمان بن داود ألاّ تظهروا لنا وألاّ تؤذوننا.

أُحرّجُ عليكم بالله وباليوم الآخر ألاّ تُبدوا لنا وألاّ تؤذونا.

بسم الله أمسينا، بالله الذي ليس منه شيء ممتنَع, وبعزة الله التي لا تُرام ولا تُضام, وبسلطان الله المنيع نحتجِب, وبأسمائه الحُسنى كلها عائذ من الأبالسة, ومن شرّ شياطين الإنس والجن, ومن شرّ كل مُعلن أو مُسر, ومن شرّ ما يخرج بالليل ويكمن بالنهار, ويكمن بالليل ويخرج بالنهار، ومن شرّ ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شرّ إبليس وجنوده, ومن شرّ كل دابة أنت آخذ بناصيتها، إن ربي على صراط مستقيم.

أعوذ بما استعاذ به إبراهيم وموسى وعيسى ونبيِّ محمد خاتم المرسلين، ومن شر ما خلق وذرأ وبرأ, ومن شر إبليس وجنوده ومن شر ما يبغي.

أخذ «عم حسّان» نفسًا عميقًا ثم عاد ليردّد بصوت أكثر عنفًا وصخبًا:

- أيتها اللعينة الخبيثة المذمومة، أيتها القادمة من الجحيم، والمتقلبة في أحضان الأفاعي، المدهونة بِسُمّ العقارب السوداء، أيتها السابحة في الدم، والمتنفسة بالحقد والآكلة للبغضاء، أيتها الشمطاء المفترشة لأرض الشوك والسائرة بين

جيف الخنازير والطائرة في سماء عواصف الغل والانتقام؛لم تعد روحي ملكك كما كانت، ولم يعد قلبي أسير اللهب الصاعد من عينيكِ، ولم يعد مائي منهمرًا على فرجك البركاني، خلّصني الله من اللعنة، وحصّنني بالجسد الطاهر، وأيّدني بجنود رحمته، لم يعد حسّان زوجكِ ولا رفيقكِ ولا صاحبكِ، شفاني الشافي ببلمسه ودواني الطبيب بمغفرته وغسلني المقتدر من ينابيعه، لم يعد لكِ سلطان على قلبي، ولا قوة على مشيئتي، ولا سبيل إلى روحي، أغلقت المنافذ وسدت الطرق.

كنتِ خطيئتي التي تبرأت منها، وكنتِ سقطتي التي تعالَيت عليها، كان عشقك تاج الشوك لخيبات شبابي التي تنزّهت عنها، وكان غرامك بئر الظلمات الذي نُجّيت منه، منعتني من الزواج ومن اكتشاف الحياة حتى عافاني ربي وطهّرني بالزهد والقبول والعزلة، فما الذي أعادك لبيتي بعد كل تلك السنين الطويلة؟ وماذا تريدين منّي وأنا الكهل الناسك الآن؟ أنا القويّ بمساندة ربي، والعفيف بسلطانه، عودي لجحيمك وإلاّ أحرقتكِ بكلمات الله التامّات،

اغرُبي من أرضي وحلّي عن نباتاتي وشجراتي الطيبات، وارجعي لقحطك وبورك وتربتك الجدباء.

ثم اعتدل «عم حسّان» في جلسته وهو يقلّب صفحات

المصحف أمامه حتى وصل إلى سورة يوسف وراح يتلو بصوت مرتفع:

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ. وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ.

تراجع «صبري» إلى الخلف مبهوتًا مما رأى، والتفت حوله ليتأكد أن ليس هناك من يتابعه برغم عِلمه أنه لا يوجد أحد، وتحرّك برشاقة نحو باب الحديقة وفتحه بهدوء شديد حتى لا يثير أي جلبة تجذب الانتباه، وبمجرد أن تجاوزه هرول مسرعًا تجاه سيارته وأدار محركها في عصبية وتوتر، وهو لا يعرف تحديدًا إن كان ما يشعر به هو بفِعل الخوف أو المفاجأة أو الارتباك ممّا رأى. تحرّك بالسيارة وهو يضغط على مِكباح سرعتها بعنفٍ ثم مدّ يده ليدير المذياع علّ بعض الموسيقى تعيد إليه الهدوء فيستطيع التفكير وتدبّر ما رأى وسمع. وبمجرد أن أدار زر الطاقة في المذياع صدر صوت الشيخ صديق المنشاوي وهو يجوّد:

«وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ»(041)

(٥ / ٢ / ٢٠١٥)

قَتَلنا خَمسَةً وَرَموا نُعَيما.. وَكانَ القَتلُ لِلفِتيانِ زَينا (040)

«يا سيّد إنّا خدامك المطيعون! أنت لك إدراك وبصيرة مُتقّدة فاقبل دموعنا الغزيرة، وصلواتنا المبللة بالدم، الليلة ندعوك لتساند غدرنا، وتؤيد الشر في عروقنا، وتضحك من فوق كرسيك، كهرمان النور يشع من النار، فاجعل هذا الضياء يخفت قليلًا من أجلنا حتى يتسنّى لنا التستّر تحت قِباب السماء السوداء، والتخفّي بين أجنحة الخفافيش. انثر فوقنا رائحة الكُزْه حتى لا يشمنا الطيبون، وحتى نتسلل بينهم كضفادع الحقل. هَب لنا صوت الزلزال حتى تتصدّع لنا آذان نباتات الحدائق، وحتى ترتّج الأرض تحت أقدام الشجر الوارف، فلا يرشدون عنّا إن تستّرنا خلفهم عن عيون الراصدين.

يا سيد هذا الشر الأزليّ، أرجوك لا تنسَ عشيقتك الأولى، وعاهرتك الأولى، لا تنسَ من تزَكّت آدم من أجلِك، وتركت الجنة حتى تركع تحت قدميك وتتبارك بذلك واحتقارك ومهانتك. اليوم أتيتكَ بابنتي الجميلة مرة أخرى، فساعدها كي تتجاوز الخوف، وضِع فوق قلبها غشاوة تتجاوز بها المهابة، واجعل في ضربة يدها قوة قرون كبشك الجسور، واجعل في ضربة يدها دقة سهمك الناري لتكون الطعنة

الواحدة نافذة إلى روح القربان».

تردّدت هذه الكلمات على لسان تلك المرأة حين لم تكن «جوليا» بالمستغرقة في النوم بشكل كامل ولا بالمتنبهة تمامًا، كانت هذه المرة عند نقطة ما بين الغيبوبة والأفاقة، كمريض على فراش غرفة العمليات يتحرك جفناه بثقل في أولى لحظات سريان المخدّر داخل عروقه، فلم يكن من السهل عليها أن تحدّد ما إذا كان ما سمعته ورأته لتوّها حُلمًا أم هلوسة.

نهضت من فراشها كالمأمورة مسلوبة الإرادة، وتحرّكت فيما يشبه استجابات المخلوقات الآلية لمبرمجها المتحكّم بها عن بُعد، وارتدت ملابسها ووضعت ذاك السكين الحاد الذي يشبه المديات التي يتزود بها جنود المارينز في حقيبتها وتحركت إلى خارج الفيلا.

لم يستيقظ «عم حسّان» من نومه في تلك المرّة برغم الضجة التي أثارتها في توقيت خروجها من باب حديقة الفيلا وقد أصبح نومه شديد العُمق في الفترة الأخيرة، ولم تعد أصوات الجلبة قادرة على إيقاظه مثلما كان معتادًا؛ أصبح كالذي يتعاطى مخدرًا يسيطر على كل حواسه بمجرد أن يضع رأسه فوق الوسادة.

تخطّت «جوليا» الشارع إلى الجهة الأخرى وسارت لفترة

طويلة ابتعدت فيها عن محيط الفيلا ثم توقّفت وأشارت إلى إحدى سيارات الأجرة التي توقف قائدها على التوّ ما أن لمحها.

اقتربت من النافذة المجاورة للسائق وسألته في هدوء:

- العين السخنة؟

نظر السائق بتلقائية إلى الساعة الإلكترونية الموجودة أمامه بين عدّادات السيارة فوجدها قد تجاوزت الثالثة من منتصف الليل ببضع دقائق، فعاود النظر إليها مبتسمًا وهو يجيبها:

- أمرك يا آنسة، لكن الأجرة سوف تكون...

قاطعته بحزم:

- سأدفع لك ما تريد وأكثر.

ظهرت عليه علامات السعادة وهو يمد جسده ناحية المقعد الخلفي حتى يتسنّى له فتح الباب ليُدخِلُها، وما إن استقرت فوق المقعد خلفه مباشرة حتى اعتدل السائق على عجلة القيادة في حماس وهو يقول:

- نهارك أبيض إن شاء الله!

***

تثاءب «صبري» بشدة وهو يَهُمّ بالنهوض من فوق مقعده في المقهى المعتاد الكائن فوق سطح أحد فنادق وسط المدينة، والذي دائمًا ما يرتاده حتى ساعات الصباح الأولى مع رفقته. وكان الجميع قد انصرفوا تباعًا ولم يتبقَ غيره هو و«فاروق».

أمسك «فاروق» بيده وهو يدفعه للجلوس مرة أخرى:

- إلى أين ستذهب يا رجل، مازال الوقت مبكرًا؟

نظر «صبري» في ساعة يده وهو يبتسم:

- إنها الثالثة صباحًا أيها الفاقد للشعور بالزمن ولقد حلّ بي النُعاس.

- وماذا إن كانت الثالثة صباحًا؟ نحن لا ننصرف إلا مع أول ضوء في السماء، فما الجديد في هذه الليلة إذًا، أم أن تلك هي تعليمات جديدة صادرة من الإدارة الأمريكية؟

لم يعجبه تلميح «فاروق» وظهرت النعرة الصعيدية بشكلٍ فوريّ على وجهه وحدة صوته:

- «فاروق»، أنت تعرفني جيدًا، أنا لا أتلقى تعليمات من أحد، ثم إن «جوليا» أخبرتني أنها سوف تخلد إلى النوم منذ الساعة الواحدة.

- اهدأ يا أسد الصعيد فأنا أمزح معك فحسب. اجلس يا «صبري» لساعة أخرى ثم ننصرف معًا بعدها. أريد فقط أن أطمئن منك على أحوال «جوليا»، فنحن لم نلتقِ منذ أن أخبرتني بأمر «عم حسّان» على الهاتف، ولم يتسنَ لنا الحديث بشكل خاص في ظل زحام الرفقة هذه الليلة.

عاد «صبري» للاستقرار فوق المقعد مستجيبًا لطلب «فاروق» وقد لمس هذا الأخير رغبة داخل نفسه في التحدث بشكل أكثر استفاضة عن أمر «جوليا». فمن ناحية كان «فاروق» مشغولًا في الأيام القليلة الماضية، ومن ناجية أخرى لم تُزده مكالماته مع «جوليا» إلا حيرة، خاصة بعد مشاهدته طقوس «عم حسّان» تلك.

اكتسّت ملامح «فاروق» بالجديّة وهو يسأل:

- هل لاحظت أي شيء مختلف على «عم حسّان» بعد تلك الليلة؟

- كلا، على الإطلاق، فالرجل يبدو كما هو دائمًا بذات الملامح السمحة والوجه الطيب البشوش.

- وماذا عن «جوليا»؟

- كما أخبرتك من قبل؛ «جوليا» كما هي بكل تلك التغيرات الشديدة التي باتت تحلّ بطقس مزاجها، فيوم تمطر أمطار

القلق والعصبية، ويوم تشتد حرارة مشاعرها فتأخذني إلى خط الاستواء. بدأت أعتاد على ذلك وأرجِّح أن الأمر كله عائد لوقوعها تحت الضغط الشديد الناجم عن قلق الاستعداد لمعرضها الفني الأول. كما لا يمكن أن أغفل أنها قد انتقلت للحياة في بلدٍ مختلفٍ تمامًا عن البلد الذي نشأت فيه، وأن دائرتها من المعارف والأصدقاء، وحتى حبيبها، جميعهم يحملون سمات وصفات مختلفة عن الدائرة التي ألِفَتها في الولايات المتحدة. أضف إلى ذلك أنها تستعّد بهذا المعرض لخطوة كبيرة في مسيرتها الفنية وقد تكون بداية مشرقة أو نهاية لحلم وليد في بلاد الشرق. لقد لمست بنفسي في تلك الأيام الأخيرة وهي ترسم اللوحة الخاصة بي مدى استغراقها في حالة الرسم وتقمّصها لحالة خطوطها، إنها متوحّدة لأبعد حدود التوحّد مع ما تقوم به، ولم يطرأ على مُخيّلتي قط أن المخاض الذي يسبق حالة الرسم يسبّب كل تلك المعاناة التي رأيتها بنفسي. كنت أتصوّره مشابهًا لولادة القصيدة أو الرواية، لكنه جَدّ مختلف. حين أتخيل نفسي تحت كل تلك الضغوط ورهنًا بإمرة ذلك التوحد، أستوعب جدًّا ما تمر به «جوليا» وما تعانيه الآن.

- «صبري».. أنت تعيد ذِكر هذه المبررات على مسامعي ربما للمرة العاشرة. يبدو أنك لا تحاول إقناعي أنا بها بل تحاول بتكراراها إقناع شيء ما في داخلك قد اكتنفه الشك وماعاد

يصدقها بالأساس.

توتر وجه «صبري» قليلًا وهو يجيب:

- ربما، لكنها لم تزل أسبابًا منطقية في رأيي.

- عظيم، وأنا أتفق معك تمامًا فيما تقوله، لكنني مازلت مُصرًا على احتمال تعرّضها للسحر أو المسّ الشيطاني ولقد أثبتت رؤيتك لأمر «عم حسّان» صِدق نظريتي.

- لكن ما رأيته كان يخص «عم حسّان» ولا يخص «جوليا».

- بلى.. لكنك رأيت بعين رأسك كيف يعاني «عم حسّان» من سِحر يبدو أنه صاحَبَه لسنين طوال، ولابد أن هذا السحر يسري في أركان الفيلا وروحها، وربما أصاب «جوليا» ومسّها هي الأخرى، فكل ما يحدث لـ «جوليا» ليس طبيعيًا بالمرة ولا يمكن إرجاعه كُليّة للضغوط أو لحالة الإبداع فحسب. ثم هل تجعلنا حالة الإبداع نهذي بلغة تبدو كالآرامية يا رجل؟

- أنت تعرفني جيدًا، أنا لا أصدّق مثل تلك الأمور وأرفض التسليم بأنها قادرة على السيطرة على تصرفاتنا، ودفعنا لاتجاهات وتوجّهات ليست من اختيارنا بمحض إرادتنا الحرّة.

- وأنت أيضًا تعرفني جيدًا، وتعرف أن بعض الروايات التي كتبتها عن هذا العالم كانت مستوحاة من أحداث حقيقية وأبطالها كانوا من لحم ودم.

ارتكن «صبري» بظهره ليلتجئ بجوف المقعد وكأنه استسلم سريعًا لأطروحة «فاروق» أو وكأنه لم يكن يعترض عليها بحماس حقيقي منذ البداية، أو ربما كأنه كان على يقين أن مسيرة «فاروق» الإبداعية، والتي كان أغلب نتاجها روايات تدور أحداثها في عالمنا السُفلي، تؤهله حقًا لإصدار حُكم أكثر دراية بشأن ما يحدث في فيلا «جوليا».

- ليكن .. بماذا تنصحني أن أفعل إذًا؟

مطّ «فاروق» شفتيه ثم قال:

- لا بد من إبعاد المريض حتى لا ينتقل الفيروس لمن حوله، لا بد من عزله في مكان لا يسبّب فيه الخطر للأصحّاء، لا بد من الطرد يا «صبري»!

- ماذا تعني؟!

- أعني أنه لا بد من إبعاد «عم حسّان» عن الفيلا..!!

***

« السحر السفلي...

كان ليه موصوفلي...

ربطوني في دُخلتي..

وملوني بحسرتي..

وفي آخر الليل بنهار..

وبقول آه يا لهوتي..

عَمل مدفون في تراب...

مربوط علي رجل غراب...

والناس واقفين شاهدين..

ع الجن و ع الشياطين..»

تمايلت رأس سائق سيارة الأجرة يمينًا ويسارًا مع كلمات هذه الأغنية الشعبية الصارخة الإيقاع، وبدا منتشيًا من ضربات طبولها وارتفاع نغماتها كممسوس تحاوطه دائرة من عازفي الدفوف في حلقة زار، تاركًا بوابة روحه مفتوحة على مصراعيها للمُغنّي صاحب الصوت الأجش ليقوم بدور «الكودي» أو شيخ الزار كي يطرد الأرواح الخبيثة التي تسكن بداخله.

- إنه «مهرجان السحر السفلي»، هل تزعجك هذه النوعية من الغناء؟

حاول النظر إليها مرارًا عبر مرآة القيادة المُعلّقة أمامه واستشفاف ردود أفعالها تجاه تلك الموسيقى المزعجة والتي

ما انفك يسمعها منذ بدأت رحلتهما معًا إلى العين السخنة. لكن ولأنها تجلس خلفه بشكل مباشر لم ينجح في تقصّي تعبيرات وجهها جيدًا، فقرّر أن يسألها، وأجابته هي نافية بشكل مقتضب.

لم تهتم «جوليا» بما يستمع إليه الرجل، بل لم تكن تسمع أي شيء أوضح من صوت المرأة الذي يتردد في داخلها ويهمس في أذنيها:

«يا ابنتي، لسنا بِسَحَرة ولا نحن أهل أذى، بل هم الذين يسحرون ويترجّون ويتمنّون أن نعينهم على سِحرهم، لسنا مُلّاكًا للدنيا حتى نقرر مصائرهم ونأمرهم بالبُعد عنها، بل هم الذين يفعلون ذلك بأنفسهم ويتعذّرون بنا. حديد السلاسل من صُنعهم ومن كَدِّ أياديهم، ومعاول الحفر من صناعتهم ونتاج عرقهم، هم من لفّوا رقابهم بجياد الحديد وتزيّنوا بها، وهم من نبشوا تراب الأرض وعمّقوا جراحهم حتى النخاع، وهم من دفنوا أسرار خطاياهم عن ذويهم ثم عادوا يتذمرون.

يا ابنتي، نحن خلاصهم من الحيرة، ونجدتهم من دخان مصائرهم الأزرق، وشفائهم من جذام أفكارهم المرتابة، نحن نجدتُهم من عبث أحلامهم ومن رمادية أمانيهم، نتودّد بدمائهم لحبيبنا وسيّدِنا، ونتقرّب بأرواحهم خطوة أخرى في

درب الوصول إلى عرش النار، ونتبارك بسكرات موتهم من أجل ابتسامات عيونه الحمراء.

يا ابنتي، لا تسأليني لماذا هو، حيث لا توجد لماذا في مسيرتنا، وحيث كل الأسئلة عائدة من الفراغ إلى الفراغ. نحن أهل الصدفة نقتات عليها ونتقوّى بها، ونحن أهل الفوضى نشرب ماءها ونرتوي بعبثية التدابير. كان ضميرك سيزرع نبتة النَدَم في داخلك إن كان هذا بدافع الانتقام أو السرقة أو المتعة، لكنه لم يفعل لأنه يعرف أن ما تفعليه هو تقدمة مباركة للقرب وللمحبة، وللمحبة سبل كثيرة منها جزّ الرقاب، هذه قطفتك الثانية من بستان التلاشي، فهيا جهزّي مِعولك للحصاد.

لا تتعاطفي معه حتى لا تصابي بسرطان الشفقة، إن في الشفقة ضعف وعار على طالبي الخلود، نحن لم نختَره بل هو الذي اختارنا، ولم نسعَ إليه بل هو الذي سعى. هو كسابقه يأتون إلى طريقنا حتى تكتمل بهم دائرة البقاء.

هيَّا يا حبيبتي كي تعطيه ما يريد، وتمنحيه ما أتى به إلى طريقك، هيَّا كي نخلّصه من هذا التيه ونرحمه من السعي والسفر وراء الآمال المزيفة، هيَّا كي نحصل جميعًا على الراحة المنشودة، فكل شيء مُعدّ للاحتفالية، وفي انتظارك الآن».

ألقت «جوليا» نظرة إلى يمين الطريق حيث الصحراء المترامية الأطراف مختفية في جنح الظلام الدامس لتلك الليلة، أما الطريق فكان شِبه خاوٍ من السيارات حيث لم يكن هذا التوقيت من العام أو حتى من اليوم يمثل أي جذبٍ للسفر إلى منطقة العين السخنة.

مدّت يدها اليسرى من خلف السائق ووضعتها فوق كتفه وحركت أصابعها بحنو فيما بين كتفه وعنقه، وقالت بصوت شديد الدلال:

- هل يمكننا التوقف هنا إلى يمين الطريق لخمس دقائق؟

اندهش الرجل لتصرّفها ذاك، وارتبك بشدة وهو يحاول أن ينظر إلى وجهها في المرآة دون جدوى، فنظر في المرآة الجانبية ليتأكد من عدم وجود سيارات أخرى قادمة من خلفه وكان الطريق خاويًا إلا من سيارته، فقال:

- أمركِ، ولكن الوقوف هنا خطر و...

زاد الغنج في صوتها وهي تحرّك أناملها بحميمية أكبر على عنقه:

- سوف نتوقف لخمس دقائق لا أكثر؛ فقط أريد مشاهدة الصحراء وهي نائمة في حضن هذه الليلة.

لم يجد ما تقوله مقنعًا بالطبع حيث يمكنها مشاهدة تلك

الصحراء بالفعل وهم سائرون، لكن حركات أناملها وهي تلامس بدايات أذنه ووجنته اليسرى قد أشعلت جذوته وأصبح على يقين من أنها تريده هو، ولم يكن ليمانع في ذلك، بل صار هذا ما يتمنّاه مع الشهوة التي أججتها فيه بسِحر أناملها وغنجها.

انحرف السائق بالسيارة إلى أقصى يمين الطريق حتى لامست العجلات أول أطراف الثوب الرملي الذي يفترش جسد تلك الصحراء حتى بدايات الطريق الأسفلتي، وتوقّف إلى جوار لافتة زرقاء صدئة تُعلن أنه لم يتبقَ إلا ٥٥ كيلو مترًا على منتجع العين السخنة.

أغمض الرجل عينيه مشتعلًا بنيران المتعة المتفجرة من يدها اليسرى التي لم تكن قد توقفت عن مداعبته بل استمرت أصابعها تتحرك قليلًا للأسفل حتى لامست أول شعيرات صدره.

خرج صوت الرجل محمومًا بتأثير تلك اللمسات الحارة وهو يقترح أن ينضمّ إليها في المقعد الخلفي، في اللحظة التي حرّكت هي أصابع يدها اليسري من فوق صدره لتضعها فوق فمه مطالبة إياه بالصمت بينما تستلّ بيمناها السكين القوي من غِمده من حقيبتها وهي تقول:

- أبقِ عينيك مسبلتين واستمتع بهذا لبضع الوقت.

ابتسم الرجل وهو يرسم بين جفنيه المطبقين ملامح المُتعة التي بات يستشرفها:

- أمركِ!

وكانت هي قد حرّرت السكين من غِمده وقبضت عليه بقوة شديدة ورفعته في الهواء لتعطي الضربة زخمًا قويًا، ثم هَوَت بكل ما أوتيت من عزم تجاه الشريان السباتي الأيمن في عنق الرجل فانغرس فيه السكين ممزقًا كل شيء في طريقه حتى توقف عندما اعترضته عظام الحنجرة، فأخرجت السكين من عمق الجرح وهي تديره بشكل عكسي حتى تزيد من ضرره ضررًا.

تحشرجت أنفاس الرجل بشدة وشرع يترنّح وهو يحاول يائسًا أن يسد اندفاع شلال الدم المتفجّر من شريان عرقه وأوردته وعضلاته الممزقة.

كانت «جوليا» في قمة عدم اكتراثها وقد احتفظت بقسمات هادئة وباردة الأعصاب وهي تمسح آثار دماء الرجل من سكينها ببعض المناديل الورقية قبل أن تعيده إلى مكانه في حقيبة يدها، ثم تركت الرجل في جُبّ ألمه يلفظ أنفاسه الأخيرة وقامت بفتح باب السيارة إلى يسارها لتدفع بجسدها النحيل خارج السيارة، ثم عبرت الطريق مسرعة إلى الجهة

المقابلة وواصلت العدو مبتعدة لبضعة أمتار حتى ظهرت سيارة خاصّة قادمة من اتجاه العين السخنة في طريقها إلى القاهرة، فمدّت يدها وحرّكتها بحماس مشيرة للسيارة كي تتوقف.

نظر الشاب الذي يقود تلك السيارة الخاصة وقد أدهشه وجود تلك الفتاة التي ظهرت بشكل مفاجئ إلى جانب الطريق، وقد بدت له وكأنها جِنيّة لفظتها الصحراء إلى تلك البقعة الهادئة من الطريق، لكنه استطاع سريعًا أن يميّز جمالها الفاتن حينما رفع مستوى الإضاءة المنبعثة من كشافات السيارة الأمامية. وعلى الرغم من خشيته أن تكون تلك خدعة أخرى من الخدع الذكية التي تقوم بها عصابات سرقة السيارات، إلا أنه لم يستطع منع نفسه من التوقف لها حينما لمح تكوينها الساحر.

فتح الشاب الزجاج الكهربائي للمقعد المجاور له وهو يتفرّس في ملامحها التي أخفاها الظلام مرة أخرى، وسألها:

- ماذا تفعلين هنا بالله عليك؟

أجابته من بين أنفاسها اللاهثة أثر العدو:

- لقد تشاجرت مع صديقي مشاجرة كبيرة بينما كنّا في طريقنا إلى العين السخنة، ولقد أنزلني هذا النذل مطرودة من

سيارته هنا. أشعر بالخوف الشديد من وجودي وحيدة في هذا المكان، هلا تُقلّني معك إذا كنت في طريقك إلى القاهرة رجاءً؟

ظهرت معالم الغضب الشديد على وجه الشاب وهو يردد:

- هل يُعقل هذا؟! هل تركك هذا النذل هنا؟! ما الذي حلَّ بعالم الرجال؟!

ثم مدّ يده ليفتح لها باب السيارة المجاور له والذي كان مُغلقًا بخاصية الأمان الداخلي وهو يردف:

- اصعدي إلى السيارة، سوف أُقلّك إلى أي مكان تشائين.

ثم حانت منه التفاتة دهشة إلى الساعة الإلكترونية المجاورة لعدادات السيارة، والتي كانت تشير إلى الخامسة وخمس دقائق من صباح اليوم...!!

دخلت «جوليا» إلى السيارة على الفور وأراحت رأسها على مخدع المقعد وهي تحاول تنظيم أنفاسها المضطربة؛ ذلك الرأس الذي كان شاغرًا تمامًا في تلك اللحظة من أية أفكار. فالفتاة التي خطّطت لكل ذلك ولم تخطِّطه، والتي مشت في طريقٍ طويلٍ لتمارس الخطيئة فحقّقتها وتجاوزتها في لحظات قليلة وكأنها لم تفعلها، فأوقعت سائق سيارة الأجرة في الشرك القاتل ثم خدعت هذا الشاب إلى جوارها بحكاية

وهمية، وتصرّفت بكل ذلك الدهاء وهي منصرفة عن عالم الواقع، قد عاشت ذلك المشهد دون أن تقصده أو تعنيه، واندفعت لتمارس هذا الشرّ المطبِق مدفوعة له لاإراديًا.

كانت متواجدة لكنها لم تكن موجودة..!

بدأ الشاب يتحرك بسيارته بينما عبرت من جواره شاحنة نقل تسحب مقطورة ضخمها خلفها، واجتذب الصوت المزعج الصادر من الشاحنة انتباه «جوليا» فنظرت بتلقائية نحوها وأبصرت على مؤخرة المقطورة نقشًا بخط عريض للآية القرآنية:

«اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ»(039)

***

(٦ / ٢ / ٢٠١٥)

خمس يكبرن بخمس: النار بالهشيم، والشك بسوء الظن، والجفاء بعدم الإحسان، والخصام بعدم الصفح، والقطيعة بعدم السؤال(038).

آه لو تعلمين كم أكرهك وأكره مشاهدة وجهك البغيض هذا! تتسرّب الطاقة السلبية إلى جسدي، وتتحلّل خلايا الهدوء والسَّكينة في داخلي ما إن أطالعك؛ تسري موجات العصبية الصامتة والغضب المكبوت في عروقي حيال قدومك وظهورك في أي مشهد.

أنا على يقين تام أنه إذا كان للشيطان زوجة أو امرأة فلا شكّ أنها أنتِ، فمن في هذا الكون بأسره من بين نساء كل المخلوقات يحمل مثل صفاتك الأبليسية المجردة؟!

أنا على يقين أيضًا أن الشيطان لا يبدو مخيف الشكل أو دميم الملامح وله هيئة تبعث على الرعب كما تصوّره الأفلام واللوحات والكتب، بل على العكس تمامًا، لا بد أنه شديد الوسامة، بلى.. لا بد أنه شديد الحُسن ويشبه أحد نجوم هوليوود رائعي الوجوه والأجساد، وإلا كيف يقوم بخداعنا إن كان يبدو كريهًا ومخيفًا كما يزعمون؟! كنا بالتأكيد سنهرب من أمامه خائفين بمجرد أن تقع عليه عيوننا، وكنا سنحتمي

من شروره التي تتجسد واضحة بارزة أمامنا، فالشيطان هو ذلك الكائن ممسوخ القلب لا الهيئة بالضرورة؛ وقبيح الروح لا يلزم أن يكون قبيح الطلّة.

الشيطان هو الذي يتنفس شرور الناس ويقتات على أحقادهم، وحتى يتسنّى له ذلك لا مناصّ من أنه يمتلك الحيلة والدهاء بما يكفي للإيقاع بضحاياه السذج، فيجب أن يكون جميل الوجه، معسول الكلام، آسر التفاصيل، حتى يستطيع نصب شِراكه واغتنام طرائده.

وهكذا أنتِ تمامًا يا امرأة الشيطان؛ لديكِ هذا الوجه الفاتن الجميل، وهذا الجسد الممشوق الغض، وتلك الشخصية التي تبدو مثيرة آسرة في عيون السُذّج من فرائسك، ولكِ حضور طاغٍ حين ظهورك يسحر ألباب الناس ويسلب قدرات عقولهم فيخرّون كالثيران أمام مذبحك، ويقدمون فروض الطاعة والمحبة في إذعان.

ودائمًا ما أتساءل عمّا أسقطكِ إلى عالمنا بهذا الشكل المفاجئ، وكأنك هبطتِ إلينا من جرم سماوي منبوذ كي تفرقي بين المحبّين وتنشري البغضاء بين أرواحهم.

كيف خُدِعت أنا كذلك ولم أستطع النفاذ إلى ما تحمليه في داخلك من مقت وشرٍّ مستطير؟ كيف لم أرَ مناجم الفحم المنتشرة في كهوف قلبك؟ في البداية أسَرَتْني ملامحُكِ

الجميلة، فَسِرتُ وراء وسوساتك كالممسوسة. آمنتُ بعبثكِ الجُهنميّ دون مراجعة أو حذر. لم أفطن حين سقطتِ فوق رأسي كنيزكٍ مشتعلٍ منذ وصولك من الولايات المتحدة حتى شُلّت أفكاري وتَخدّر عقلي جرّاء الصدام. كانت تلك هي الصدفة الأتعس في حياتي حينما قابلتكِ في أحد مقاهي حيّ الزمالك وظننتُ وقتها أنكِ الصديقة التي جاءت من رحم الأقدار الطيبة لتعاونّي على حياتي البائسة، فإذ بالعكس تمامًا يحدث مذ أن صادفتكِ؛ رُحتُ أنا أعاونكِ على السير في الاتجاه الصحيح بإرادة مسلوبة، ووجدتني أعرض عليكِ المساعدات، وأرشدكِ إلى بدايات الطريق، حتى عاد كل شيء فعلتُه من أجلكِ ليلتفّ حول عنقي كثعبان أحراش؛ فأنا التي قدّمتكِ لصديقتي الناقدة الفنية الكبيرة والتي قامت بدورها بتقديمك للمجتمعات الفنية وتعريفك على كل الجهات الخاصة والعامة التي ترعى الفن التشكيلي وتهتم به، وأنا من اقترحتُ بحماسٍ أن تقيمي ذلك الحفل الأنيق في حديقة الفيلا فأتيحت لكِ كل الفرص والعلاقات، وأنا من ألححتُ على صديقتي الناقدة كي تدعو الفنانين ورعاة الفن إلى ذلك الحفل. ويا ويحي.. كنت أنا أيضًا صاحبة فكرة دعوة بعض الكُتّاب والأدباء والشعراء لذات الحفل، ومن بينهم «صبري».

«صبري».. ذاك الرجل الوحيد الذي تمنّيتُه لنفسي من أغوار قلبي، الشاعر الذي غَدَت كلمات قصائده قناديلَ تنير دروبي

المظلمة، والوجه الذي أحلم به ليلة تِلو أخرى كي يشاركني وسادتي، والأماسي والصباحات، وهو الصوت الوحيد الذي يتغلغل في أعماقي وتَطرَب له مسامعي وتتحرّك إليه أنوثتي؛ فمنذ أن عرّفتنى عليه صديقتى الناقدة وكل تفاصيل حياتى قد تغيرت حين عرفتُ العشقَ والأشواق والغياب في تيه المشاعر للمرة الأولى في عمري. أحببتُ «صبري» كما لم أحب أبدًا من قبل، بل أحببته حتى صار تذكرتي لدخول عالم الحب الذي طالما أنكرت وجوده وسخرت من أهله واتهمتهم بالخيبة والسذاجة، علمتني كلماته معاني لم أكن أدركها فصار هو لأنوثتي الملحدة كالمهديّ المنتظر، ودخلت بهدي تعابيره إلى دير الغرام، وتوضأت بماء المشاعر المُقدّس، وأعلنت توبتي. كشف لي «صبري» عن كل المعاصي الجسيمة التي ارتكبتها في حق أنوثتي حين ارتضيت بزوجٍ لا يقوم إلا بدور المموّل المادي لطموحاتي، والمنتج المتيسّر لأطماعي البغيضة، فأردتُ استبدال كل شيء أتاني به هذا الزوج الغبيّ بعناقٍ دافئٍ من «صبري»، أردتُ استبدال فساتيني العالمية بملامسة قمصانه القطنية، وحُليّي الماسيّة بالنظر إلى بريق عينيه، وقَصْرِي الساحلي بلمسة من شواطئ أصابعه، نعم.. أردتُ مقايضة الغالي بما هو أغلى، أردت استبدال المادي الباهظ الثمن بالمعنوي الذي لا يُقدَّر بثمن...!

نعم ربما صدّني «صبري» في بادئ الأمر وأخبرني أن أخلاقه

تُعيقه أن يبادل امرأة متزوجة تلك المشاعر، لكنني كنت على وشك السعي للطلاق من صندوق النقد الذي يشاطرني فراشي كيما أثبتّ له أنني مستعدة للتضحية بأموال العالم من أجله، ثم كان ظهورك المفاجئ! وقفتِ كالسدّ الحصين بين نهر أشواقي الجارف والمجرى الضيّق لقلبه، وانجرفت مشاعره سريعًا نحو مصبك، وراحت قطراته تروي الغرس الجديد وتنتظر اخضراره، ووقفتُ أنا وحيدة وتعيسة أتيّبس وأجف في صحراء مشاعري.

أيتها الملعونة المشعوذة خاطفة الرجال، سأظل هنا بجوارك حتى أنتصر لكرامتي واستردّ حبيبي والرجل الوحيد الذي عَشِقَتْه روحي، فلن أسمح لكِ أبدًا أن تكوني السبب في وأد حُلمي وقطع طريق الحياة أمام بعث المشاعر في قلبي....

كانت مستغرقة في أفكارها، وغائبة في مشاعرها المكبوتة، ساعدها على ذلك هذا الصمت المطبق الذي يخيّم على أجواء الجلسة منذ ما يزيد عن الساعة، بيد أن سيل تلك الأفكار قد توقف عن التدفق دفعة واحدة حين شقّ صوت «جوليا» ذاك الصمت الطويل وهي تقول لها في هدوء يشوبه لامبالاة واضحة:

- أعتذر يا «ريم» على ذلك الصمت. أصارحكِ القول إنني لم أكن مؤهّلة لزيارتك اليوم، لقد فاجأتِني بها ولم أكن مؤهّلة

لاستقبالكِ بالشكل الذي يليق بك. كان نومي ليلة الأمس مليئًا بالكوابيس ثم أمضيت غالبية اليوم في رسم لوحة جديدة وأشعر حقًا بإرهاق وإعياء يصعب معهما تجاذب أطراف الحديث معك.

تمنّت «ريم» لو أخبرتها أن ذلك الصمت والتجاهل يعبّران ببساطة عن عادتها في عدم احترام ضيوفها والاحتفاء بهم كما ينبغي، ويتناسقان مع عجرفتها المعهودة وافتقادها لأبسط قواعد الذوق والضيافة، لكنها اكتفت بترديد تلك الكلمات داخلها بينما رسمت ابتسامة عريضة على وجهها؛ ابتسامة داهية ليست بالصفراء ولا بالبيضاء، لكنها تبدو حقيقية جدًّا برغم أنها شديدة الاصطناع ولا تعبّر بأي شكل عمّا يدور بداخلها، فأجابتها قائلة:

- لا تعتذري يا حبيبتي، فأنتِ مُحقّة، وكان ينبغي بالفعل ألا آتي قبلما أخبرك، لكن هاتفك صار مغلقًا أغلب الأوقات في الآونة الأخيرة ولم يعد الاطمئنان عليكِ بالمسألة اليسيرة، وأنت تعرفين كم أحبك وأشعر بالقلق الشديد عليكِ.

دارت بوجهها ترمي أرجاء المرسم بنظرة متفحصة، ثم عادت توجه حديثها لـ «جوليا» قائلة:

- لكنني لا أرى أية لوحات جديدة، فأين تلك اللوحة التي أخذتكِ مني اليوم؟

ارتبكت «جوليا» قليلًا لأنها تُخفي هذه اللوحة أيضًا مع سابقتها في الغرفة المغلقة، فأجابت:

- نعم.. معكِ حق، هذا لأنني قررتُ إخفاء بعض اللوحات لتكون مفاجأة لك ولـ «صبري» حين أكشفُ عنها في وقت المعرض.

اتسعت ابتسامة «ريم» المصطنعة بينما استعرت النيران في سويدائها حين أتت «جوليا» على ذِكر اسم «صبري»، وقالت:

- حسنًا يا حبيبتي.. سوف أتركُكِ الآن كي ترتاحي. أحتاج فقط إلى استخدام الحمَّام كي أعدّل من زينتي قبل الرحيل.

- تفضلي بالطبع!

نهضت «ريم» عن معقدها وهي تحمل حقيبتها الجلدية التي تضع في داخلها أدوات زينتها، واتجهّت فورًا صوب الحمَّام الذي دخلته وأغلقت الباب بإحكام من الداخل، ثم راحت عيناها تبحثان في الأنحاء عن شيء ما حين لَمَعَت عيناها بشكل قوي واتسعت ابتسامتها حين وجدت بغيتها، واتجهت ناحية سلة بلاستيكية تحتفظ فيها «جوليا» بملابسها المتسخة، فأزاحت غطاء السلّة ومدّت يدها تُقلّب في قطع الملابس حتى التقطت قطعة ملابس داخلية وأخرجتها سريعًا من السلة وقامت بطيّها أكثر من مرة ثم

وضعتها داخل حقيبة يدها، وأخيرًا استدرات حيث توجد مرآة كبيرة مُعلّقة على الجدار، فنظرت إلى انعكاس صورتها واتسعت ابتسامتها أكثر وأكثر، وكان من السهل في تلك المرّة تحديد لون ابتسامتها باللون الأسود وهى تخاطب صورتها في المرآة:

- حسنا يا «جوليا»، يا امرأة الشيطان، قد حلّ الميعاد وسوف نبطل السحر بالسحر، ونمنع الدجل بالدجل؛ هذا الأثر يحمل ماءكِ وعرقك، وما هي إلا أسابيع قليلة ويدفعكِ السحر الذي أعتزمه إلى العودة من حيثما أتيتِ، فترتاحين وأرتاح، وتأفُلين وأضيء، وتخرجين من «صبري» وأدخل أنا..!!

***

جَلَسَت «جوليا» فوق فراشها مُمدّدة القدمين، مُستغرقة تمامًا في النظر إلى صورتها الفوتوجرافية مع «صبري»، المعلقة فوق الجدار الموجود أمامها، حتى إنها لم تنظر إلى علبة التبغ الأمريكية التي أوشكت على النفاد وهي تسحب بأصابعها لفافة تبغ أخرى من داخلها، ثم أشعلتها وتركت الدخان يسرى فى أوصالها ويلامس أعماقها المرتبكة علّه حين يخرج مع زفيرها يترك متسعًا لبعض الهدوء. كانت الأفكار تتدفق إلى رأسها بالسرعة نفسها التي تعدو فيها المشاعر إلى أوردة قلبها، فباتت كل الأشياء بداخلها فوضوية

ومتشابكة كلوحة من لوحاتها السريالية. جاهدَت لتنظيم تلك الأفكار والمشاعر بجلستها فوق فراشها مسترخية على ذلك النحو، وبالإفراط في التدخين ومحاولة تنظيم تنفسّها بتزامن منضبط كمتدربة في ساحة لممارسة اليوجا، إلا أنها لم تفلح، بل ازداد الأمر سوءًا حين اندلعت مشاجرة عصبية وصاخبة بين كل تلك الأفكار والمشاعر، واشتبكت أطراف الفوضى بداخلها، واحتدّ النقاش كَرَحى معركة بين متبارزين في ميادين الحرب، وكانت هي الطرف الوحيد المُنصِت المترقب في اتون هذا الضجيج.

صوت أول:

- هل تحبين صبري؟

صوت ثاني:

- نعم تحبه جدًّا وأنت على يقين من ذلك، وياليتك تكفّ عن أسئلتك الخبيثة التي لا غرض منها إلا صناعة البلبلة.

صوت أول:

- لستُ على يقين من شيء، فانا لم اعهدها تحب من قبل، هي فقط تأخذ من كل من هم حولها ما تريده منهم؛ تأخذ من «صبري» حبّه واهتمامه، وتأخذ من «عم حسّان» مشاعره الأبوية الحنونة، وتأخذ من «ريم» علاقاتها ودائرة معارفها

المتسعة، فهي كالإسفنجة تمتص ما تريد حينما تريد، لكنها في المقابل لا تعطيهم اليسير القليل. أمثالها لا يعرفون الحب ولا يتعاطون كؤوس المشاعر.

صوت ثانٍ:

- أختلف معك! فأمثالها هم الحيارى الهائمون في طرقات الحياة وأزقّتها؛ هم المجبرون على التعايش مع أيامهم دون أن يمتلكوا مشيئة للاختيار، هم الحزانى الصامتون الذين بلغ بهم تعففهم عن آلامهم حد الصمت المطبق، فلا يشتكون لأحد مهما كان وثيق الصلة بهم، ولا ينوّحون بأنّاتهم حتى لأنفسهم.

أمثالها هم الذين يحملون أوجاعهم فوق كفوفهم؛ تارة يُنغّمون منها نوتة موسيقية تصدح بعذاباتهم، وتارة ينظمون منها قصيدة شعر تتراقص حروفها كالطير المذبوح، وتارة يرسمون منها صورة تفضح ألوانها صنوف معاناتهم.

أمثالها هم أفضل العارفين بالحب، والهائمة أرواحهم في سمائه البتول، لكنهم لا يعرفون كيف يعبّرون عنه، وكيف يترجمونه إلى نصّ واضح يصلح للقراءة والفهم.

هي تعشق «صبري» حقًّا لكنها كلما همّت بالتلاشي بين ضلوعه يمنعها خوفها المجهول عليه من الاستمرار، هناك شيء ما صار يُعيقها عن التقدم ويُشعرُها أنها تمثّل خطرًا ما

على حياته ومستقبله.

هي تحب «عم حسّان» وتقدّر إخلاصه وما فعله من أجل ممتلكات عائلتها، لكنها كلما حاولت أن تظهر امتنانها له تمنعها هالة غامضة مخيفة تحيط به؛ هالة تراها ببصيرتها وتدركها بحدسها.

هي تحب «ريم»، وتعترف بفضلها الكبير كونها السبب المباشر في لقائها بـ «صبري» وعلاقاتها التي نشأت وتوطدت مع الكثير من أفراد الوسط الفني والثقافي، ولكنها كلما همّت بالتعبير عن شكرها تجاه هذا الفضل تمنعها موجة حِقد عالية صادرة من قلب «ريم»؛ موجة تستطيع توقع خطورتها والتنبؤ بنتائجها. هي ظمئة وتسعى للارتواء غير أن ماء البئر آسن ومسموم.

صوت أول:

- أنت تدافع عن قضية خاسرة، وتزيّف الواقع، وتشوّه الحقائق كي تظهرها وكأنها غير مسؤولة عن أفعالها. لماذا إذًا لا تخبرنا أين كانت فجر الخامس من يناير أو فجر الخامس من فبراير؟ لماذا لم يتطرق دفاعك عن السرّ وراء اللوحة التي رسمتها في اليوم التالي لهذين اليومين؟ هل بوسعك أن تجزم يقينًا أنها لم تكن جزءًا من المشهدين المرسومين بطريقة أو بأخرى؟ ثم ما الذي يدفعها الآن وبعد كل تلك

السنوات إلى العودة لرسم تلك المشاهد العنيفة؟ وهل يُعقل أن من تخطّ ريشته وتُجسّد كل هذا العنف الدموي فوق لوحات الرسم يحمل بالفعل أي مساحة للحب في قلبه ووجدانه؟ من الواضح أنها تُجسّد ساديتها وعنفها فوق لوحاتها مثلما تعامل مُحبّيها بهذا النُكران وتلك السادية، ربما كنوع آخر من المتعة والتسلية.

صوت ثالث:

- على رِسلكما.. بوسعي أن أؤكّد أنها كانت نائمة لا حول لها ولا قوة في التاريخين المذكورين، وأن لوحتيها الجديدتين ما هما إلا هلوسات فنية انطلقت من لاوعيها ولا يمكننا إلقاء اللوم على ما ينتجه اللاوعي من صور ومشاهد، حتى وإن كانت عنيفة.

صوت أول:

- وكيف لنا أن نتأكد من ذلك؟

صوت ثالث:

- لأن تلك المشاهد لم تكن إلا أضغاث أحلام وقد كنتُ حاضرًا معها أثناء تلك الكوابيس ورأيت معها ما رأته وأستطيع التأكيد أن روحها بريئة من اتهامها تصوير ذلك العنف لمُتعة في نفسها. لقد كنت رفيقًا لها في كل رحلاتها إلى

الغيوم، ورأيت أن روحها كانت ضائعة بين عالمين حيث تلتقي الإرادة واللا إراداة في برزخ رمادي اللون وضبابي الأجواء.

صوت أول:

- عبث.. كل ما تقوله محض عبث.

صوت ثاني:

- بل إنك أنت العابث الأكبر.

صوت ثالث:

- بل العبث هو الاستماع للمزيد من هرائك.

وهكذا تعالَت الأصوات بشكل هيسيتري، وتحوّل الشجار بينهم لما يشبه الصفير في رأسها، فضغطت «جوليا» بكفيها على أذنيها في محاولة مستميتة لإسكات الضجيج الذي واصل حدّته وتصاعده، وراحت تهزّ رأسها في كل الاتجاهات بعنفٍ شديدٍ ظنًّا منها أنها بذلك تطرد تلك الأصوات خارج تلافيف عقلها كلما هزّت رأسها بسرعة وعنف. وفجأة انقشعت كل الأصوات كأنها لم تكن بالأساس، وشرع صوت المرأة العميق يتردّد في داخلها:

- «جوليا»، لا عليكِ يا ابنتي، سوف ينتهي هذا الضجيج

قريبًا، لقد تخطّينا حاجزين في طريقنا نحو الخلاص ولم يتبقّ الكثير. ثابري يا ابنتي، فالنعيم قادم والراحة على المشارف. نامي يا حبيبتي، نامي وسوف أزودهم عنكِ.

واستمر الصوت يردد في خفوت:

- نامي، نامي....

سقطت رأس «جوليا» على الوسادة وغفت تمامًا حين كانت ظلال غصون الأشجار المقابلة لنافذة غرفتها تتحرك لترسم ظلاّ داكنًا فاصلًا بين وجه «صبري» ووجهها في صورتهما المعلقة...!!

***

(١٥ / ٢ / ٢٠١٥)

رقم خمسة (٥) هو إعلان آخر عن عطايا الله لخليقته، هو نعمة الله وخلاصه للإنسان حين سقط، هو إعلان عن نعمة الله الدائمة والمتجددة للخليقة. (037)

- ها نحن قد انتهينا أخيرًا

كان ذلك إعلانًا كافيًا منها كي ينهض «صبري» عن مقعده مسرعًا ومتحمّسًا وهو يتحرك تجاهها ليرى أخيرًا اللوحة الخاصة به التي انتهت «جوليا» للتوّ من وضع لمساتها الأخيرة عليها، وهو يقول مازحًا وربما خجِلًا:

- حسنًا أيتها الفنّانة.. دعيني أرى كيف صنعتِ من الفسيخ شرباتًا.

مدّت «جوليا» كفّها في الهواء في إشارة صارمة له كي يتوقف في مكانه ولا يقترب، وهي تقول بلهجة صارمة:

- سبق وأن أخبرتك أيها الأستاذ أنه من غير المسموح لك أن ترى هذه اللوحة قبل عرضها في المعرض، ولا أحبّ أيضًا أن تتحدّث عن نفسك هكذا وأنت الرجل الأوسم على الإطلاق في هذا العالم.

عبّر «صبري»عن ضيقه بزفرة قوية أطلقها قبل أن يقول:

- دعكِ من أمر وسامتي الآن! لماذا لا أشاهد لوحة كانت فكرة رسمها الرئيسية هي محاولة منكِ للتعبير عن مشاعرك تجاهي؟ أيعقل أن تبذلي كل هذا الجهد لترجمة مشاعرك نحوي ثم تُخفي هذه الترجمة عن عيني صاحبها؟ أين الإنصاف في هذا؟ وهل سبق وأن أخفيتُ عنك أي قصيدة جديدة كتبتُها من وحي إلهامك؟ بل على العكس من ذلك، فبمجرد أن أنتهي من كتابة أي جديد يتملكني شغفٌ كبير كي أُسمعِكِ إياه!

ابتسمت «جوليا» في دلالٍ وهي تسحب الحامل الخشبي للوحة إلى أن بات في مواجهة الجدار بحيث يتعذّر رؤية محتواها، وأجابته:

- لكلٌّ منّا أسلوبه في عرض إبداعه! أنا أريدك أن تشاهد هذه اللوحة للمرة الأولى في شكلها الأبهى وفي أجواء تليق بتلك المشاعر التي بتأثيرها رسمتُ هذه اللوحة، كما أن أسلوب عرضها لا بد أن يتناسب مع ما يدور في خيالي من طقوس؛ أريد أن تكتمل كل العناصر حول هذه اللوحة فتكون بمثابة الرتوش الختامية لها؛ فهناك مثلًا الإضاءة التي سوف تعلوها، ولون الجدار من خلفها، وتصميم إطارها الخشبي، وغير ذلك من العناصر الفنية الجوهرية، أتفهمني؟

مطّ شفتيه مستسلمًا:

- على الرغم من أنني لست مقتنعًا، ولكن ما باليد حيلة. سوف أتنازل عن فضولي الشديد احترامًا لرغبتك فحسب.

ضحكت وهي تقترب منه متمايلة بحركات شبه راقصة وتقول:

- كم أحب تفهمك الدائم لرغباتي.

تلقّف «صبري» أطراف أناملها مستدعيًا حركة جعلَها تدور فيها حول نفسها في استجابة لحركاتها الراقصة، وتجاوبت هي مع يده وراحت تدور في خطوات رشيقة مرة بعد مرة حتى توقفت أمامه مباشرة والتقت عيونهما في نظرة برّاقة عاشقة فبادرها «صبري» بسؤال خافت:

- أتحبينني فقط من أجل تفهُّمي لرغباتك؟

وضعت رأسها على كتفه وكأنها هِرّة تتمسح في صاحبها:

- بل أحبكَ لأنكَ أهلُ للحب مثلما أحب كل شيء تفعله من أجلي. وماذا عنك، هل تُحبّني؟

أفلتها من يديه وانحنى أمامها نصف انحناءة كممثل يؤدي التحية المسرحية الكلاسيكية، قبل أن يستقيم بجسده مرة أخرى ويطلق العنان لروحه كي ترتجل، وراح ينظم لها الأبيات:

- حضر الفارس إلى بلاط الأميرة

فات وقت السؤال وجرى ما جرى

لا تُجْدي مقاومة أمام جلالتك

فلا راحة في صحوٍ ولا في كرى

أُسلّم حصوني المُحكمات بلا تمردٍ

قد لان الصخر أمامك وانبرى

هذه خارطتي فاكتشفي كل تخومي

وهذه عيناي يكفيهما الآن ما ترى

إليك مفاتيح قلعتي فاسكنيها

واسكني دمًا من نَصْلِ حُبّكِ قد جرى

أيتها الأميرة....

الشِعر في حضرتك يزداد تحضرا

ينحني أمام عرشك ويؤدي التحية

يتشكّل جدولًا وبستانًا ورخامًا

حتى يُزيّن قصرَكِ في تلك الأمسية

وفارسُ الشرقِ في كفيه الشموس

وفي عينيه أمجاد العشق الأزلية

قد جاءكِ اليوم بلا جوادٍ ولا سيفٍ

يكفيه ما في عناقكِ من أسطورية

لا مهزومًا في العشق ولا منتصرًا

كلنا يا حبيبتي سواء وكلنا سواسية..!!

صفّقت «جوليا- بشدة بمجرد أن أنتهى من إلقاء قصيدته والدهشة والجذل يتملّكان ملامحها وصوتها وهى تهتف:

- أكانت هذه قصيدة من قصائدك القديمة؟

أجابها بثقة:

- كلا.. بل مجرد ارتجال لحظي، والفضل كل الفضل لملهمتي.

باغتته بقبلة رقيقة فوق وجنته وقالت:

- بل الفضل فقط لموهبتك يا شاعر، أنت موهوب بشكل غير مسبوق، وكأنك تأمر الشِعر فيأتيك صاغرًا.

شَعَر «صبري» ببعض الخجل من قُبلتها الصغيرة، وبخجلٍ أشد من إطرائها، فحاول التنصّل من ذاك الموقف بعبارة بسيطة، فقال:

- كل الشعراء يتمتعون بتلك المهارة، فالقدرة على الارتجال مهارة أساسية لدى جميع الشعراء من قديم الأزل.

ابتسمت وهي تُربّت على كتفه برقة مبالغة:

- هذا التواضع الشديد الذي تدّعيه الآن هو نوع من الغرور الماكر.

- حسنًا أيتها الحَذِقة، دعكِ من أمر موهبتي واستعدي للمفاجأة التي أعددتها لكِ.

هتفت بفرحة طفولية:

- أي مفاجأة؟ هيَّا.. تكلّم سريعًا!

- أحضرت لكِ هدية وأنا على يقين من أنها سوف تروقك كثيرًا. وبما أنني لستُ أعلم مدى اطلاعك على الأساطير المنسوجة حول هديتي هذه، فهناك مقدمة يجب أن أخبركِ بها قبل أن أظهر لكِ الهدية.

ظهر على ملامح «جوليا» الضيق ونفاد الصبر وهي تقول:

-حسنًا .. تفضل، أخبرني بقصتك سريعًا؛ تعرفُ أنني لا أطيق الانتظار.

- ليكن يا فتاتي. من أكثر الأشياء التي جذبتني إليكِ حين تعارفنا هو شغفكِ الكبير بكل ما هو أسطوري وتراثي، وكان

من الواضح جدًّا أن الدمَ المصري الذي يجري في عروقك يدفعكِ نحو العودة إلى جذور تحمل الكثير من رائحة التاريخ واكتشاف أغوار العالم السحري لأرض الشرق، وصار احترامي لكِ يزداد يومًا بعد اليوم حين عرفتُ منكِ أن السبب الرئيسي وراء مجيئكِ إلى البلد التي تحمل نصف خارطة جيناتك كان البحث عن هذه الأصول وصهرها من خلال موهبتك الفنية، ومن ثَمّ إعادة تشكيلها في قوالب إبداعية جديدة تحمل روحك وانطباعاتك والجوهر الحقيقي لذاتك. فلن أنسى أبدًا إجابتك حينما سألتكِ عن سرّ حضوركِ إلى مصر بعد كل هذا العُمر. حينها أتتني ابتسامتكِ الساحرة وقُلتِ بجديّة «قررتُ أن يبدأ مشروعي الفني من هنا حيث عاش أبي، وحيث وجوه الناس تحمل الكثير من الحكايا، غير أن مِصر هي مهد أوّل الألوان وأوّل الرسومات وأوّل الفنون».

قاطعَته بهدوءٍ:

- نعم، كنتُ أعتزم المكوث هنا لفترة قصيرة كي أكتشف هذا السحر وأعود به في شكل لوحات مبهرة أعرضها في الولايات المتحدة، وبالطبع تغيّرت خطتي برمّتها فور أن قابلتك. وهبَتني علاقتي بك بصيرة ورؤية مختلفة، لمستُ بها زوايا جديدة لحكايات الناس هنا، وعرفتُ بها بعض الأسرار المختفية وراء ملامحهم الطيبة، ووجدتُني أنجرف مع تيار

هذا السحر وألتصق بأساطيره وقصصه الغامضة، فقرّرتُ البقاء وعرض فني على أهله وأصحاب الفضل فيه.

- نعم.. ولهذا فإن مفاجأتي لكِ اليوم مرتبطة بشكلٍ وثيقٍ بهذا العالم السحري والأسطوري الذي نتحدث عنه، ومن وحي أسرار الشرق وفتنته التي جذبتكِ وأبقتكِ بين أحضانها.

أما عن أمر هذا المفاجأة، فلقد سافر صديق لي يعمل كصحافيّ في رحلة عمل إلى دولة العراق، وكانت زيارته تشمل زيارة قصيرة إلى مدينة النجف حيث يوجد مرقد «الإمام على بن أبي طالب»، أو «الروضة الحيدرية» كما يطلقون عليها، ولقد كلّفتُه بأن يأتني بهذه التميمة العجيبة التي تمثل للكثير من ثقافات الشرق عنصرًا للحماية ودرء الشر.

ولقد عُرِفت هذا التميمة كإحدى العلامات التي تُستخدَم في الحماية عند السومريين والأكاديين، وكانت تُعرف عندهم باسم (كَفّ عِشتار) أو (كَفّ إنانا)، كما عُرِفَت عند قدماء المصريين بـ (كَفّ الطالع) أو (كّفّ الوقاية)، وكان الكهنة يستخدمونها لمعرفة الطالع وكانوا يضعونها على جبهة المولود أو حول عنقه لحمايته من الحسد وطرد الأرواح الشريرة من حوله. وهي عند اليهود ترمز ليد الله وتسمى «خميش»، وكذلك تُسمّى (يد مريم) أخت موسى وهارون ،

كما ترمز للأسفار الخمسة التي تتكون منها « التوراة»، وتستخدم عندهم كطلسم سحري للحماية من الأخطار....

وكُلّما تحدّث صبري واستطرد في وصف هديته كانت ملامح «جوليا» تتغير رويدًا رويدًا، وكأن لونًا أزرق كان يجري بين أوصالها ويحاول الوصول إلى وجهها فيصطبغ به على غفلة من «صبري» الذي لم يلحظ أي من ذلك وهو يتابع حديثه دون توقف:

- أما بعض المسيحيين، مثل مسيحى سورية، فيسمونها أيضًا «كفّ مريم» إشارة إلى السيدة مريم العذراء أم النبي عيسى عليه السلام، وبالنسبة للمسلمين الشيعة فهي تعني أهل الكساء الخمس (محمد عليه الصلاة والسلام، السيدة فاطمة الزهراء، علي بن أبي طالب، الحسن، الحسين)، بينما يعتقد بعض المسلمين السُنّة أنها تشير إلى أركان الإسلام الخمسة، ويرى بعض المتصوفة كذلك أن لها قدرات باطنية خفية في صدّ القوى الشريرة.

أما علماء الآثار فيرون أن أصل هذا المُعتقد يعود إلى الفينيقيين، حيث أنه رمز (تانيت) آلهة القمر عندهم، فيما ترمز الدائرة في وسط الكف إلى القمر.

ويرى بعض المهتمين بدراسة الأساطير أن أول من استعمل هذه التميمة – أي الكفّ الذي تتوسطه خرزة زرقاء - هم

شعوب البحر المتوسط الذين سكنوا السواحل، وذلك بغرض تهديد وإخافة الرومان الذين كانوا يتميزون بالعيون الزرقاء، فكأنهم يتوعدون الرومان بخلع عيونهم إذا خطر لهم غزو أراضيهم.

وأخيرًا عادت الابتسامة المشرقة إلى وجه «صبري» وهو يختتم عرضه الإيضاحي بقوله:

- والآن يا حبيبتي.. أغلقي عينيكِ الحُلوتين للحظات.

لم يكن يدري أن عينيها كادتا تغلقان بالفعل دون أن يطلب منها ذلك، ودون أن يلتفت إلى وجهها الذي كان يزداد انتفاخًا وزُرقة، فأغلقت «جوليا» عينيها في صمتٍ على الرغم من كل ذلك الذي كان يعتريها، فأخرج من جيبه علبة مخملية حمراء شديدة الأناقة وفتحها بهدوء ليخرج منها قلادة فضية ناصعة تتدلى منها تميمة كفّ اليد الذي يتوسطه حجر أزرق كريم، وأردف:

- أما الآن، وبعيدًا عن حكايات التاريخ، فنحن نطلق عليها في مصر «خمسة وخميسة»، ويعتقد الكثير من المصريين أنها تردّ الحسد وتقاوم عين الغِل والحقد. هيَّا، افتحي عينيك يا حبيبتي.

وبمجرد أن فتحت «جوليا» عينيها وشاهدت القلادة تتدلى

من يد «صبري» أمام ناظريها كانت كمن شاهد شبحًا مخيفًا يزحف تجاهه، فتراجعت إلى الخلف بضعة خطوات مذعورة، وباتت الزرقة التي كست وجهها داكنة أشبه بالسواد، وبرزت عيناها وكأنها على وشك الانفجار في محجريهما، وتدلّى فمها في إشارة لفزع هائل. وفي تحرُّكٍ غير متوقع على الإطلاق خَطَت نحو «صبري» في حركة مباغتة وانقضّت على القلادة وجذبتها بعنف من يده، واتجهت مسرعة نحو المدفأة وألقتها وسط النيران المشتعلة وهي تهذي بكلمات غير مفهومة لم يفهم «صبري» منها حرفًا؛ كلمات بدت أنها تنتمي للغة شرقية قديمة؛ علّها الأرامية أو السريانية أو غيرهما، ومن بينها انطلقت جملة واحدة بلغة عربية واضحة صرخت بها بين هذيانها غير المفهوم وهي تركض مسرعة عبر الدرج إلى الطابق العلوي، وبصوت لا يشبه صوتها في شيء؛ جملة اخترقت أذني «صبري» وبعثت في صدره القشعريرة حين سمعها تصيح:

- لديكم خمسة تحميكم ولدينا خمسة تهلككم...!!

***

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، السلام عليكم ورحمة الله

أنهى «عم حسّان» صلاة العشاء بالتسليمتين، وشرع في

دعاء خَتْمِ الصلاة في خشوعٍ وتُقاة، ثم رفع يديه إلى السماء وراح يُردّد في ابتهال متذلل:

«اللهم إني أسألك باسمك الأعظم، الذي إذا دُعيت به أجبت، وإذا سُئِلت به أعطيت، وإذا استُعِذتَ به أعذت، اللهم اهلك كل من طغى وبغى عليّ من السحرة والشياطين، والمردة والعفاريت، ذكورهم وإناثهم. يا واحدٌ يا أحد، يا فردٌ يا صمد، يا ودودٌ ذو العرش المجيد، يا حليم، اللهم يا مُنزِل الكتاب، ومُجري السحاب، وهازم الأحزاب، اللهم أهزمهم وزلزل الأرض من تحت أقدامهم..»

واستغرق «عم حسّان» في دعائه استغراق المتضرّع الخانع حتى إنه لم يشعر بصبري وهو يفتحم باب غرفته الصغيرة بعصبية وعنفٍ ويقف أمامه مباشرة وهو ساجد فوق سجادة الصلاة ينطق بالشهادتين بعد أن أنهى دعاءه.

لفتت قدمي «صبري» نظر «عم حسّان» فرفع رأسه لأعلى قليلًا كي يتعرّف على الزائر الذي يقف أمام سجادة صلاته على ذلك النحو، فطالعه وجه «صبري»مغتاظًا يتطاير من عينيه الشرر.

استقر «عم حسّان» راكعًا على ركبتيه، ناصبًا ظهره، يتطلع إلى ملامح «صبري» المضطربة في صمتٍ، قبل أن يقول ويسأله بهدوء:

- اللهم اهدِنا واهدِك، ماذا بكَ يا ولدي؟

خرج صوت «صبري» شديد الانفعال وهو يقول صارخًا في وجه الرجل:

- بل ماذا بك أنت؟! ومن هم المردة والعفاريت الذين تستعيذ بالله منهم؟!

حافظ «عم حسّان» على رباطة جأشه وهو يجيبه قائلًا:

- المردة ليسوا من أهل الجن فقط يا ولدى، بل ومن الإنس كذلك، حفظنا الله جميعًا منهم.

تعاظم انفعال «صبري» وغضبه:

- لا تصطنع السذاجة أيها الرجل، جاوبني الآن بالتي هي أحسن.. ماذا تصنع من وراء ظهورنا؟ وما الشيء الذي تخفيه عنّا؟ وما هي قصتك مع إناث الجن؟!

- لا تقسُ على نفسك يا ولدي فتحملك القسوة للظلم، ولا تتبّع وسوسات الشيطان فيسدّ نوافذ الرحمة في قلبك، دع الخلق للخالق ولا تسأل عن أشياء إن تُبدَ لك تُضلِلك وتُفقدك صواب الحكم.

صرخ «صبري» في وجهه بعنف اهتزّت له جدران الغرفة:

- بل أنت من ضلّلتنا جميعًا؛ كل تلك السنوات وأنت تُخفي

وجهك الشيطاني المخيف وراء قناعك المزيف، وجعلتنا نتوهّم أنك ذاك الرجل الصالح الزاهد المُضحي بينما أنت المخرب العابث. لقد شاهدتك بأم رأسي وأنت تتكلم مع عفريتتك أو شيطانتك تلك؛ رأيتك مثلما رأيت ما حل بـ «جوليا» في الأسابيع الأخيرة. فأي سحر صنعته لها، وأي شر قد رميته في نفسها؟ صار الأمر بالنسبة لي الآن مفهومًا بعد أن كذّبته مرارًا ومنعتُ نفسي من تصديقه. أنت تريد هذه الفيلا لنفسِك كما كانت في السابق، فسخّرت ما سخّرت لتبث الجنون والفوضى في روح «جوليا» فيغشاها الخوف والضلال حتى تفرّ بجلدها وتعود أدراجها إلى من حيث أتت ومن ثم تعود لك السيطرة الكاملة على هذه الفيلا مثلما كان الأمر في لياليك الخوالي. والله وحده يعلم ماذا كنت تفعل داخل هذه الفيلا في تلك الليالي وبات وجود «جوليا» الآن يمنعك عن ممارسته.

لمَعَت عينا «عم حسّان» بعبرات كان يقاومها وتقاومه حتى خَرَج صوته متحشرجًا يخنقه الحزن:

- لا أعلم ما الذي رأيته يا ولدي وجعلك غاضبًا إلى هذا الحدّ، لكن وإن رأيت شيئًا فلابد أنك رأيته وهو يحدث فوق سجادة الصلاة هذه، وفوق هذا القماش المكيّ لا شيء يحدث إلا الخير، لا بد أن الخمسة قد ضللت الواحد.

- ماذا تقول؟ أي خمسة وأي واحد أيها المشعوذ؟

- سحبتك حواسك الخمسة وراءها فضللت الطريق لهُدى القلب. قد تكون رأيت شيئًا بالفعل مثلما تقول، لكنك رأيته بعينيك كرؤيا المعصوب، وسمعته بأذنيك كسمع الهلاوس، ولمسته بيديك كلمس النار، وشممته بأنفك كشم الريح، وتذوقته بلسانك كطعم الفراغ؛ الحواس تشتيت والقلب ركيزة، الخمسة تخدع والواحد يُنجِي، وحُكمك الآن هو كالسير خلف سراب، حُكم ينقصه إدراك القلب يا ولدي، وينقصه صلاح النفس.

- تتكلم مثل السحرة وتسفسط مثل الدجالين!

- لا يا ولدي، أنا أكلم قلبك الذي حسبتُه طاهرًا، لا حواسك التي جعلت غضبَك يحيد بك عن دين المحبة.

انحنى «صبري» تجاه «عم حسّان» وأمسكه من كتفيه ثم جذبه جذبة عنيفه من ملابسه أنهضته من فوق سجادة الصلاة، واستجاب له الرجل دون مقاومة حتى وقف على قدميه، وشدّد «صبري» من قبضته على ملابس الرجل وقال مُهدِّدًا إياه:

- اسمع أيها الرجول العجوز، هذا القلب الذي تتحدّث عنه قد ضلّلني بالفعل حين جعلني أُحسِن إليك وأعاملك معاملة

الأب، أما الآن وقد انكشف المستور وظهر نتاج سحرك على «جوليا» فلم يعد لهذا القلب سبيل آخر بيننا. وحتي شِيبتك تلك لن تُردَعني ولن تحميك مني، سأدافع عن «جوليا» بأي وسيلة قد تخطر أو لا تخطر ببالك.

ثم أمعن من نبرة الحزم في صوته حتى بلغت منتهاها وهو يردف:

- اسمعني جيدًا.. الليلة، بل الآن، سوف تحزم أغراضك وترحل، ولن يكون لك وجود فى هذه الفيلا مرة أخرى أبدًا. أمامك ساعة واحدة فقط لترحل من هنا وإلاّ ...

قاطعه «عم حسّان» وقد غلبته الدموع التي جاهدها كثيرًا فانحدرت على وجنتيه وهو يجيب:

- لا داعى يا ولدى؛ لله الأمر من قبل ومن بعد.

ثم رفع يديه للسماء مناجيًا:

- اللهم يا خير من سُئِل، ويا أجود من أعطى، حَوِّلنا مما نكره إلى ما تحب وترضى، وإن كانت العين جامدة، والآذان صماء، واليد باطشة، واللسان غليظ، والأنف مزكومة، فلا تجعل القلوب قاسية ولا النفوس حانقة، اللهم انصر الواحد على الخمسة.. اللهم آمين..!!

***

(١ / ٣ / ٢٠١٥)

«أتظنون أني جئت لأعطي سلامًا على الأرض؟ كلا، أقول لكم: بل انقسامًا، لأنه يكون من الآن خمسة في بيت واحد منقسمين: ثلاثة على اثنين، واثنان على ثلاثة» (036)

اشتبكت الأدخنة المتصاعدة من احتراق بخور المقل الأسود وبخور الفلفل الأسود وبخور الكبريت الأصفر من المبخرة الكبيرة الموضوعة فوق المنضدة، فصارت الرائحة خانقة يشعر معها المرء وكأنه وسط حريق كبير شبّ في غابة وسط الأدغال الأفريقية، بيد أن غرابة تلك الرائحة لم يضاهيها سوى غرابة هيئة المرأة التي تجلس أمام تلك المبخرة وهي تُمعن في إحراق هذه البخورات كلما أوشك اشتعالها على الهدوء. كانت سمراء اللون يميل لون بشرتها إلى الزرقة، وعلى الرغم من ضيق عينيها إلا أنها تبعثُ بنظرة مخترِقة حادّة يزيد من حدّتها سُكناها محجرين أسفل حاجبين كثّين وغير مُرتّبين، فضلًا عن وشوماتها غير مفهومة التفاصيل والأقرب لرموز التعاويذ الكائنة فوق ذراعيها وجانبي وجهها، والقرط الفضي الكبير الذي يتدلى من أذنيها على شكل دائرة تتوسطها صورة كبش مخيف الهيئة وقلادة عنقها الفضية التي تنتهي بطلسم يحمل حروفًا صغيرة من لغة مجهولة.

وإلى جانب المبخرة فوق المنضدة أمام تلك المرأة اصطفّت

أشياء أخرى في صفّ واحد بدا تواجدها بجوار بعضها البعض غير منطقي على الإطلاق؛ طاجن فخاريّ عميق، ثم كوب من الحليب، تليه قطعة من الصلصال الأسود، وتسع شمعات ذات لون أسود، ومسمار حديديّ كبير، وكوب به سائل أصفر، وفي نهاية هذا الصف صحنٌ به حفنة تراب.

شعرت «ريم» بخوف رهيب يعتري كل جسدها وهي تتابع تلك المرأة التي كانت تشعل المزيد من بخورها ذي الرائحة النفّاذة، وازداد خوفها حتى ارتعدت أطرافها حين باغتتها المرأة بالسؤال:

- ما اسمها؟

أجابت «ريم» بصوت مرتبك متلعثم:

- «جوليا»

وردّدت المرأة:

- «جوليا»؟

وراحت تعُدّ حروف الاسم، ثم تابعت:

- خمسة حروف.. واسم أمّها؟

- «ليليت».

- خمسة حروف كذلك. رائع.. وفّر علينا هذا الكثير من

الجهد.

سألتها «ريم» بصوت ينضح رُعبًا:

- وكيف هذا؟

- هناك علم يخص الحروف ويحولها إلى أرقام، ونستطيع بتلك الأرقام أن نصنع أمورًا روحانية كثيرة، كما أن هذه الأرقام تساعدنا في الأعمال السحرية التي نصنعها.

قالت هذا وأمسكت بقلم حرّكته فوق ورقة صفراء اللون وأخذت تحصي حروف اسم «جوليا» حسب المعادلة الخاصة بهذا العلم وهي تردد:

- يقول هذا العلم أن القيمة العددية لحرف الجيم هي (٣)، ولحرف الواو هي (٦)، ولحرف اللام هي (٣٠)، ولحرف الياء هي (١٠)، ولحرف الألف هي (١)، أي أن القيمة الإجمالية لحروف اسم المطلوبة هو (٥٠)، وسوف نستخدم هذه القيمة الإجمالية فيما سنصنعه بدلًا من استخدام اسمها، لكننا نستخدم العدد المقابل لاسم المطلوب كرقم واحد عوضًا عن رقم المجموع أي أن نتعامل مع الرقم (٥٠) باعتباره يساوي ٥ + ٥ = ٥.

قالت المرأة، وارتفع حاجباها في دهشة وشهقت شهقة عريضة وهي تردف:

- عجبًا! إذًا فعدد حروف اسمها خمسة، وناتج المعادلة الرقمية لاسمها حسب علم الحروف والأرقام هو خمسة كذلك! لا يحدث هذا إلا نادرًا جدًّا ولا ينذر بالخير أبدًا.

اثرت «ريم» الصمت واكتفت بإيماءة من رأسها تشير بها إلى أنها متفهّمة لما قالته المرأة.

وردّت المرأة على تلك الإيماءة بنظرة ثاقبة قبل أن تقول لها بجدية:

- حسنًا.. أعطني الأثر الخاص بها الآن ودعينا نكشف عنها لأتباعنا وأسيادنا.

أخرجت «ريم» على الفور قطعة الملابس الداخلية الخاصة بجوليا من حقيبتها وناولتها إياها بيد مرتعشة.

التقطت المرأة قطعة الملابس منها وقرّبتها من أنفِها وشمّتها قبل أن تضعها بجوار الأغراض الأخرى فوق المنضدة، ثم أمسكت بقطعة الصلصال السوداء وبدأت في تشكيلها على هيئة فتاة. وحين انتهت من ذلك وضعتها مرة أخرى فوق المنضدة، ثم أمسكت بالمسمار الحديدي وحرّكته برفقٍ فوق شمعة سوداء من الشموع التسعة حتى نقشت عليها اسمًا غريبًا ومن تحته صليبًا متساوي الأطراف يشبه علامة الزائد الحسابية، وكرّرت ذلك مع الشموع التسع مع اختلاف

الاسم المكتوب في كل مرة، ثم ثبّتتهم جميعا على هيئة دائرة في قاع الطاجن الفخاري العميق وسكبت اللبن داخل الصحن، وعادت بعد ذلك فأمسكت بمُجسّم الفتاة الصلصالي ونقشت بالمسمار فوق جبينه رقم خمسة الذي كان نتاج معادلتها السابقة ثم وضعت المجسم داخل اللبن المسكوب في الطاجن وأتت بكوب السائل الأصفر، والذي لم يكن إلا بولًا بشريًّا، وأفرغته داخل الطاجن، ثم صرخت صرخة مفاجئة وعالية انخلع لها قلب «ريم»، وقالت:

- أطفئوا الأنوار الآن.

استجاب أحد أعوانها لأمرها ذاك على الفور فأظلمت الغرفة تمامًا إلى أن شقّ هذا الظلام الدامس شرارة اشتعال أحد أعواد الثقاب الذي أشعلته المرأة وحركته نحو فتيل أول شمعة من الدائرة المكوّنة من الشموع التسعة وهي تتمتم بكلمات شديدة الغرابة وبصوت ذي جرس صاخب يبث الرعب في القلوب، ثم كرّرت ما فعلته في كل المرات التسعة إلى أن انتهت من إشعال كافة الشموع قبل أن تشرع في تلاوة بعض الكلمات الأخرى غير المفهومة فوق كل شمعة، وكرّرت تلك التلاوة تسع مرات على كل شمعة من الشموع التسعة...!!

وحين انتهت من تلاوتها العجيبة أهالت التراب داخل

الطاجن الفخاري حتى غطّى المجسم الصلصالي الموجود في القاع تمامًا.

وانتظرت المرأة بعض الوقت حتى انطفأت الشموع التسعة من تلقاء نفسِها وامَرَت اتباعها بإنارة الغرفة مُجددّا، ثم أدخلت الصحن وقطعة الملابس الداخلية الخاصة بـ «جوليا» داخل كيس بلاستيكي أسود وأحكمت إغلاقه جيدًا، ثم رمقت «ريم» بنظرة اخترقت قلبها الذي كاد يتوقّف بالفعل عن الخفق جرّاء الإثارة والخوف، وقالت:

- انتهينا! سوف نرسِل هذا العمل إلى المقابر قريبًا كي يدفن هناك، وبعدها بفترة سيحلّ التفريق وسيحدث الانفصال وسيرحل كل منهما في اتجاه عكس الآخر؛ الشرق رحيل والغرب سفر، اليمين بكاء واليسار حزن..

الليلة هي الليلة الأول من الشهر الميلادي والحادية عشر من الشهر القمري، بعد عدة أيام وفي الليلة الخامسة من الشهر الميلادي يكتمل القمر ويصبح بدرًا، وفي تلك الليلة يبدأ السحر في التحكّم ويبزغ الفراق.

أوشكت «ريم» تفقد وعيها حين هتفت المرأة وكأنها تتكلم مع أشخاص آخرين في الغرفة:

- أجيبوني يا معشر التسع رهط المفسدين, فإني قد أقسمت

عليكم بأسماء الأربعة المستقطبين, وبما كتب على رؤوس الكراسي التي هم عليها قاعدين, هيا اقبلوا ووكلوا أعوانكم بتسليط البغضاء والعداوة بين («جوليا» و«صبري») حتى يكونا كما كان بين النار والطين, وليجعلوا من البُعد مقعدًا خلف ظهريهما فلا أبدًا يكونوا للقاء مجتمعين, وليبنوا بينهما سدّا لا ينتهي جداره حتى حين, حيّ على الشتات بالشتات ولا تبطئوا فتكونوا من المطهرين....!!

***

جلس القاضي الفرنسي في شرفة منزله يسأل لرئتيه بعض الهواء النقي وهو يحتسي كوب الشاي الخاص بمنتصف النهار، حين اجتذب مسامعه جَلَبة صادرة من الشارع المواجه لمنزله؛ كانت هناك مشاجرة عنيفة قد نشبت بين رجلين ثم تطوّرت سريعًا من مرحلة السباب والتراشق بالألفاظ إلى التشابك بالأيدي، وفجأة استلّ أحدهما سكينًا من طيّات ثيابه وطعن به الرجل الآخر طعنة نافذة إلى القلب ثم فرّ سريعًا من مكان جريمته. حدث كل ذلك على مرأى ومسمع من القاضي الذي كان لم يزل ممسكًا بكوب الشاي الساخن.

أسرع أحد المارة في الشارع محاولًا نجدة الشخص المطعون وأخذه إلى مستشفى قريب من مسرح الجريمة على أمل إسعافه، إلا أن الرجل لفظ أنفاسه الأخيرة بمجرد وصوله.

وبعد دقائق معدودات وصلت الشرطة إلى المستشفى واعتقلت الرجل المنقِذ ووجّهت إليه تهمة القتل؛ فكان جزاء الخير الذي حاول فِعله هو إدانته بتلك التهمة المشينة.

لعبت الصدفة والأقدار لعبتها إذ ساقت القاضي الذي شهد الواقعة من شرفة منزله ليكون القاضي الذي يتعين عليه أن يصدر الحكم في تلك القضية، فوجد القاضي نفسه متورطًا بين ما شاهده بعينه وبين أحكام القانون ولُعبة الأدلة والبراهين، ففضّل اتباع القانون الحرفيّ الجامد عن اتباع ضميره. وحيث لم تكن هناك أية أدلة تنفي التهمة عن هذا الرجل الفاعل للخير، اضطر القاضي إلى أن يحكم عليه بالأعدام.

وبمرور الأيام عانى القاضي من وخزات الضمير، وداوم على تانيب نفسه وتوبيخها على ما اقترفه في حق الرجل البريء الذي حكم عليه بالإعدام شنقًا بدون ذنب اقترفه. وحين وصلت معاناة القاضي أقصى مداها، وجافاه النوم تمامًا، قرّر الاعتراف بفداحة خطئه أمام الرأي العام حتى يريح ضميره ويرتاح.

وبالطبع ثار الرأي العام ثورة عارمة ضد هذا القاضي واتهمه بعدم الأمانة والتمسك الأعمى بنصوص القانون وخيانة روحه العادلة.

وذات يوم، حين كان ذلك القاضي ينظر في إحدى القضايا الأخرى، دخل محامي الدفاع إلى قاعة المحكمة ووقف أمام القاضي مرتديًا عباءة سوداء اللون على عكس المألوف والمتبّع حينها من مراسم التواجد في المحاكم الفرنسية.

فسأله القاضي متعجبًا : لماذا ترتدي هذه العباءة السوداء في قاعة المحكمة؟

فقال له المحامي: كي أذكّرك بجريمتك في حق العدالة وحكمك الغاشم على رجل بريء بالإعدام، أنا اليوم أرتدي هذه العباءة السوداء حدادًا على موت العدالة في فرنسا..!!

ومنذ تلك الواقعة أصبحت العباءة السوداء هي الزي الرسمي في مهنة المحاماة وانتقلت الفكرة من فرنسا إلى سائر الدول العالم الأخرى.

دارت تفاصيل هذه القصة في رأس «صبري» بلا توقف ولا هوادة، وساعدت على تعاظم شعوره بوخز الضمير، وتملّكه شعور جارف أنه ذاك القاضي الظالم الذي دنّس روح القانون السمحة بالسعي وراء تطبيق نصوصه المتحجّرة دون مراعاة لأي قيمة إنسانية أخرى. فكان كلما استرجع مشهد المحاكمة التي نصّبها لـ «عم حسّان»، كان يراه مرتديًا تلك العباءة السوداء بدلًا من جلبابه النوبي الأبيض، حدادًا منه على موت الإنصاف في قلوب الرجال.

شعر أن موقفه مشابه تمامًا لموقف القاضي، فكانت الليلة التي رأى فيها «عم حسّان» يبتهل محاربًا شيطانته المزعومة من فوق سجادة الصلاة بمثابة نصوص القانون الجامدة التي استند إليها حين أصدر حكمه النهائي على الرجل مُغفِلا تمامًا معرفته بالسيرة العطرة له وإخلاصه المثالي لميرات أسرة «جوليا»، فضلًا عن تعامله الشخصي المباشر معه وما لمسه بنفسه من طيبة الرجل ونقائه؛ تمامًا كما فعل القاضي الفرنسي حين تغافل عن مشاهدته لحقيقة الجريمة بعيني رأسه.

كان الحكم بطرد «عم حسّان» من الفيلا يشبه تمامًا حكم الإعدام الذي وقع ظلمًا على ذلك الرجل البريء، والذي كانت جريمته الوحيدة أنه تدخل في مشهد الجريمة من أجل فعل الخير وإنقاذ الرجل المطعون.

تلك الفيلا التي أضاع «عم حسّان» أغلب عمره بين أركانها يحرسها من أجل صاحبها الذي رحل عن دنيانا ومن أجل ابنته الفتاة التي لم يرها ولم يتأكد يومًا من أنها ستأتي لزيارة مصر، وأنّى له أن يعرف بقدومها بعد أن انقطعت كل سبل التواصل بينه وبين أي من ذويها؟ ولو أنه طامعًا في الفيلا وحريصًا على استعادتها مثلما اتهمه، فما الذي منعه طوال تلك السنوات الطويلة التي مضت، حين كان الشكّ في عودة

الفتاة إلى مصر طبيعيًّا ومنطقيًّا، من نقل ملكيتها لنفسه بموجب التوكيل العام الذي كان يملكه بين يديه طوال الوقت؟

ها قد رحل «عم حسّان» منذ تلك الليلة ولا أحد يعرف له طريقًا وبالرغم من ذلك لم تزل «جوليا» على حالتها تلك طوال الأسابيع الأخيرة؛ فتغدو يومًا في خير حال ثم تصبح غريبة الأطوار في اليوم التالي، فيصعب حقًّا توقّع ردود أفعالها، ولم يغيّر رحيل «عم حسّان» - أو بالأحرى طرده – من الحالة العصبية الغريبة التي تنتاب «جوليا» أحيانًا بدون سابق إنذار.

نعم، كان «عم حسّان» مُحقًّا حين قال أن «صبري» قد تتبّع سراب حواسه الخمس وأغفل سبيل قلبه الواحد، فصدّق ما شاهده ببصره وأنكر ما تعرفه بصيرته، حتى إنه لم يجلس مع الرجل ليسأله عن السرّ وراء ما كان يبتهل به في غرفته، ولم يعطه حق الدفاع عن نفسه كي يبرّر ويشرح، ولم يسمح له بأي متسع كي يضع عباءة المحاماة السوداء..!!

- هل مازال شاعرنا الكبير شارد الذهن؟

قطع السؤال حبل أفكار «صبري» الممتد بشكل مفاجئ، فالتفت إلى مصدر الصوت الذي كانت تعلو وجهه ابتسامة شديدة السماحة والحنو، فبادله «صبري» الابتسام وهو يقول:

- مرحبًا يا حضرة العمدة.

ربّت الأب على كتفي ولده بحنان وهو يردف:

- لا تقسُ على نفسك يا ولدي. ربما شاب تصرّفك بعض التسرع، لكنك فعلت ما فعلت بدافع حمايتك لـ «جوليا» وخشيتك عليها، ومن يدري؟ لعلّ ما حدث كان ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

بدت سمات التعجب على وجه «صبري» وهو يسأل:

- ماذا تعني يا أبي؟

- دعك مما أعنيه، فأنا أريدك الآن أن تلقي الأمر برمّته خلف ظهرك وترتاح داخل هذا الجلباب الصعيدي من كل توترات المدينة. لقد وعدتني حين وصولك اليوم أنك ستقضي الأسبوع القادم بأكمله معنا سعيًا إلى الاستجمام وهدوء الأعصاب، أليس كذلك؟

- بلى، لكن خبرني ماذا تعني بالله عليك، ربما تنير أمامي قنديلًا يساعدني على الوصول لهذا الهدوء المنشود. أنت لم تخبرني برأيك حين قصصتُ عليك ما جرى، وتعرف جيدًا أن لن يهدأ لي بال حتى أُخرِج «جوليا» ممّا هي فيه وأزيح الظلم عن المظلوم ولو كان الظالم هو أنا.

ضحك الأب ضحكة ذكورية متباهية وهو يقول:

- هذا الشبل من ذاك الأسد، أنت بالفعل وَلد أحمد أبو حجاج؛ عنيد ولا يهدأ لك بال حتى تكشف الستار عن الشر وتزيحه.

ثم اعتدل العمدة في جلسته متخذًا وضعية أكثر جدية كأستاذ يستعد كي يلقي درسًا على تلميذه النجيب، وتابع:

- اسمع يا ولدي، في رأيي الشخصي، وبعد كل ما أخبرتني به من تفاصيل، أرى أن «حسّان» ليس مذنبًا ولا يسعى للضرر، وليس مُسخِّرا للجن أو دجّالا يستخدم السحر لأغراض الأذى والشرّ، بل أراه ضحية أخرى مثله مثل «جوليا» تمامًا.

- وكيف هذا؟

- اللعنة آتية من المكان لا من السُكّان..!

تنبّهت حواس «صبري» جميعها:

- فسّر ما تقول يا أبي، أنا لا أفهم شيئًا.

- يا ولدي، الجن والإنس من خلق الله سبحانه وتعالى، وهم مكلفون ومحاسبون على أعمالهم، ومنهم المطيع القانط، ومنهم العاصي المارق. والجن من عالم الغيب الذي أخبرنا الله عنه في كتابه العزيز، فعلِمنا بهم وعرفنا عنهم بقدر ما ورد في كتاب الله عز وجل وفي سنة نبيه محمد صلى الله عليه

وسلم. وهم يسكنون بيوت الإنس، لكنهم يتمكّنون أكثر من البيوت الخربة الخالية من وجود البشر. وقد يؤذي الجن ساكني البيوت من الإنس، وليس لأذاهم صورة محددة، إلاّ أنه ورد في ديننا الحنيف بعض من تلك الصور؛ كالإحراق، وضرب الأبواب المفتوحة بعنف، فضلًا عن تواتر الأحلام المزعجة والكوابيس المفزعة لدى ساكني تلك البيوت، بل وأحيانًا ما نلمحهم لمحات خاطفة حين يتشكّلون في صور غير منتظمة، وأحيانًا نسمعهم كصوت الهلوسات، وقد يستمر هذا الأذى حتى يرحل السكّان ويهجرون منازلهم، بل قد يصل أذاهم إلى حدّ القتل كما في ورد في حديث لسيدنا النبيّ. وهذه الفيلا كانت خالية من سكانها لسنوات طويلة، وربما قد سكنها الجن وكانوا هم عُمّارها. وإذا صحّ ذلك فلا بد أن عودة «جوليا» إلى الفيلا لا تروقهم، خاصة مع كل تلك التغييرات التي أحدثتها في أركان الفيلا، فشرعوا في مسّها بالضر والأذى حتى ترحل وتترك الفيلا، ولا بد أنهم فعلوا المثل مع «حسّان».

استمع «صبري» لأبيه في صمتٍ وهو يحاول ربط الأمور في عقله، ثم مطّ شفتيه وقال:

- يبدو الكلام منطقيًّا من الناحية النظرية بالطبع، لكنك تعرفني يا أبي، فأنا لا أميل لتصديق مثل تلك الأمور الغيبية، ولولا أني رأيت «عم حسّان» يفعل ما فعله في غرفته ما كنت

ربطت كل تلك الأحداث بعالم الجن ودروبه بالأساس.

- يا ولدي هذا العالم أوسع بكثير من عقولنا، ونحن ندرك فقط مادياته المجردة أو مايوافق حيز الأفكار المحدود الذي يسمح به المنطق لدينا.

فرك «صبري» رأسه في إشارة إلى أنه قد بلغ أقصى درجات حيرته:

- وماذا أفعل يا أبي مع تلك الأمور خارجة عن السيطرة؟

ابتسم الحاج أحمد في وجه ولده ابتسامة مُطمئِنة وهو يجيبه قائلًا:

- ليس هناك أمر خارج عن السيطرة؛ كل ما عليك فعله الآن هو أن ترتاح هذا الأسبوع من كل تلك الضغوط، وسوف أخبرك كيف سنقوم بالسيطرة..!!

***

(٥ / ٣ / ٢٠١٥)

الرقم خمسة (٥) هو الرقم الذهبيّ، وعلى أساسه ارتكزت الهندسة المعمارية وحساباتها منذ زمن الإغريق، وفي الولايات المتحدة الأمريكية يشير مخمس الزوايا «البنتاجون» إلى القوة العسكرية للولايات المتحدة الأمريكية. (035)

إن ضحكة الشيطان رنانة

والذي يخدم السيد سيخلّصه من الجحيم

الهجوم...الهجوم

سادة الكـون توّجوا أرواح الشيطان هناك وهنا

أظهروا أنفسكم وتولوا حكم الأرض، إن لكم الميثاق الدائم

لا ترهبكم قـوة الملائكـة، لا يجب أن ترهبكم أبدًا

لأنه لا شيء يوقف العاصفـة، هكذا أخبرنا رئيس الجحيم

اقتحموا البوابات...

ها هو قادم وسيحرر أتباعه من قوة الجحيم

تحرر من هذا الجيل من كانوا هم عبيدًا لدين أو لرسالة

تحرروا محطمين الفردوس الملعون

تتقدم الجيوش القوية وستحطم البوابات وتدخل حرة.

إن ملكنا ملك الجحيم يجب أن يعود إلى العرش..!!

التفّت أشجار الصنوبر المرتفعة حول القصر الذي يقبع فوق صدر صحراء الطريق المؤدي إلى مدينة الإسكندرية، فأخفت أيًّا من آثار الاحتفال الهائج الذي يدور بداخله عن عيون القمر المكتمل لتلك الليلة، وسمحت عزلة موقعه لروّاده بالخصوصية التي يحتاجونها لممارسة طقوسهم الشاذة.

تعالت كلمات تلك الأغنية الملحدة، الخاصة بمن يطلقون على أنفسهم «عبدة الشيطان»، بصوت شديد الصخب من مكبرات الصوت الضخمة والمنتشرة في أركان المكان الشبيه بعلب الرقص الأمريكية، إلى جانب أغنية أخرى من أغاني فريق «بلاك ميتال» الشهير، ولم يتوقف عنف إيقاعاتها طوال تلك الليلة، وقد صاحب النغمات المجلجلة والكلمات الإبليسية لتلك الأغنيات رقصات هيستيرية لمجموعة من الشباب غريبي الهيئة والأطوار، يرتدون جميعًا ثيابًا سوداء اللون، وتنتشر الأوشام المتطرفة على أجسادهم، بل وكان بعضهم يضع الأقراط الفضية في آذانهم وأنوفهم، وتلتف حول أعناقهم قلادات ضخمة تنتهي بنجمة خماسية تحمل في داخلها صورة كبش مخيف الشكل. وساعدهم على الانخراط

في تلك الطقوس الاحتفالية العبثية انتشاؤهم جرّاء تدخين نبات المرجوانا المخدر، وترنحهم مع قرع كؤوس أنواع الخمور المختلفة، فضلًا عن الأقراص الكيميائية التي تُذهب العقل وتُحفّز الخيالات المضللة والهلوسات الجانحة، فباتوا جميعًا أشبه بقطيع من الثيران الأمريكية الجامحة يتحركون بل توقف ولا كلل.

في زاوية من زوايا القبو القاتم لهذا القصر حيث تندلع تلك المراسم الموسيقية الجنونية جلست «جوليا» أمام منضدة لا يشاركها فيها أحد، ترتدي فستانًا ضيقًا ومثيرًا أسود اللون، وكأنها بدأت مؤخرًا في التآلف مع هذا اللون واعتباره شريكًا جديدًا لحياتها، وهي التي لطالما كرهته ومنعته من لمس جسدها أو روحها من قبل.

الصدفة وحدها هي ما ساقتها كي تتواجد في ذلك الحفل. حدث ذلك منذ ليلتين حين شعرت بملل كبير بعد ساعات الرسم الطويلة فقرّرت – أو ربما وجدت نفسها مرغمة على - الذهاب منفردة للسهر في أحد أندية الموسيقى الليلية. وهناك، وبوجودها دونما رفقة، حاول أحد الشباب التودّد إليها طوال تلك السهرة، وحين استجابت لمحاولاته أخيرًا وتعرّفت عليه وقبلت دعوته على الشراب، قدّمت له نفسها باسم مستعار وأخبرته أنها سائحة إنجليزية قادمة من مدينة

ليفربول في زيارة قصيرة لمصر، وبالطبع ساعدتها هيئتها الأجنبية وطلاقتها الإنجليزية على خداعه وإقناعه بذلك. وفي نهاية السهرة، حين قرّرت الرحيل، حاول الشاب أن يقنعها باستكمال تلك الليلة في منزله إلا أنها رفضت فكرته تمامًا وتعلّلت بأنها لا تحمل خط هاتف محمول مصريّ حين طلب رقم هاتفها. وحتى إنه حاول أيضًا أن يعرف محل إقامتها في القاهرة بأن عرض عليها أن يقلّها بسيارته إلى منزلها، لكنها أخبرته أنها مقيمة مع صديقة ألمانية تعيش في حي المهندسين وأنها ستعود في سيارة الليموزين التي تنتظرها بالخارج. وحين ضاقت كل السبل عليه كي يحظى بوقت إضافي معها قرّر المخاطرة ودعوتها إلى حفل سريّ كان من غير المسموح على الإطلاق أن يفشي بأمره لأحدٍ، وأخبرها أنه أحد الروّاد ذوي الحظوة في حفلات تُقام بشكل شديد السرية في أحد القصور المنتشرة في طريق القاهرة الإسكندرية الصحراوي. واضطر أن يكشف لها الطبيعة المختلفة لتلك الحفلات من أنها نوع من مراسم عبادة الشيطان، وأن مجموعته من عبدة الشيطان هي مجموعة مغلقة تتخذ أعلى درجات الحيطة والحذر حتى لا يتسرب أمرهم خارج المجموعة. وأضاف أن وجودها في الحفل لا يمثل خطرًا عليهم كونها ليست مصرية، بل وأنه سوف يخدعهم بادعاء أنها أيضًا من أتباع طائفتهم في انجلترا.

وبعد الإلحاح الطويل من جانب الشاب وتأكيده على أن الأجواء المتحررة لذلك الحفل سوف تثير إعجابها، قبِلت «جوليا» دعوته وسجّلت عنوان القصر المزمع إقامة الحفل فيه، ووعدته بأنها سوف تذهب إلى الحفل بسيارة ليموزين، رافضة عرضه بأن يُقلّها إلى القصر.

كان تواجدها في هذا النادي الليلي وقبولها لدعوته أمرًا لا يعود كُليّةً لإدراكها الواعي، وإنما كان أغلبه يتم بدون إدراكٍ كامل منها. كانت أشبه بالعلامة التجارية للسيارات الميرسيدس؛ دائرة مُقسّمة إلى ثلاث قطع متساوية: التسيير والتخيير والمزيج بينهما..!!

اقترب منها هذا الشاب يحمل في يديه كأسين من الفودكا الممزوجة بعصير البرتقال، وقدّم لها أحدهما ثم جلس ملتصقًا بها واقترب من اذنها كي تسمع ما سيقوله برغم صخب الموسيقى.

سألها بإنجليزية بسيطة:

- هل يعجبك الحفل؟

اقتربت منه بدورها كي تجيبه فشعر بدفء أنفاسها يلفح وجنته:

- نعم، يعجبني جدًّا. خشيتُ أن يكون حفلًا شعائريًا تقومون

فيه بذبح قربان أو ما شابه؛ فأنا أخشى لون الدم كثيرًا.

قهقه عاليًا وأجاب:

- تقصدين ما نطلق عليه «القدّاس الأسود». لا تخافي فهذا القدّاس يستلزم طقوسًا أخرى تختلف تمامًا عما تشاهدينه الآن. أما حفلنا الليلة فهو حفل دوري تلتقي فيه مجموعتنا لتوطيد الأواصر ولقضاء بعض الوقت في اللهو المطلق.

- أيوجد لهو أكثر مما يحدث الآن؟

ضحك مرة أخرى وهو يغمز بعينه ويقول:

- بالطبع يوجد، بعد وقت قليل ستشاهدين كيف سيتمزج الجميع في كيان المتعة والتلذّذ.

فهمت مغزاه، فاكتسى صوتها بالجديّة:

- أرجوك لا أحب أن أكون موجودة إذا اختلط الحابل بالنابل وبدأت شعائركم الجنسية الجماعية، لقد قرأت عنها وأعرف كيف تنجرفون وراء الإباحية اللامتناهية. من الأفضل لي أن أرحل الآن إذًا.

قالت «جوليا» وهمّت بالقيام فأمسك بيدها ودفعها إلى الجلوس مجددًا، ثم سألها ببعض الدهاء:

- وماذا عن التنعّم ببعض الخصوصية؟

نظرت في عينيه اللتين أسكرتهما رغبته في النيل من جسدها وابتسمت في دلالٍ:

- بلى، أُفضّل ذلك!

خطف الكأس منها على الفور وكأنه كان ينتظر هذه الإشارة، فوضعه فوق المنضدة بجوار كأسه، ثم جذبها من يدها كي يساعدها على النهوض، وقادها في خطوات سريعة للخروج من باب القبو ثم صعد بها عبر الدَرَج إلى الطابق الأعلى للقصر حيث صمتت الموسيقى وحلّ السكون المطبق. فتح الشاب باب إحدى الغرف المغلقة ودفعها برفق إلى داخلها. وبمجرد دخولها إلى الغرفة شعرت «جوليا» برهبة عارمة تسري في أوصالها.

كانت جدارن الغرفة مطلية تمامًا باللون الأسود، وتنتشر الشمعدانات النحاسية في كل جوانبها فتُمعِن موجات الإضاءة المرتعشة من ترسيخ حالة المهابة والخوف. وفي منتصف الغرفة تمامًا قَبَع فراش نحاسي كبير من الحجم الملكي، وفوق الجدار من خلفه كانت صورة لرأس كبش يحمل ملامح قاسية تبعث على الفزع، وفوق الجدار المواجه للفراش عُلِّقت بردية فرعونية خُطّت عليها كلمات بلغة لم تفسّرها «جوليا»، وبَدَت لها وكأنها اللغة اللاتينية.

لم تشعر بالشاب وهو يجذبها نحو الفراش ويلقيها برفق

فوقه، ولم تشعر بجسده الذي سقط فوقها من سقف الرغبة، ولم تلتفت على الإطلاق لتوق قبلاته التي انهالت فوق رقبتها وشفتيها كزخات مطر موسمي؛

كانت مستغرقة تمامًا في نُعاس إرادتها وانفصالها الجزئي عن واقعها، وهي تسأل المرأة في صمت:

- ولماذا هذا الشاب؟

- هل سنعود للأسئلة من جديد؟! حسبت أننا انتهينا من هذا الهراء!

- أعني أنه يعبد السيّد، فلماذا نقطف زهرة من بستانه.

- لأنها زهرة سامة، دخلت بين الزهور الأخرى طمعًا في البستان لا طمعًا في رضا السيّد.

- لا أفهم ما تعنين.

- ليس مهمًا أن تفهمي، عليكِ بطاعتي فحسب، فأنا أمك التي تهبُكِ مجدها، وتُدنيكِ روحًا بعد روح من بوابة الخلود يا فتاتي.

- وأنا أصبحت خادمتك.

- هذا الشاب لم يؤمن بالسيّد قط، وانضم لزمرة التابعين هنا كي ينعم معهم بملذات الشراب والرقص والجنس فقط. وعلى

الرغم من كل ما يفعله من كبائر وموبقات إلا أن الإيمان لم يزل يحتل أجزاءً من روحه. نحن لم نمتلك قلبه، ولن نفعل. هل تفهمين الآن لماذا هو بالتحديد يستحق أن يُقطف من بستاننا الأسود؟

- بلى، فهمت.

- هيّا إذًا، فلنجعله زهرتك الثالثة، وسوف تبارك صورة السيد من فوق رأسك قطفتك الجديدة.

أفاقت «جوليا» من غيابها القصير لتجد الشاب قد شدّ سحابة فستانها وكشف عن صدرها تمامًا وانهالت قبلاته الحارة فوق نهديها، فنظرت لعينيه الراحلتين إلى مملكة الشهوة وتركته يعوث في صدرها لثمًا بينما تسلّلت يمناها لترفع ذيل فستانها حتى أعلى فخذها حيث كان سكّينها الحربي يربض داخل غمد جلديّ لفّته بحزام مثبت حول فخذها على طريقة رعاة بقر الغرب الأمريكي قديمًا، فاستلّت سكّينها ورفعته عاليًا لتهبط به بقوة على مؤخّرة عنقه وصنعت صنيعها المعتاد بجعل السكين يحشّ كل جذور الزهرة حين خروجه من أرضها، ثم ألقت الشاب إلى جانبها وضربته ضربة أخرى نفذت بها إلى قلبه بينما كان يحاول هو سدّ شلال النزيف المندفع من مؤخرة عنقه قبل أن يستكين تمامًا بعد ثوانٍ قليلة فوق ذاك الفراش الشيطاني.

نهضت «جوليا» من جواره وراحت تزيل آثار الدماء التي طالت جسدها، ثم هذبّت شعرها وفستانها، وسمعت صوت المرأة يتردد داخل رأسها من جديد، لامحة ظلال وجهها المخيف يتشكل فوق الجدار الأسود الذى يحمل البردية الفرعونية.

- أحسنت يا فتاتي، ها قد حولنا ليلة الأحباء هنا من ليلة عادية إلى ليلة «القدّاس الأسود» (034) بل جعلناها ليلة «القدّاس الأحمر» وأدخلنا البهجة إلى عرش النار والسرور إلى نفس السيّد.

ثم ازداد صوت المرأة عُمقًا وصدى وهي تردف:

- أما الآن، فهذه البردية المعلقة أمامك فوق الجدار تحتوي على الوصايا التسع؛ الوصايا التي يجب عليكِ إدراكها والعمل بها عمّا قريب.

نظرت «جوليا» صوب البردية المُعلّقة فوق الجدار الأسود وهي تستمع إلى صوت المرأة يتلو عليها بذات الصوت الذي يخترق قلبها ويسيطر على كل كيانها تلك الوصايا التسع:

١. أطلقي العنان لأهوائك وانغمسي في اللذة.

٢. اتبعي السيّد، فهو لن يأمرك إلاّ بما يؤكد ذاتك.

٣. السيد يمثل الحكمة والحيوية غير المشوّهة، وغير الملوثة،

فلا تخدعي نفسك بأفكار زائفة سرابية الهدف.

٤. أفكار السيد محسوسة وملموسة ومرئية ولها مذاق، وتفعل بالنفس والجسم فِعل الترياق، والعمل بها فيه الشفاء التام للحواس الخمس.

٥. لا تتورطي في الحب، فالحب ضعف وتخاذل وتهافت.

٦. السيد يمثل الشفقة لمن يستحقونها بدلًا من مضيعة الحب للآخرين وجاحدي الجميل.

٧. انتزعي حقوقك من الآخرين، ومن يضربك على خدك، فاضربيه بكلتا يديكِ في كل أنحاء جسده.

٨. لا تحبي جارك.

٩. لا تتزوجي، ولا تنجبي، ولا تكوني وسيلة بيولوجية للحياة وللاستمرار فيها، كوني لنفسك فقط.

ظلّت تلك الوصايا تتردد في رأسها بلا توقف أثناء رحلة عودتها في سيارة الليموزين حديثة الطراز، من ماركة ميرسيدس بنز الألمانية..!!

***

قال رسول الله ﷺ: مفاتيح الغيب «خمس» لا يعلمهن إلا الله، ثم تلا الآية: إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ. (033)

تحرّكت مجموعة من خمسة أشخاص في خِفّة تشبه الركض تحت الأضواء التي يرسلها صحن القمر المكتمل في سماء تلك الليلة، وواصلوا السير بين الأزقة الترابية الضيقة التي تمر بين مجموعة المدافن المصطفّة في هذا الجزء المنعزل

عن المدينة حتى أدركوا أحد المدافن الموجودة على الأطراف.

كانوا ثلاثة رجال وامرأتين؛ الساحرة و «ريم» وحارس المدافن ورجلين من معاوني الساحرة، وما إن اقترب الجميع من ذلك المدفن المغلق بباب حديديّ ضخم حتى أخرج الحارس سلسة تحمل الكثير من المفاتيح من جيب جلبابه ودسّ أحدها في قِفل الباب ففتحه على الفور، ثم أشار للآخرين بالدخول سريعًا إلى الفناء الداخلي للمدفن.

وفي الفناء، أضاء رجل من معاوني الساحرة كشّافًا كبيرًا كان يحمله في يده، ووجّه الضوء تجاه الغطاء الرخامي الذي يسدّ السلم المؤدي إلى القبر الكائن في منتصف الفناء، ثم شرع ثلاثتهم في إزاحته سريعًا باستخدام أدوات في حوزتهم بشكل يدل على خبرة كبيرة سابقة في التعامل مع أمور كتلك. وبمجرد رفع الغطاء الرخامي عن مدخل القبر حتى نظر الرجال للساحرة في انتظار أوامر أخرى منها.

نظرت الساحرة إلى «ريم» التي كانت ترتجف بشدة ولقد شحب لونها حتى بات يحاكي لون سكّان تلك القبور، ثم أشارت لها باتجاه سلم القبر وهي تقول:

- يوجد في الأسفل امرأة تم دفنها في منتصف نهار أمس. أريدك أن تهبطي بنفسك وتضعي السحر الذي صنعناه بين

ثنايا كفنها.

ارتجّت نبضات قلب «ريم» وزاد ارتجافها وهي تقول كمن يهذي:

- أنا؟ كلا.. لا.. مستحيل! لن أستطيع فعل ذلك أبدًا!

قبضت الساحرة على كتفيها بقوة:

- لا تخافي! سيكون الرجال بجوارك، ثم إنني جئت بك إلى هنا من أجل هذا السبب تحديدًا، ولن يكتمل مفعول السحر بدون ذلك.

- لكنكِ لم تخبريني بأنني سأضطر للقيام بهذا الأمر، وكل ما ذكرتِهِ لي أن وجودي معكم سوف يزيد من قوة السحر كوني صاحبة الشأن، أما الهبوط إلى الأسفل والتعامل مع جثة مدفونة فمستحيل بالطبع؛ أنا بالفعل على وشك الانهيار وقدماي بالكاد تحملانني!

شددت الساحرة من ضغطتها على كتفي «ريم» وهي تقول بصوتٍ ثابتٍ:

- اسمعي! من يسعى إلى الشرّ لا بد أن يشارك في صناعته بيديه، فهذا يزيد من تأثيره ويقوّي ضربته. عليكِ أن تثبتي الآن لأرواح الأسياد من حولنا كم تريدين هذا الرجل حتى تغتنمي تأييدهم ومساعدتهم.

- لقد جئت إلى هنا بالفعل كي أثبت ذلك، وتخيّلتُ فقط أنكم سوف تقومون بدفن السحر في تراب الممرات بين المدافن، ولم أتخيل أبدًا أن الأمور سوف تؤول إلى ما نحن فيه الآن.

- هناك سحرة آخرون يكتفون بهذا الحدّ الذي ذكرتِه، أما أنا فأصل بالأمر إلى منتهاه حتى أضمن حلول شرّه وحدوث كربه ضمانًا لا يشوبه الشك. ما سنفعله الآن هو أشد أنواع السحر فتكًا، فالأسياد لا يحبون التواجد في المقابر كثيرًا لأنهم يسعون إلى الخلود بينما الموت حائل في طريق هذا المسعى. لذا فإنهم ينفذون أوامر السحر بالتفريق والشتات تنفيذًا صارمًا لا هوادة فيه، خشية أن يعلقوا بين الموتى داخل قبورهم. وحتى نزيد من سطوة الأمر سوف ننثر بعضًا من ماء اغتسال الموتى فوق السحر بمجرد دفنه بين طيات الكفن، وهكذا لن يستطيع إنس ولا جان إيقاف شرور مفعوله أو تخفيف وطأة قوته.

بلغ انفعال «ريم» مبلغه بعد استماعها إلى كل تلك التفاصيل المرعبة فانهمرت في البكاء صارخة:

- كلا.. لن أستطيع فِعل ذلك، أريد الرحيل من هنا الآن!

دفعتها الساحرة دفعة قوية إلى الخلف نحو الرجال

المنتظرين وهي تقول زاجرة:

- لا يوجد وقت لهذا الهراء! هيا خذوها للأسفل.

تقدّم الرجال من «ريم» وسحبوها من كتفيها بالقوة وأنزلوها مرغمة إلى بطن القبر وتبعتهم الساحرة إلى الأسفل ثم ناولت السحر إلى «ريم» المرتعبة الباكية التي كانت تتمايل كبنودل ساعات الحائط من أثر ارتعادها.

أمسكت الساحرة بحفنة من تراب القبر وهالته فوق رأس «ريم» وهي ترتل بصوت خفيض:

- ما الليلة إلا فرقة بين «جوليا» و «صبري». يا أعوان يا أعوان، هيَّا نلقي بينهما العداوة والبغضاء، نوقد نارًا لا تنطفئ، ونباعد بين قلبيهما كما يبتعد الشرق عن الغرب، ونلقي المقت في نفسيهما فلا يتحابّان بعد اليوم ولا يجتمعان حتى تُمطر السماء الوحل وتنبت الأرض الرصاص، فيكون الدرب بينهما مفروشًا بالمسامير ونباتات الشوك، ويكون صوتها في أذنه كصوت الكلب وصوته في أذنها كصوت الذئب...!!

***

صديقتي...

هل يبدو الأمر كما تدّعين أو كما يدّعي مروجو عِلم العلاج بالطاقة، أو كما جاءنا منذ ما يزيد عن الثلاثة آلاف عام قبل

الميلاد في فلسفة (الين واليانغ)(032) الصينية، أو حتى كما تخبرنا به الفلسفات الصينية الأخرى مثل فلسفة (الفينج شوي)(031)؟ هل تعود كل الطاقة المسيطرة علينا حقًّا إلى التفاعلات التي تحدث حولنا وداخلنا بين العناصر «الخمسة» المكوِّنة للوجود كما تُرسِّخ تلك الأفكار والفلسفات؟ هل لا تعدو حياتنا بأسرها وبكل متغيراتها من أفراح وأتراح، ومن صلاح وطلاح، كونها حزمة من النظريات المؤسَّسَة حول تلك العناصر الخمسة؟

تزعمين كما تزعم كل تلك الفلسفات أن العناصر الخمسة المكوّنة للوجود؛ وهي الماء والخشب والنار والتراب والمعدن هي الأساس الذي بُنِيت عليه كل مفردات وجودنا في الحياة، وأن كل عنصر من هذه العناصر يولّد عنصرًا آخر ويهدم أو يكسر آخر، وأن تلك العناصر قد تم تقسيمها من حيث الإيجاد على هذا النحو (فالماء يولّد الخشب، والخشب يولّد النار، والنار تولّد التراب، والتراب يولّد المعدن، والمعدن يولّد الماء).

فيما كان تقسيم ذات العناصر من حيث الهدم أو الكسر بهذا الترتيب (الماء يهدم النار، والنار تهدم المعدن، والمعدن يهدم الخشب، والخشب يهدم التراب، والتراب يهدم الماء).

إن هذه النظرة للكون تتلخّص في كونه كُلًّا منتظِمًا فاعلًا بذاته، ولم يظهر نتيجة إرادة أو سُلطة عليا خارجة عنه، وإنما

نشأ بشكل عفوي نتيجة لحركة وتفاعلات مستمرة ضمن نمط كوني منتظم، أو ما يعرف بقانون الـ (طاو)(030).

هذه النظريات والفلسفات والقوانين تُألّه الطبيعة وتفترض أن الوجود شيء كُلّي واحد، وتُنكر وجود إله فوقي خلق تلك العناصر الخمسة وترك لنا حريتنا الكاملة للتفاعُل معها وترتيبها بما يتناسب مع أولوياتنا المطلقة.

صديقتي...

الحق أقول لكِ إن هذا يخالف روحانية الخيال الذي يدبّ في حشايا روحي، وينافي شفافية النبع الذي أرتوي من مائه. فعناصركم الخمسة كلها بالنسبة لي مردودة لمَعِين واحد، وكلها آتية من مصدر لا يفنى ولا يُستحدَث، وكلها جواهر قد أهداها لنا وفاض بها علينا ونعّمنا بوجودها إله واحد تعود إليه تلك العناصر.

الواحد يتجلّى في الخمسة, والخمسة من صُنع الواحد..!

تلك الوحدوية التي آمنتُ بها فقادتني للكشف عن العنصر الوحيد الذي يتحكم في طاقاتنا وذبذبات أرواحنا، ولأنه الواحد المتعالي فلقد جعل للحياة عنصرًا واحدًا أيضًا يُمسك بدفتها ويرشدنا إلى الطريق الصواب المؤدّي إلى نهر الخمر والعسل.

إنه الحب يا صديقتي!

الحب هو العنصر الوحيد الذي يستطيع التحكّم في طاقتنا وتحديد شكل علاقتنا بأنفسنا وبعالمنا المحيط، وهو ليس بالعنصر المادي مثل عناصركم الخمسة، بل هو عنصر مجرد ساميّ زرعه هذا الخالق الواحد المُتجلّي في نفوسنا ليكون أداتنا في التحكم في كل الطاقات الأخرى التي تحاوطنا، إنه العنصر الذي لا يُمَسّ باليد ولا يُرى بالعين ولا يخضع لمعادلات رقمية ولا لنظريات نتحقّق منها في المختبرات.

الحب هو أصل الطاقة ومُفاعل استمرار الحياة..

وللحب أيضًا فلسفاته الكثيرة ونظرياته المُشّعة في قلب كل محبّ..

وهكذا حالي! لديّ أيضًا فلسفتي الخاصة عن الحب وربما هي الأقدم من كل فلسفاتكم الصينية، فلسفتي التي انفردت بها عن غيري واكتفيت بها لنفسي فلم أنشرها ولم أذِعها حتى لا يقول المشغولون بماديات الحياة أن الرجل قد فقدَ صوابه.

لكن، ما المانع الآن؟! فليقولون عني مجنونًا أو أحمقَ أضاع عقله في البحث عن السراب، واتبّع الندّاهات حتى رحل إلى بلاد الدخان. وحتى إن وافقتِهم أنتِ، ما عادت تضيرني كل تلك الاتهامات، وماعادت تعنيني نظرات الشماتة أو الشفقة،

قوّاني الحب وشدّ عود مشيئتي، وصعد بروحي إلى سحابات السلام والسكينة، فدعيني أُفشي لكِ سري، ودعيني أنقل لكِ فلسفة إيماني، لعلك تلمحين الضوء القادم من نهاية السرداب.

صديقتي، هذا أنا..

أنا الحب الذي يتجلّى في نفسي وينكشف من موجات صوتي وانعاكاسات الضوء فوق مُقلتيّ ويُشكّل اتجاه الريح حول محيط الجسد الذي أسكنه.

أنا الحب الذي يمثّل أعلى درجات الكشف، حيث النظرة لا تصدر من العين بل من الروح، وحيث الرؤية تصل لعمق الذات لا لسطحها فحسب.

الحب الذي إن تكشّفت أسراره لروحك تكون النفس كصندوق الكنز حين نفتحه بحرص وترقّب، فنجد سلاسل الذهب والمرجان ونعرف أن للأعماق بريقًا كضياء الشمس وكُنّا نحسب أن كل الأعماق السحيقة نائمة في الظلام الدامس.

الحب الذي يأتيني بتذكرة سفر من الفئة الأولى، ويسافر معي لجزر لم ترسمها خرائطكم، ولم يكتشفها البحّارة ولا القراصنة، حيث نطلق على كل جزيرة منهن اسمًا جديدًا يليق بطقسها المُشمِس، ونتباهى سويًّا بخريطة خيالنا الفضية.

الحب هو الميثاق الذي لم يُكتّب، وهو العهد الذي لم تطوله أحبار الطباعة، وهو المعنى لمن يبحث عن الأصول، وهو المغزى لمن لا تشغله محركات البحث ولا أسلاك الكهرباء.

الحب هو الخلاصة، وهو الفكرة الأم لمن لا تأخذه الصور الظاهرة الباهتة التي لا حياة فيها ولا حراك، هو اللون الأبيض الذي يكشِف لكم كم أضعتم من أزمنة تُمجّدون فيها لونكم الأسود وتصنعون حوله الأساطير وحكايات الزيف.

الحب هو السمو والترفّع والتجرّد، وهو الأداة الوحيدة التي تقهر الأنانية والأثرة، وتمزج الذات بالذوات الأخرى في بوتقة دفقُها نافع ومبارك ينتج الخير، تنصح وتُشفِق وتطيّب الخواطر...

الحب هو التحضّر والتمدّن والتخلّي عن البدواة والهمجية والوحشية، وهو السلوك الذي يرتقي بغضبات التكبر والعنجهية ويأخذها لميناء الحكمة والترفّع فتجد سفن المشاعر سبيلها إلى الليالي الآمنة في مرفأ الحياة.

الحب لغة الأرض الأم التي لا يقرأها ولا يعرفها الجميع، ويعجز عن صياغتها المتملقون، وتعصى مفرداتها على المتحجّرين؛ هي اللغة التي نحتاج فيها إلى مفردات صفاء النفس وكلمات القلوب العامرة بالنور، تُحلّق فيها بنات الأفكار الجذّابة، فتنثر القطوف المباركة حتى تمتد اليد الجَذِلة إلى

الروح لتتلقّف الثمر اليانع الطيب.

الحب هو اجتماع كل عناصركم الخمسة في كيانٍ واحدٍ.

فالماء دمعة حرّكها الشوق وبخرّها اللقاء، والخشب مركب من أشجار الكافور تتمايل في رحلة نحو برزخ قُبلة الحبيبين، والنار مدفأة حطب تُبارِك عناق ليلة شتوية، والتراب هو المصنع الطبيعي الذي نمت فيه ثمرات قائمة طعام العشاء في مطعم كلاسيكي، والمعدن خاتم وتتويج لقصص العشق المباركات.

صديقتي..

هناك في الأعالي، حيث ينظر الإله الواحد من فوق عرشه السماوي إلى لُبّ الأرض ومركزها، وحيث يُرسِل رسالته الأعظم إلى القلوب الصالحة، تأتي البُشرى لمن نقّى روحه وأهّل قلبه لها «هناك واحد مقتدر يباركنا بعنصر واحد؛ عنصر الحب»!

وهناك في الأسافل حيث يقبع عرش الشرير فوق سعير النار، وحيث يرسل رسالته الدنِسة إلى القلوب الضائعة، فيحلّ التيه على من ترك روحه خَرِبة مُحطّمة، «هناك السيد الغاضب يباركم بين متاهة العدد وأرقام السخط»!

صديقتي الصينية..

وهنا ارتفع فجأة رنين الهاتف المحمول فمنع «فاروق» من أن يكمل ما كان يكتب، فتحركت أصابعه من فوق لوحة مفاتيح الحاسوب إلى لوحة مفاتيح الهاتف لقبول المكالمة فأتاه صوت «صبرى» يسأله:

- أمازلت مسيتقظًا أيها الرجل الليليّ؟

ضحك «فاروق» لهذا الوصف، وأجاب:

- كلّنا هذا الرجل يا صديقي. كنتُ مستغرقًا في كتابة جزء اخر من كتابي الجديد «رسائل إلى صديقتي الصينية»، وهو الجزء الذي أردّ فيه على فلسفة العناصر «الخمسة» في الصين وشرق آسيا.

- ماذا حلّ بكم جميعًا؟! هل صار الجميع مشغولًا بالرقم خمسة؟! وهل هَجَرْتَ رواياتك المرعبة وصرتَ مشغولًا بالفلسفة؟!

- حسبتُ أن الأيام الخمسة الماضية التي قضيتها في بلدتِكم سوف تهدّئ من انفعالاتك وتعيد إليك بعض السكينة، لكن نبرتك لم تزل عصبية وحادّة!

- عُذرًا يا «فاروق» لا تؤاخذني، لكنني فجأة وبعد أن صلّيت صلاة الفجر شعرت بعصبية مفرطة وغير مبرّرة وكأن هناك من سبّني واستفزّني للشجار.

حاول «فاروق» أن يداعبه:

- هل مسّك أنتَ الآخر سِحر؟

- «فاروق»، سوف أتركك لرسائل صديقتك الصينية ويكفيني ما أشعر به من عصبية وضيق. سوف أتصل بك غدًا إن شاء الله في كل الأحوال بمجرد وصولي إلى القاهرة. تصبح على خير!

***

(٦ / ٣ / ٢٠١٥)

تدل رؤية الرقم خمسة في الأحلام على أن الشخص مُرتاب في دينه أو منصرف عن الإيمان ومنجرف لعالم الغيبيات، لقوله تعالى «وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ» وقد يدل على فرقة بين الزوجين، لقوله تعالى «وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ»(029)

- في تلك الأثناء تملّكت من نفسي الكآبة وصار النوم لأربع ساعات متواصلة فحسب هو الأمنية التي أدعو الله ليلة بعد الأخرى كي أنولها، كنت أظنّ نفسي وحيدًا فاختبرت المعنى الحقيقي للوحدة كما لم أعهدها من قبل، وكما لم تصل إليه أكثر خيالاتي سوءًا؛ الوحدة التي تقود لبدايات الجنون، أو هكذا ظننت. كانت الساعات تمضي وأنا مستمر في الكلام مع الصورة المعلّقة فوق الجدار، تعلو ضحكتي تارة على نكتة أنا الذي تمتمت بها لنفسي، وتلمع عيناي بالدموع تارة أخرى على ذكرى سريعة جعلتها بإرادتي تلامس خاطري وتوقظ في داخلي الشجون.

حاولت أن أجد السلوى بين يدي الطبيعة وتصوّرتُ أن تلك الكائنات الخضراء الجميلة تُمثّل الرفقة والصُحبة لوحدتي، لكن وبمجرد أن تُعلِن الشمس

عن رحيلها من بوابات السماء وتُسلّم كائناتي الخضراء روحُها إلى أيادي النوم وتبكي على حالها مثلي بدمعات من قطرات الندى، فكانت وحدتي تعود من جديد لتحاصرني وتحاصر جدارن غرفتي الصغيرة وتُمعِن من ضيق مساحتها.

ولم تشفع محطة القرآن الكريم وصوت السيدة أم كلثوم لي أمام موجات الغمّ العاتية ولم ينجحا في تهدئة صرصرات رياح الحزن مثلما كانا يفعلان فيما سبق.

حينها عقدتُ العزم على البحث عن شريكة، وقررتُ أن أتحيّن الفرصة المناسبة كي أعود إلى بلدتي التي انقطعت عن زيارتها لسنوات طويلة فأختار عروسًا مناسبة من بين فتيات الأهل والأقرباء، علّني حين أصحبها معي إلى القاهرة أجد في رفقتها راحة البال وهدوء النفس.

ولكن بمجرد وصولي إلى هذا القرار بدأت مصيبة حياتي..

في يوم من ذات الأيام دخلت غرفتي مُتعبًا ومُنهكًا بعد ساعات عمل طويلة تحت أشعة الشمس الحارّة، فأخذتُ حمّامًا باردًا ثم جلست أستمع لصوت أم كلثوم تشدو «عرفت الهوى مذ عرفت هواكَ» إلى أن غلبني النعاس فغفوتُ تلك الغفوة التي تشعر أثناءها أن عقلك مقسوم بين الحلول وبين التلاشي، حين أحسستُ بشيء يلامسني، أو بالأحرى يستثيرني. كانت أشبه بمداعبة المرأة للرجل حتى تسقيه من

كأس الشهوة وتُسكِره. وشعرتُ بشيء غضّ وحُلو المذاق يلامس فمي وكأنه يُقّبلني، ثم شعرتُ باللثمة واللمسة تتنقل بين أجزاء جسدي. وحين بدأتُ في إدارك المتعة والوصول إلى ذروة عنفوانها استيقظتُ برعشة تضرب جسدى وبأنفاس سريعة مضطربة وبنهر من العرق يتصبّب من كل مساماتي.

نهضت مرتجفًا واستعذتُ بالله من الشيطان الرجيم بلا توقف ولا كلل، وبعد أن أدركتُ صلاة الفجر وأدّيتُ الفرض عُدتُ إلى النوم. والغريب أنني نَعِمتُ بنومٍ هادئ وهانئ في تلك الليلة كنت لم أنعم به منذ شهور عديدة.

وتكرّر الأمر ذاته في الأيام التالية يوميًّا، وبلا انقطاع، درجة أنني كنتُ أنتظر رحيل النهار بفروغ الصبر حتى تأتي تلك اللحظة وتأخذني من نفسي لذاك الخِدر السحري المُمتع، غير انني لم أصل في أي مرة من تلك المرات إلى النشوة النهائية ولم تُكلّل أيٌّ من تلك المداعبات اللطيفة بمتعة الوصول للحظة الذوبان الكبرى، وعلى الرغم من ذلك لم يتسنَ لي قط أن أسمع أي صوتٍ يهمس في أذني ويرشدني، ولم يحدث أن رأيت أية ملامح تتشكل أمام عينيّ وتهديني، بيد أنني كنت أستشعر في داخلي أن ما أحسّه أثناء غفواتي لا يصدر إلا من أنثى شديدة الجمال لم يأتِ كمثل صوتها صوت ولم يُرَ كجمال مُحيّاها جمال.

وبمرور الوقت أسرَتْني تلك المشاعر وامتلكتني تمامًا حتى شغلتني عمّا سواها، فقررتُ تسليم روحي مقابل ما أنوله من متعة أثناء تلك الغفوات.

وفي أحد الأيام ذهبت كعادتي لصلاة الجمعة في المسجد المجاور، وبعد انتهاء الصلاة جلستُ مع إمام المسجد لأستشيره في أمر غفواتي، فرويتُ له كل ما كان يحدث، حينها استشاط الشيخ غضبًا وراح يوبّخني بعنف وانطلق يحذّرني من أن زائرة غفواتي تلك ما هي إلا جنيّة عاشقة، وهذا النوع من الجن شديد الخطورة، وإذا استسلمتُ له فإنه يمتلك الروح ويتسلّط عليها، ثم أمرني بترك المكان لثلاث ليالٍ متتالية، والذهاب إلى بلدتنا فورًا والبحث هناك عن عروسٍ مناسبة. لم ينصحني الرجل بلينٍ ولم يسمعني بهدوءٍ بل كان يتلو الأوامر ويُلقي عليّ التُهم وكأنني المذنب فيما يحدث أو كأنني أستحضر تلك الأحلام بإرادتي وأمتلك شفرات إرسالها.

تسلّط عليّ العِند فلم أستمع لكلام شيخ المسجد بل وصرفت النظر تمامًا عن الذهاب إلى بلدتي والبحث عن عروسٍ كما كنت أفكّر وكما نصحني هو، خاصة أنني كنت قد اعتدتُ على ما يحدث واستحالَت على نفسي فكرة التخلي عنه.

واستمرّت تلك الأحاسيس وتلك الليالي لمدة طويلة، وأخيرًا خطرَت على رأسي فكرة للذهاب بما يحدث إلى درجة أبعد، وكشفه بصورة أفضل، فذهبت إلى وسط المدينة قاصدًا سور الأزبكية حيث تباع الكتب القديمة بأسعار بخسة، وقررتُ البحث عن أيٍّ من الكتب المتوارثة عبر الأجيال التي تدور حول كيفية التواصل مع الجن العاشق، إلى أن أرشدني البائع إلى نسخة أصلية من كتاب «شمس المعارف». وبرغم أنها كانت نسخة باهظة الثمن إلاّ أنني كنت حريصًا على اقتنائها، وأذكر جيدًا ما قاله لي البائع حينذاك:

«إن الخطوات الأولى في تعلّم السحر تستلزم ضرورة الانسلاخ من الإيمان. فالإيمان والسحر نقيضان لا يتفقان أبدًا، ومن في قلبه ذَرّة من إيمان لا يمكن أن يمارس السحر».

لم ألتفت كثيرًا لما قاله الرجل لأن مقصدي لم يكن ممارسة السحر بل التواصل مع من تزورني في أحلامي تواصلًا ماديًّا ملموسًا، ومعرفة حقيقة ما يحدث معي. وكنتُ على خطأ عظيم، فما فعلتُه غافلًا لم يكن إلا السحر بعينه.

عدت إلى غرفتي في تلك الليلة وبدأت في تصفح الكتاب ولم يخذلني تعليمي المحدود في فهم ما بين السطور ومعرفة كيفية تحقيق ذلك الأمر. فتلوتُ العزائم والطلاسم الموجودة في الكتاب، وتتبعتُ خطوات الاستدعاء حرفيًّا وأنا

أرتدي ملابس خفيفة جدًّا وأتعطّر بعطور رائعة عبقة بقصد إثارة زائرة غفواتي حال أتت.

استلقيتُ على الفراش وأغمضتُ عينيّ لفترة دون أن يحدث أي شيء حتى غلبني النُعاس واستغرقتُ في نوم عميق إلى أن أيقظني صوت طرقات منتظمة على باب الغرفة، فصحوتُ ونظرت إلى ساعتي وكانت تشير إلى الخامسة من فجر اليوم التالي. تركتُ الفراش وذهبتُ لأفتح الباب، ورأيت من خلف الباب ما لا عين رأت من قبل. وجدتُ فتاة فاقت كل بنات حواء حُسنا بما تعجز كل كلمات الشعراء عبر التاريخ عن وصف ولو جزء يسير من جمالها ومفاتنها. وكانت تفوح منها رائحة هي خلاصة شذى كل زهور الأرض، وترتدي فستانًا أسود اللون تبرقُ من فوق صدره نجمة خماسية من الماس الحر، وفوق كتفيها كانت تنساب موجات شعرها الذهبي كسلاسل من الذهب الخالص تتدلى من تاج الرأس. أما عيناها السماويتان فكانتا رائقتين في صفاء يسحر الفؤاد من النظرة الأولى. وقفت أمامها صامتًا بلا حراك وقد راح صوتي. وحين أتاني صوتها العذب كان صوتًا لم يعبر بأذن بشر قطّ في حلاوته وجرسه المنغم. استأذنتني في الدخول إلى الغرفة فسمحت لها دون أن أنبس ببنت شفة. لم أكن خائفًا على الإطلاق، ولم أشعر بأي اضطراب، بل على العكس من ذلك؛ كنت مطمئنًا ومرتاحًا وكأنني أسير وسط

درب من دروب الجنة.

قادتني الفتاة من يدي بنعومة ودلال وأخذتني إلى الفراش دون أن أحرّك ساكنًا ولم أقاومها أبدًا، بل استجبتُ لأوامرها دونما تعليق حتى استلقت بجواري على الفراش وبدأت في تقبيلي ومداعبتي، ومارسنا الحب عدة مرّات دونما توقف أو تعب وهي تردّد لي كلمة «أحبك» فكان الخِدر يُصيب أوصالي كلما سمعتها منها. وبعد فترة طويلة من ممارسة فنون الغرام قالت الفتاة:

«يمكنك دعوتي في أي وقتٍ تريد، وصرتَ تعرف كيف تفعل ذلك الآن».

وبرغم أن كل ذلك كان يحدث بشكلٍ طيفيّ في مرحلة وسيطة تأتي بين الصحو وبين النوم كما هو الحال في أحلامنا الجميلة، ولم يكن ينقصه إلا تجسُّدها وحلولها بشكل ماديّ حقيقيّ إلا أن لياليا المثيرة قد استمرت طويلًا بعد تلك الليلة؛ كل يوم أغترف شهد العسل من أحضانها وأشرب خمر العشق المحرَّم من بين شفتيها، وأنام على وسائد ريش النعام فوق نهديها.

وكانت تلك الليلة هي بداية لعنتي، حين فتحت على نفسي بوابات الجحيم وكنت أظنني أفتح بوابات الهناء والنعيم.

ثم....

قاطعه الرجل المُسّن الذي يتزين وجهه بكل قسمات الحكمة والطيبة، والذي كان يجلس إلى جواره أمام صفحة النيل الرائقة، بينما زيّنت بيوت قريتهما النوبية خلفية جلستهما بألوانها المبهجة الرائعة، وقال:

- كفى يا «حسّان»، لقد مرّ الوقت مع حكايتك سريعًا وأشعر من رائحة الهواء أن صلاة الظهر قد صارت وشيكة. فلنذهب إلى المسجد كي أرفع الأذان وأصلّي بأهل القرية. ولنُكمِل ما تبقى من حكايتك لاحقًا إذا كان في العمر بقية.

نظر «حسّان» صوب قرص الشمس الذي توسّط كبد السماء ثم نظر لساعته فوجد الرجل على حقّ وأنه لم يعد هناك متسع من الوقت على حلول موعد صلاة الظهر، فنهض من فوره ومدّ يده للرجل المُسّن كي يساعده على النهوض وهو يقول:

- أنت على حقّ يا «شيخ بشير».. حيّ على الصلاة.

ثم أمسك بيد الشيخ «بشير» وجعلها تتأبّط ذراعه وهو يسير بجواره يسنده في اتجاه المسجد النوبي المقبّب، وهذا لأن الشيخ «بشير» كان محرومًا من نِعمة البصر.!

- انتظر قليلًا يا ولدي فالشيخ «عبد البر» على وشك

الوصول وهو يريد أن يجلس معك قليلًا:

تسرّب الضيق إلى نفس «صبري» ولكنه حبسه عن الظهور على وجهه احترامًا لوالده، واكتفى بأن قال في هدوءٍ:

- لم يتبقَ على موعد قطاري إلا ساعتين يا حضرة العمدة.

نظر الأب لولده نظرة متفحصة وقال:

- لم تتغير يا أبدًا يا «صبري»، ولن تفعل مهما كبرت.

- ماذا تقصد يا أبي؟

- أقصد أنك تتصرّف بذات الطريقة منذ صغرك، فلا تسمح لغيرك أن يوّرطك فيما لا يرضاه عقلك. ألم أخبرك أنني دعوت الشيخ «عبد البر» كي نجد الوسيلة للسيطرة على ما يحدث في فيلا «جوليا»؟

- نعم يا أبي قد أخبرتني بالفعل، لكنني لا أعرف من هو هذا الشيخ وكيف سيفيدنا!

- إنه رجل صالح يعيش في مركز قريب من مدينة الأقصر ويأتي الناس لزيارته من كل صوب في البلاد وجدب؛ بل ويأتي أناسٌ من بلاد عربية بعيدة لزيارته، فالرجل له كرامات عديدة وقد كُشف عنه الحجاب، ووسيلته الوحيدة في العلاج هي كتاب الله وآياته المحكمات. ثم إن الطريق من قريتنا إلى

محطة القطار في قِنا لا يستغرق أكثر من نصف الساعة والسائق في انتظارك بالخارج متأهّبا كي يُقلّك إلى المحطة وقتما شئت، فلمَ العجلة إذًا؟

صمت الأب قليلًا وهو يتفحص ملامح «صبري» قبل أن يسأله بجدية:

- هل ترفض مقابلة الرجل وتريد الانصراف قبل وصوله؟

- نعم يا أبي، أنا بالفعل لا أجد في الجلسة مع الشيخ «عبد البر» أية فائدة. في الأيام القليلة التي قضيتها هنا هادئًا بعيدًا عن الضغوط كنت أفكر في الأمر برمّته محاولًا الوصول إلى النتيجة التي يقبلها عقلي ويرتاح معها قلبي. وبالأمس تحديدًا، بعد أن صلّينا الفجر وذهبت للخلود إلى النوم، شعرت بشيء مُلهِم يتغلغل بداخلي ويَهَبني الفكرة التي طالما كانت غائبة عني.

- أي فكرة يا «صبري»؟

- الفكرة الوحيدة التي توافق المنطق ويستطيع عقلي التعامل معها يا أبي.

لقد بنيتُ كل افتراضاتي السابقة على الملاحظات التي أشار إليها «فاروق» بوجود سحر أدّى إلى التغيير الذي أصاب «جوليا»، وازدات شكوكي وتعاظَمت تجاه وجود ذلك السحر

حينما رأيت ما رأيت في غرفة «عم حسّان»، فمشيتُ وراء الظنون وأغفلتُ التفسير الوحيد الذي تفرضه الحُجّة ويرجّحهُ العقل؛ ماذا لو أن الأمر برمّته ينحصر في تسرّب الحب من قلب «جوليا» وعدم قدرتها على المُضيّ في علاقتنا؟ ماذا لو كانت مشاعرها قد تجمّدت وما عادت في حاجة لشمس الشرق ودفئها؟ ماذا لو أنها قد قرّرت أن يكون انسحابها بطيئًا وهادئًا لا يسبب لي جُرحًا أو صدمة فتتمادى في تعاملها معي بهذا البرود والصلف، وإيهامي أنها باتت غريبة الأطوار ولا تُحتمل حتى يتسرّب الملل إلى نفسي ويصيبني اليأس والإحباط، فتكون ردة فعلي على تجافيها هي الثورة لكرامتي والانتفاض لحفظ ماء وجهي، ومن ثم يكون قرار الانسحاب حينها قراري الحُرّ النابع من رغبتي الشخصية ولا يكون قرارًا مباشرًا منها؟

صمت الأب لبرهة وبدا وكأنه يحاول استيعاب ما قاله «صبري» الذي اكتست ملامحه بتعابير الأسى، وسأله:

- هلي تعني أنها تدّعي كل ما حدث؟

تحشرج صوت «صبري» قليلًا وقد استبدّ به الحزن تمامًا:

- نعم يا أبي، أعني هذا حرفيًا.

انتابت الأب بعض العصبية وهو يقول:

- وما الذي يمنع فتاة نشأت في أمريكا عن البوح برغبتها؟! هؤلاء القوم لهم ثقافة أخرى تختلف عن ثقافتنا، ولا يجدون أي غضاضة في المكاشفة والوضوح للوصول إلى أغراضهم المرجوّة بشكل مباشر.

- لا أعرف، ولكن هناك الكثير من العوامل التي تُرجّح فكرتي، بل وقد تكون السبب في عدم استخدام «جوليا» لثقافتها الغربية في حسم مسألة علاقتها بي؛ فعلى سبيل المثال يمثل العامل الإنساني في علاقتنا بُعدًا كبيرًا قد يمنعها أن تفعل الأمر بطريقة مباشرة فجّة، كما أنها أصبحت على دراية تامّة بمعايير العامل الاجتماعي المُعقّد في مصر، حيث ستنتشر أخبار انتهاء علاقتنا سريعًا بين أوساطنا الثقافية مما قد يؤثر على سمعتها الفنية تأثيرًا سلبيًا.

- حتى وإن بدا ما تقوله منطقيًا ومقبولًا للعقل، هل تجد أن ما شاهدته في غرفة «حسّان» منطقيًا كذلك؟ أم أن الرجل يدّعي هو الآخر حتى يدفعك إلى طرده من الفيلا طردًا أبيضَ؟

ابتسم «صبري» في ضيق من سخرية أبيه، وقال:

- بغض النظر عن استهزائك يا حاج «أحمد»، فلقد توصّلتُ كذلك لتفسير منطقيّ فيما يخص «عم حسّان»؛ تفسير يقبله عقلي، وهو أن «عم حسّان» رجل عجوز عاش أغلب عمره

وحيدًا في غرفة ضيقة ورطبة، ولم يتزوج ولم ينجب، ولم يتجاوز عالمه تلك الجدران الأربعة، فكيف نستبعد أن تكون سنوات الوِحدة والعزلة الطويلة تلك قد أثّرت على قدراته العقلية واتزانه النفسي؟ كيف نجزم أن ما شاهدته في تلك الليلة ليس إلا مظهرًا من مظاهر اللوثة أو الهلاوس النفسية؟ كيف...

قاطعه صوت طرقات على باب الغرفة التي يجلسان فيها، فرفع الأب صوته:

- ادخل!

ودلف إلى الغرفة أحد الخفر وقال متوجّهًا إلى الحاج «أحمد»:

- وصل الشيخ «عبد البر» يا حضرة العمدة.

- دعه يتفضل فورًا.

قال الأب وهو يتوجّه من فوره صوب الباب ليكون بنفسه في استقبال الشيخ «عبد البر» بترحابٍ شديدٍ، وكان الشيخ قد أتى برفقة شاب صغير، وبادر العمدة بأن أشار إلى «صبري» بفخرٍ وهو يوجّه حديثه إلى الشيخ «عبد البر» ويقول:

- هذا هو ابني الشاعر الكبير «صبري أبو حجاج».

هزّ الشيخ «عبد البر» رأسه وكأنه لم يستمع إلى ما قاله الأب، فتدخّل الشاب المرافق للشيخ قائلًا:

- عذرًا يا حضرة العمدة، حاول أن ترفع من صوتِك أكثر كي يستطيع الشيخ أن يسمعك، فحاسة السمع لديه ضعيفة جدًّا!

***

وضَعَت الخطوط الرئيسية فوق لوحتها الجديدة بمهارة واحترافية، وتحرّكت أناملها بانسيابية فائقة لتبثّ الحياة في تلك الخطوط وتحوّلها لبدايات أشكال مفهومة وواضحة المعالم. تشابكت رقصات ريشتها فوق اللوح الأبيض المنصوب على الحامل الخشبيّ فبدأت تدريجيًّا في الكشف عن ملامح لفتاة تشبهها مستلقية فوق فراش أسود اللون وتحمل في يدها سكّينًا. ولم تكن ريشتها ترقص بمفردها، بل كانت «جوليا» تشاركها الحركات الراقصة وهي ترسم فوق اللوحة خطًا بعد خط، فكانت تتمايل وتتحرك على أطراف أصابعها كراقصة باليه مستجيبة لصوت الموسيقى الصادر من سماعات الرأس الضخمة التي تغطي أذنيها. واستمرت الرقصات لساعات طويلة قبل أن تتوقف بطريقة مفاجئة عن حركاتها الإيقاعية وتتصلّب ريشتها فوق لوح الرسم فور أن نفد رصيد الطاقة المختزن في بطارية تلك السماعات اللاسلكية وانتهى من ثم انبعاث النغمات الموسيقية داخل

رأسها، غير أنها شعرت أن للصمت صوتًا يعلو صوت الطبول الصاخبة التي كانت تسمعها منذ برهة؛ صوت تغلغل داخل رأسها وسدّ الطريق أمام الأكسجين حتى بات يجد صعوبة في الوصول لأجزاء مُخّها، فأزاحت السماعات وألقتها بعيدًا ثم غرست إصبعين في فتحتي أذنيها وكأنها بذلك تُصمِتُ ذاك الصمت الثعباني الزاحف داخل جمجتها، جَثَت فوق ركبيتها، وانقلبت إلى جانبها، وتكوّرت على غرار وضع الجنين داخل رحم أمه، غير أن محاولتها لم تُجدِ نفعًا، بل ازداد الأمر سوءًا، وراحت تتلوّى وتنتفض فوق الأرض كمن أصابه مسّ كهربائي أو كمريضٍ يعاني نوبة صرع. مرت بضع دقائق وهي على ذلك الحال حتى استكانت تمامًا وتمدّدت باسترخاء فوق ظهرها، ومكثت تُحملِق في سقف المرسم أبيض اللون وقد بدأت تتشكّل أمام عينيها صورة لامرأة فاتنة وكأن السقف قد استحال شاشة عرض سينمائية! كانت المرأة تشبهها إلى حدٍّ كبير، بل وربما تفوقها جمالًا وسحرًا بشعرها الأشقر الذهبيّ، وعينيها السمائيتين الصافيتين، وبشرتها البيضاء الناعمة، وملامحها المنمنة الرقيقة. وحين اكتملت صورة المرأة الفاتنة تمامًا، شرعت تتحرك جيئة وذهابًا على شاشة العرض الأسمنتية تلك وكأنها تفكر في أمرٍ ما، ثم نظرت إلى «جوليا» المُمدّة فوق أرضية المرسم وقالت بصوت رقيق هامس:

- «جوليا»، لقد مر وقت طويل؟

- بلى، لقد مرّ وقت طويل جدًّا، لكم أفتقدك!

- أنا أيضًا أفتقدكِ كثيرًا يا حلوتي الصغيرة.

- أين ذهبتِ؟

- لا يهم هذا الآن. أخبريني.. هل تطيعين أوامر السيدة؟

- نعم، أطيعها في كل شيء.

- هذه هي فتاتي! كل أولاد آدم يستحقون ذاك المصير.

- ربما!

- لا يوجد ربما في تلك المسألة؛ جميعهم يستحقونه بالتأكيد.

- لكن هناك الطيبين منهم مثل «صبري» و«عم حسّان» و...

- لقد قلت لكِ جميعهم، وجميعهم تعني جميعهم!

- لكنني أحب «صبري».

- حب؟! ألم تتعلمي ممّا حدث لي أي شيء؟

- تعلمت، لكنني عاجزة أمام قلبي!

- لا تُسمعيني كلمات الخنوع والضعف تلك فأنا أكرهها، كوني أقوى من قلبك!

- أحاول .. وأفشل.

- اتبّعي السيدة وسوف تنجحين ولا شك.

- سأفعل.

- وأين «حسّان»؟

- طرده «صبري».

- وكيف سمحتِ له أن يفعل؟

- لقد فعل ذلك بدون علمي ولم يستشرني.

- هذا ما نجنيه من الرجال وهذا من نحصده من حبّهم! أريدكِ أن تعيدي «حسّان» إلى الفيلا على الفور.

- لا أعرف له طريقًا.

- سوف أرشدكِ إليه. حسنًا.. سوف أذهب الآن.

- انتظري!.. لا تذهبي مجددًا!

- ليتني أستطيع! الرحيل هو القدر الذي فرضه عليّ ابن آدم، ولذا أريدكِ أن تصنعي قدركِ ولا تنتظري حتى يصنعه لك رجل!

- لكنني في حاجة ماسة إليك.

- السيدة ترعاك وترعانا جميعًا.

- وداعًا.

- إلى لقاء.

تلاشت الصورة تدريجيًّا من السقف، وارتجفت أهداب «جوليا» قليلًا قبل أن تنطبق تمامًا وتذهب في سُبات عميق، بينما تدحرجت حبّات الدمع الساخن على وجنتيها حتى بللّت أطراف ثغرها..!!

***

(١٥ / ٣ / ٢٠١٥)

عدد سور القرأن الكريم التي تبدأ بلفظة «قل» هي خمس سور: الناس والجن والإخلاص والكافرون والفلق..!!(028)

سارت بجواره في أحد الشوارع العريقة بمنطقة وسط البلد وهي تتأبّط ذراعه في حميمية شديدة، وأرسلت له عبر ذلك العِناق رسالات خطّتها دقات القلب لتبلغه عن مدى شعورها بالأمان والارتياح في اقترابها منه، وعزفت على قرميد الرصيف بكعب حذائها الأنثوي الساخن إيقاعًا فرحًا يخبره أنها تكاد ترقص من فرط سعادتها بالسير معه، وتركت عطرها الفرنسي الرقيق ينتقل من ملابسها ويترك أثرًا مثيرًا فوق ملابسه.

كانا قد التقيا في اليوم التالي لوصوله من قريته في محافظة قنا وأمضيا وقتًا طويلًا يتحدثان عن علاقتهما وما آلت إليه في الفترة الأخيرة؛ أخبرها بمخاوفه التي أسرّ بها لأبيه بصراحة وبدون مراوغة، وأخبرها عن توصّله لاعتقاد يُرجّح أنها تدفعه نحو قرار الانفصال عنها، وأخبرها كذلك أنها في حِلّ من ذلك حيث يجب أن تنتهي علاقتهما بنفس الطريقة المحترمة الراقية التي بدأت

بها كيّما يتسنّى لهما الاحتفاظ بذكرياتهما الرائعة معًا إن

أغلقت هي الأبواب أمام مستقبلهما. فأخبرته هي أن ما يقوله هو العبث بعينه؛ فهي وإن كفّت عن حبه كانت ستبلغه على الفور، وما من منطق في اضطرارها لممارسة أية ألاعيب رخيصة معه وهو الذى يمثل قيمة كبيرة بالنسبة لها، ليس فقط لكونه حبيبها المُختار ولكن لكونه أيضًا أستاذها وصديقها الأقرب. تعجّبت من استنتاجاته وما توصّل إليه، وسألته كيف يظن بها تلك الظنون وهو الذي يعرفها جيدًا، بل ويعرفها أكثر من أي شخص آخر؟! وقالت أنه كان عليه أن يرفض مثل تلك الأفكار المريبة ويطردها من عقله ليقينه المُسبق أن شخصيتها لن تدعها تفكر بتلك الطريقة الملتوية، واندهشت لاستسلامه لذلك الاستنتاج الذي يصورهّا بتلك الصورة المشبوهة. وأخبرته أيضًا أن من حقّه تمامًا ولا شك أن يعرف الأسباب وراء تغيّرها إن كانت قد تغيّرت بالفعل، بيد أنها لا ترى أبدًا أن مشاعرها قد تبلّدت من ناحيته أو شابها تغيير. ربما أتت بالفعل ببعض التصرفات الغريبة في الآونة الأخيرة، لكن تفسيرها الوحيد لذلك الاضطراب الذي أصابها هو الضغط العصبي الرهيب الذي تشعر به جرّاء اقتراب ميعاد معرضها وتوحّدها النفسي مع بعض الحالات النفسية المعقّدة التي تحاول تصويرها في لوحاتها. فلهذا التوحد تأثير سيكولوجي سلبيّ عليها، وقد يكون هو المبرر الرئيسي لبعض تصرفاتها المستهجنة، أو بعد ما نطقت به من كلمات شاذة. ثم

لامته كثيرًا على طرده «عم حسّان» حتى دون أن يبلغها، وهو الرجل الذي يمتلك في الفيلا أكثر مما تمتلك هي؛ فإن كانت ملكيتها للفيلا ملكية قانونية، فهو يمتلكها ملكية تاريخية كاملة.

حينها وجد نفسه مدفوعًا لأن يروي لها ما شاهده في غرفة «عم حسّان» بالتفصيل، وعن اعتقاده المترتّب على ما رآه بعينيه بأن الرجل قد صار يمثل خطرًا عليها، وأنه لن يكون مطمئنًا لبقائه في الفيلا معها، ومن ثم كان تصرفه نابعًا من منطلق خوفه عليها.

ضحكت حينها كما لم تضحك من قبل، بل واتهمته بالتأثر بالخرافات والأساطير المنسوجة حول عالم السحر والشعوذة، وتهكّمت على وقوع الشاعر الفيلسوف المثقّف في شَرَك خرافات العامة والدهماء، بل وتأثّره بها.

شعر «صبري» بالخجل ووافقها على ذلك، واعترف لها بأنه قد ندم بالفعل على طرد الرجل الوفيّ الطيّب ندمًا شديدًا أرّق ضميره وجعله يشعر أنه مثل القاضي الفرنسي الظالم. فطالبته «جوليا» بإصلاح ما أفسده بالبحث عن «عم حسّان» كي يعيده إلى الفيلا، ووعدها بأنه سيفعل ذلك مهما كلّفه الأمر، فيما وعدته هي أن تحاول السيطرة على تصرفاتها.

ومرّت الأيام بينهما وعلاقتهما على أفضل ما يرام، وعاد كل

شيء إلي طبيعته الأولى تمامًا، بل كانت تلك الأيام القليلة من أجمل أيام علاقتهما وأكثرها هدوءًا وسلامًا وعشقًا.

استجاب «صبري» لتأبطها ذراعه وضمّ أصابعها في كفّ يده وضغط عليها برفق، واستقبلت «جوليا» عناق يده بنظرة تحمل كل ما يموج داخلها من المشاعر والتوق. وحين شعر بدفء نظرتها له، خرج صوته مغرمًا وهو يقول:

- ما رأيكِ لو دعوتكِ على فيلم سينمائيّ جديد سيتم عرضه الليلة في أحد المراكز الثقافية، ثم نذهب بعدها لتناول العشاء في مطعم رائع سوف يروقك كثيرًا؟

- أي فيلم؟

- فيلم عنوانه «الأصوات» تم إطلاقه للعرض في الولايات المتحدة في شهر فبراير الماضي، وهو من بطولة «ريان رينولدز».

- لم أسمع عنه، عن ماذا يدور؟

- هو فيلم سيكولوجي من نوعية أفلام «الكوميديا السوداء»، يدور حول شخص مضطرب نفسيًّا يسمع بعض الهلاوس الصوتية ويظنّها تتكلم معه وترشده. وحين يقع في غرام زميلته في العمل تقوده تلك العلاقة والهلاوس التي يسمعها لممارسة القتل المتسلسل.

توقفت فجأة عن السير وقالت بعصبية واضحة:

- وهل هذه ليلة مناسبة لمشاهدة فيلم عن قاتل متسلسل؟

شعر ببعض الحرج فأجابها بسرعة:

- معكِ حق! ما هو اقتراحك إذًا، أين نذهب؟

- بل قل أين ستذهب!

- ماذا تعنين؟ ألن نسهر معًا هذه الليلة؟!

ابتسمت وهي تعود لتابّط ذراعه:

- سوف أذهب معك إلي المقهى لأرى «فاروق» والأصدقاء ثم أتركك معهم؛ فهناك لوحة في انتظاري في المرسم يجب أن أنتهي منها هذه الليلة.

***

جلست «ريم» داخل سيارتها الفارهة على جانب الشارع الهادئ تخفيها شجرة وارفة وضخمة عن مدخل تلك البناية المقابلة في الجهة الأخرى، لكنها تسمح لها بمراقبة الخارجين والداخلين من تلك البناية وإليها. مرّ وقت طويل وهي تتابع المدخل منتظرة لحظة وصوله، وحاولت قتل الملل الذي زحف إليها بالاستماع إلي بعض الأغنيات من تطبيق هاتفها المحمول وهي تستدعي ذكريات التعرّف عليه أول مرّة،

وكيف بدا لها حين رأته وتجاذبت معه أطراف الحديث.

كان نموذجًا للرجولة كما كانت تتخيلها في فترات صِباها ومراهقتها، شاهدت فيه التركيبة المثالية للرجل الشرقيّ مثلما أحبّتها وتمنّتها فيمن سيكون رَجُلها المستقبليّ حين كانت بعدُ طالبة في المدرسة الثانوية تجوب بخيالها بلاد فارس الأحلام وترسم صورته في أفكارها. أعجبها كثيرًا مَزْجِه الساحر بين الشخصية البرّاقة والجذور الصعيدية الأصيلة التي تركت بداخله أخلاق الفروسية والشهامة وتحمّل المسؤولية، فضلًا عن الرقيّ البالغ في تصرفاته التي تعكس مستوى متميزًا من التمدّن والتحضّر، وتتيح له كل السُبُل المُثلى للتعامل مع الأنثى وإدارة حوار جذل معها، إلى جانب اعتمادِه الحدّ الأنسب من آداب السلوك، أو الإتيكيت، فى اختيار ملابسه وطريقة تناوله طعامه وشرابه، وسلوكياته في الحفلات والمناسبات؛ فهو باختصار الرجل العصريّ المتمسك بأجمل ما في جذوره من صفات، بدون نزعات عُنصرية أو قبلية.

أوقفَت «ريم» سيلَ أفكارها حين لمحت «صبري» يدخل البناية، واضطربت خفقاتها قليلًا وتوتّرت أعصابُ يدِها وهي تحاول الاتصال برقم الهاتف الخاص بالساحرة، إلى أن أتاها صوت المرأة الغليظ يسألها:

- هل نفذتِ ما طلبته منكِ؟

- لم أفعل بعد، لقد وصل إلي بيته للتوّ.

- حسنًا، افعلي كما أخبرتكِ تمامًا ولا تنسي شيئًا.

- سامحيني، فأنا مضطربة للغاية، هلا أعدتِ عليّ ما يجب أن أقوم به.

- الأمر ليس بهذه الصعوبة! عليكِ فقط أن تجدي وسيلة للدخول إلي بيته وهناك تقومين بنثر السائل الذي أعطيتكِ. إياكِ وأن تكتفي بنثره فوق عتبة الباب، فنحن نريد إتمام دائرة هذا السحر بشكل حاسم ثم ننتظر النتائج القريبة جدًا والحاسمة. لقد انتهينا من الجزء الخاص بالتفريق، ويجب أن تنهي الليلة الجزء الخاص بالجلْب كي يفارقها ويأتيكِ، ويتركها ويجدكِ. سأنتظرُ مكالمةً منكِ فور إتمام مهمتك كي أقوم أنا بعملي هنا.

ولم تنتظر المرأة ردًا من «ريم» قبل أن تنهي المكالمة على الفور.

اشعلت «ريم» لفافة تبغ في محاولة منها لبعث بعض الهدوء في نفسِها قبل أن تشرع في تنفيذ مُهمّتها. وبمجرد أن انتهت منها تركت سيارتها واتجهت إلي البناية وصعدت إلى الطابق الذي يسكن فيه صبري، ودارت بعينيها بين أبواب الشقق في

ذلك الطابق حتى وجدت لوحة نحاسية مُعلّقة على أحد الأبواب تحمل اسم «صبري أبو حجاج».

توقفت «ريم» برهة أمام اسمه، وتملّكها شعورٌ بالأسى كون زيارتها الأولى لمنزله قد أتّت بدون دعوة منه، ولمثل ذلك السبب؛ كم تمنّت لو أن تلك الزيارة كانت استجابة لإلحاحٍ منه أو قبولًا لموعد غراميّ ساخن سعى إليه هو بكل رغبته فيها. لكن سرعان ما حسمت الأمر في داخلها انطلاقًا من إيمانها الشديد بأن الغاية دائمًا ما تبرّر الوسيلة، وأن ما لا يُدرك كله لا يُترك كله، ومن ثم ينبغي عليها أن تُتّمم أركان هذا السحر أيًّا كان الثمن، خاصة أن الجزء الأصعب منه قد انقضى بالفعل بزيارة الساحرة والذهاب إلى المقابر، ولم يتبقّ أمامها إلا تلك الخطوة اليسيرة جدًّا بالمقارنة.

دقّت جرس الباب على الفور وانتظرت.

- «ريم»؟

سألها «صبري» بدهشة كبيرة ما إن فتح الباب ووجدها أمامه. أما هي فقابلت سؤاله بابتسامة حاولت أن تجعلها رقيقة ومؤثرة وهي تقول:

- هل أستطيع الدخول؟

ارتبك «صبري» وتلعثمت إجابته وهو يتنحّى جانبًا تاركًا لها

سبيلًا للدخول:

- بلى، بالطبع، تفضلي بالدخول.

دخلت ريم على الفور إلي ردهة الاستقبال وأخذت تتفحّص المكان بنظرات سريعة وهي تقول:

- لم أتخيل أن بيتك بهذه الروعة؛ يبدو كجزء من تاريخ الشرق الساحر.

لم يكن قد تخطّى بعد ارتباكه و اندهاشه لزيارتها حين أجابها:

- أشكرك، ولكن ما سبب هذه الـ...

قاطعته سريعًا وهي تقترب منه بشكلٍ مثيرٍ:

- لا تتعجّل، سوف أخبرك عن سبب الزيارة بالقطع، لكن ماذا حلّ بكرم الضيافة الصعيدي؟ ألن تُقدّم لي مشروبًا أولًا؟

ومُجددًا ارتبك «صبري» وأجابها متلعثمًا:

- بالطبع.. ماذا تُفضّلين؟

- كأس من الويسكي من فضلك.

- عذرًا، لا أحتفظ بمشروبات روحية في المنزل، فأنا لست معتادًا على احتساء الشراب على أية حال؛ فقط قليلًا في

الاحتفالات والمناسبات.

- لا عليك، سأكون ممتنة لك إن صنعت لي فنجانًا من القهوة.

أجابها وهو يتحرك باتجاه المطبخ:

- حالًا.. تفضلي بالجلوس.

إلاّ أن «ريم» لم تجلس واستمرت في تفحّص المكان حتى لمحت ممرًا صغيرًا يؤدّي إلي غرفة النوم، فتحرّكت سريعًا وهي تخرج السائل السِحريّ من حقيبتها، وما إن دلفت إلى غرفة النوم حتى نثرته سريعًا فوق البساط الصوفيّ بجوار الفراش قبل أن تعود مسرعة إلي حيث تركها «صبري» في ردهة الاستقبال.

راها «صبري»وهي عائدة من اتجاه غرفة نومه وهو يحمل الصينية النحاسية المخصّصة لتقديم القهوة، فازدادت علامات التعجّب على وجهه وهو يسألها مندهشًا:

- أين كنتِ؟

- أرجو ألاّ تمانع، لكن حداني فضول إلى جولة في منزلك، فهو يعجبني كثيرًا. غرفة نومك أيضًا تحمل نفس الطابع الشرقي الرائع، لا بد أنك تشعر بداخلها أنك أحد سلاطين الدولة الفاطمية أو أحد أمراء المماليك.

أشار لها بالجلوس وهو يحاول رسم ابتسامة مجاملة على وجهه:

- تفضلي بالجلوس يا «ريم»، وإليكِ القهوة.

لم تجلس «ريم» على المقعد الذي دعاها إليه «صبري»، بل اقتربت لتنخذ مكانًا بجواره على الأريكة وهي تقول:

- أُفضّل الجلوس بجوارك. هيَّا اجلس.. ماذا حلّ بك؟! هل تشعر بالخجل أيها الشاعر الكبير؟!

بلغ ارتباك «صبري» مبلغه وهو يردّ نافيًا، ثم انتظر حتى جلست فوق الأريكة وجلس إلى جوارها، فما كان منها إلّا أن اقتربت منه حتى كادت تلتصق به وهي ترسل نظرة من عينيها تحمل إليه كل رسائل البوح والتصريح:

- وكيف حالك؟

لم تكن «ريم» امرأة عادية تتكرّر كثيرًا في الحياة؛ كانت من النساء اللواتي ينضحن إثارة وتبحث عنهم شركات الملابس وأدوات التجميل وصيحات الموضة كي يتصدرن أغلفة الدعاية والتسويق لمنتجاتها. كان لها قوامًا نموذجيًّا في إثارة الفتنة والغواية، تبرز فيه كل مفاتن الأنوثة بتناسق دقيق لا يزيد إنشًا ولا ينقص. ولها تلك الملامح التي تحار في وصفها؛ فالجمال هنا ليس هو العنوان الرئيسي لملامحها، بل هي

الإثارة، بملامح وجهها شديدة الغواية، ومُقلتي عينيها البُنيّتين، والشفتين المكتنزتين، والشعر الأسود الذي يصافح أسفل ظهرها، والبشرة البرونزية اللامعة؛ باختصار، كانت «ريم» من النساء اللواتي يصعب على أي رجل التصدّي لإغوائهن والتعفّف عن غنجهّن وسِحرهّن.

لمعت جبهة «صبري» بحبّات العرق وهو يحاول التماسّك وفرض إيقاعه على الحدث المفاجئ في كل جنباته، وسألها:

- ما السرّ وراء زيارتك المفاجئة هذه يا «ريم»؟

قرّرت إطلاق كل أسلحتها دفعة واحدة، فهَمَت بأناملها فوق وجهه وهي تقول:

- أشتاق إليك!

أزاح يدَها برفق من فوق وجنته وهو يجيبها في ثباتٍ جاهَد لتحقيقه:

- ألم ننتهِ من هذا الأمر منذ فترة طويلة؟ أنت امرأة متزوجة يا «ريم» وأنا أيضًا أصبحتُ ملتزمًا بعلاقة غرامية مع صديقتك المقربة.

انفعلت ملامحها وخرج صوتها مشوبًا بالعصبية:

- أنت تعيشُ وهمًا يا «صبري»! صديقتي التي تتحدّث عنها

لا تحب إلا نفسها، وهي فقط تستغلك وتستغل علاقاتك كما فعلت بي، وسوف تتخلّص منك حين تصل لمرادها وتُحقّق بغيتها. أما بالنسبة لكوني متزوجة فتلك مسألة أستطيع إنهاءها غدًا إن شئت؛ فقط قل إنك تريدني وسوف أفعل من أجلك أي شيء.

أفاقته كلماتها وشَفَتْه من تأثير إغوائها الذي عصف به للحظات، فنهض من مكانه وابتعد عنها لخطوات قبل أن يقول بمنتهى الجديّة:

- شرّفتني زيارتك يا «ريم» ..!!

***

(١ / ٤ / ٢٠١٥)

ترسم الكنيسة المارونية الصليب «بخمسة» أصابع، وهذا من وحي جراحات المسيح الخمسة، بتأثير من الروحانية الفرنسيسكانية. (027)

«قَتَلَ باكستاني يمارس السحر الأسود «خمسة» من أطفاله الستة، ظنًا منه أن هذه التضحية سوف تمنحه «قدرات خارقة»، حسب ما كشفت الشرطة المحلية.

قتل «علي نواز ليغاري» (٤٠ عامًا) ابنتيه وثلاثة من أبنائه الذين تتراوح أعمارهم جميعهم بين ثلاث سنوات وثلاث عشرة سنة الليلة الماضية في بلدة سعيد خان الواقعة على بُعد حوالي ٢٣٠ كيلومترًا شمال مدينة كراتشي. عندما قرّرت الزوجة أن تذهب لتمضي الليلة عند عائلتها، بقي الأب مع أولاده بمفرده قبل أن يقوم بخنقهم واحدًا تلو الآخر ثم أخرج جثثهم وحاول دفنها، بينما نجا الأخ «السادس» من تلك الجريمة البشعة دون معرفة السبب وراء عدم خنق الأب له مثلما فعل بإخوته.

وقال مسؤول في الشرطة المحلية إن «ليغاري» كان يتعلّم السحر الأسود، وعلى ما يبدو أنه قام بهذه التضحية طمعًا في تعزيز قدراته». (026)

- ماذا تقرأ؟

جذب سؤال «فاروق» انتباه «صبري» الذي كان مستغرقًا في قراءة هذا الخبر وارتسم على ملامحه التأثّر الشديد وهو يجيب:

- اقرأ خبرًا عن جريمة بشعة حدثت في باكستان. أي سِحرٍ هذا الذي يجعل رجلًا يقتل أطفاله الخمسة؟! كيف تحجّرت مشاعره وازرقّت دماؤه وتشرزمت الفطرة الإنسانية بداخله ليفعل مثلما فعل؟ ثم لماذا صار هذا الرقم يقفز أمام عيني طوال الوقت على هذا النحو ؟!!

أمسك «فاروق» الحاسوب اللوحيّ من بين يدي «صبري» وألقاه فوق مقعدٍ قريب مانعًا إياه من متابعة القراءة، وقال:

- أعتقد أن الجريمة البشعة القادمة سأكون أنا بطلها وأنت ضحيتها! يا رجل.. هل تقرأ اخبار الجرائم في يوم احتفالي بعيد مولدي؟!

- عذرًا يا فاروق، لقد جذب انتباهي العنوان وأنا أتصفح بعض الأخبار، ثم هل تسمّي هذا احتفالًا؟! أنت لم تدعُ أحدًا غيري أنا و«جوليا».

- هذا الاحتفال يُرضيني ويسعدني جدًّا، فليس لديّ رغبة في أي زحام مزيف، كما أن وجودكما يكفيني.

أطلق «صبري»ضحكة مرحة:

- لابد أنه يكفيك، ألم تطلب من «جوليا» أن تُعّد لنا طعامًا أمريكيًّا كهدية عيد ميلادك؟ وها هي لم تخرج من مطبخك منذ ساعتين! أنت رجل مستغل يا صديقي.

بادله «فاروق» الضحك:

- دعني أتعرف على مذاق الطعام الأمريكي في ليلة عيد ميلادي، فلقد سئمت قائمة طعام الرجل العاذب التي أحيا عليها. ثم أنك ستسافر غدًا إلى باريس حيث كل ما لذَّ وطاب من قوائم الطعام الأوربيّة، فلتتركني إذًا أستمتع لليلة واحدة.

لم يكد «فاروق» يُتّم جُملته حتى ظهرت «جوليا» وهي تحمل صينية ضخمة يرقد فوقها ديك رومي كبير الحجم، فهرع الرجلان لمساعدتها وأخذا منها ما تحمله ووضعاه فوق منضدة الطعام.

دار «فاروق» حول المنضدة مُقلّدًا الرقصة التي يقوم بها الهنود الحُمر حول قدر الطعام الضخم في البريّة وهو يقلّد حركاتهم وأصواتهم الشهيرة ويصيح:

- هكذا يكون الطعام وإلا فلا، سلمت يداكِ يا «جوليا»!

أضحكها ما يفعله «فاروق» وسألته في غمرة ضحكها:

- ماذا تفعل؟! هذا طعام أمريكي يا «فاروق» وليس طعامًا للهنود الحمر!

- أليسوا هم سكان أمريكا الأصليون؟

ثم توقف «فاروق» عن الرقص بشكل مفاجئ مصدرًا صوت طرقعة من إبهامه وبِنصره وبدا على ووجهه أنه قد اكتشف لتوّه فكرة رائعة، وقال:

- نعم الهنود الحمر! يبدو أنني عثرت في هذه اللحظة على فكرة رواية جديدة، اتعرفان قصة ساحرات سالم؟

نفى كلٌّ منهما معرفته بما يقول، فأردف:

- إنها سلسلة من المحاكمات القضائية التي أقيمت في الولايات المتحدة في القرن السابع عشر لبعض النساء اللواتي مارسن السحر الأسود آنذاك، وكان من أبرزهن خادمة من الهنود الحمر تدعي «تيبوا»، حتى إن «آرثر ميلر» كتب عن تلك المحاكمات مسرحية ذائعة الصيت بعنوان «المحنة»(025).

قاطعه «صبري»:

- انظروا من عاد ليتحدّث عن السحر الأسود والساحرات! يا عزيزي أنت مفتون بالأساطير والغيبيات، وتتبعها كما المجذوب!

- إنها المادة الخصبة لرواياتي، والبُعد الثالث لأعماق الإنسان وسرائره، والتنقيب فيها يكشف الكثير عنّا، وفكّ شفراتها يزيح الغطاء عن بعض مكنوناتنا.

ثم أردف مبتسمًا:

- وبمناسبة الكلام عن الأساطير، لقد وصلني طردًا يضمّ هدية عيد ميلاد رائعة أرسلها لي صديقي النحّات العراقي «قاسم عيلان». استخدم الرجل ذكاءه ومعرفته بعشقي وشغفي بالأساطير والغيبيات فقام بنحت تمثال صغير لثلاثة ملائكة من أسطورة قديمة.

اعترى الفضول وجهي «جوليا» و «صبري» تجاه أمر ذلك التمثال، لكن «صبري» شعر أن الوقت غير مناسب للحديث عنه، فقال مداعبًا:

- لا تتحاذق يا «فاروق» لجرّنا إلى مسألة الهدايا الآن، فلن نعطيك هديتك قبل أن نأكل وجبة العشاء ونطفئ شموع كعكة ميلادك مهما فعلت.

أشارت لهما «جوليا» باتجاه المطبخ وهي تقول:

- حسنًا، هيّا أمامي إذًا لتجلبا معي أصناف الطعام الأخرى ولنؤجل أمر الهدايا الآن كم قال «صبري».

صاح «فاروق»:

- هذا هو ما أحب أن أسمعه! أسمعت؟! لم يزل هناك أصناف أخرى إلى جانب هذا الطائر البديع، إذًا فالمعركة آتية لا ريب!

ذهب ثلاثتهم إلى المطبخ وأحضروا الأصناف الأخرى التي أعدّتها «جوليا» لتلك المأدبة، وكذلك كعكة عيد الميلاد، ووضعوها جميعًا فوق منضدة الطعام.

***

- كل عام وأنت بخير يا صديقي.

- وأنت بخير يا «صبري».

- كل عام وأنت بخير يا «فاروق».

- وانتِ بخير يا «جوليا»، واشكرك من صميم فؤادي. اعرف أنني أرهقتكِ اليوم برغبتي في طعام من صنع يديكِ، لكن الحقّ أن الطعام كان شهيًّا جدًّا؛ أنتِ طاهية ماهرة بالفعل.

- لا عليك يا «فاروق»، لقد أسعدني كثيرًا أن أُعدّ لكما الطعام بنفسي اليوم.

وجّه «صبري» حديثه إلى «جوليا» قائلًا:

- هيَّا يا «جوليا»، جاء موعد الهديتين المخبّأتين في حقيبة يدك، قبل أن نتراجع عن إعطائهما له.

فَرَّك «فاروق» كفيه وهو يبتسم ابتسامة طفل جذِل في انتظار هدية وشيكة، وقال:

- نعم، حان الآن وقت استعراض الهدايا.

أخرجت «جوليا» من حقيبتها عُلبتين مغلّفتين بأوراق تغليف الهدايا البرّاقة، وناولتهما إياه وهي تحدّد له هديتها وهدية «صبري»، وعلى الفور فضّ «فاروق» الأغلفة وفتح الهديتين؛ فكانت هدية «صبري» هي قلم رائع إنجليزي الصنع بينما كانت هدية «جوليا» علاقة مفاتيح مطلية بالفضة الصافية وتتدلّى منها نجمة خماسية الأضلاع.

أعرب «فاروق» عن امتنانه الشديد للهديتين، ثم راح يُقلّب علاّقة المفاتيح ونجمتها الخماسية بين كفّيه وهو يشرد بذهنه بعيدًا قبل أن يقول لهما بجدية:

- هل تعلمان كم هو محير أن نصل لمغزى واضح عن رمزية هذه النجمة الخماسية؟

سأله «صبري»:

- ماذا تعني؟

- تبدو لي هذه النجمة الخماسية كما لو أنها الشكل الهندسي الوحيد الذي قامت كل ثقافة أو ديانة بترميزها حسب أهوائها

وبشكل يخالف الثقافات والديانات الأخرى، درجة أن بعض ترميزاتها تتناقض مع بعضها الآخر وتأتي بمضامين تبدو متناقضة في كثير من الأحيان؛ فهي ترمز إلى الفطنة والذكاء وقوة القدرة الكلية عند البعض، بينما ترمز عند البعض الآخر إلى الكمال والفتنة والجمال. هي النجمة التي يتقوّى بها السحرة في سحرهم، وهي رمز لعالم الإنسان المصنوع من دم ولحم، وهي أيضًا رمز لقدرة الشيطان عند عبدة الشيطان بينما ترمز لأركان الإسلام الخمسة في علم دولة المغرب مثلًا!. وهي عند الكثير من الثقافات الصينية رمز لعناصر الكون الخمسة التي تتحدّ في الإنسان، بينما في بعض ثقافات الشرق هي رمز للظلم والكفر وهلاك الروح! فأي موقف نتخذه منها وأي رمزية نعتمدها لها؟!

أجابه «صبرى» مبتسمًا:

- الأمر بسيط جدًّا؛ نسأل «جوليا» عن سبب اختيارها لهذه النجمة الخماسية كهدية لك، ويكون مقصدها هي الرمزية التي تبحث عنها!

ولم تنتظر «جوليا» أن يسألها «فاروق»، بل أجابت بدون تردّد:

- ليس هناك أي مقصد من وراء اختياري لها؛ كل ما في الأمر أنني أحببتُ هيئتها، واجتذب بريق معدنها عينيّ، لا أكثر!

ضحك الرجلان، وقال «صبري» مداعبًا:

- يا للنساء! لديهن دائمًا زاوية مختلفة لرؤية الأشياء!

وبالحديث عن الرموز والرمزية، تذكّر «صبرى» التمثال الذى أخبرهما «فاروق» عنه منذ قليل وعاوده الفضول لرؤيته، فوجّه حديثه إلى فاروق قائلًا:

- لم ترمز نجمة «جوليا» الخماسية إذًا لأي شيء سوى كونها ذات شكل خارجي جذّاب، فماذا عن هدية صديقك المثّال العراقيّ؟ هل يُخفي التمثال الذي حدّثتنا عنه أي رمز يتعدّى هيئته الخارجية؟

أجابه «فاروق»:

- لم يخبرني «قاسم» في رسالته المصاحبة للهدية الكثير حول قصّة هؤلاء الملائكة الثلاث، وكل ما ذكره أنهم - حسب أسطورة قديمة - يقدمون الحماية ضد امرأة ملعونة شريرة تهاجم الأطفال الذكور ليلًا وتهاجم الرجال الأشدّاء في أوقات نومهم. تعرفُ بالطبع شغفي الشديد بمثل تلك الأمور، فأرسلت له رسالة إلكترونية أشكره على هديته الرائعة وطلبتُ منه المزيد من المعلومات حول تلك الأسطورة، لكنه ردّ بأن أبلغني بدخوله في عزلة فنية ستستمر لبضعة أسابيع يعتزم بعدها زيارة مصر وربما تكون الفرصة مواتية حينها كي يقصّ عليّ

كل تفاصيل تلك الأسطورة. بالطبع حاولت البحث عن أي شيء يخص أسطورة هؤلاء الملائكة الثلاثة عبر شبكة الإنترنت لكنني لم أجد شيئًا يُذكر؛ فساورتني شكوك بأن الأمر برمّته لا يتعدّى مداعبة بسيطة يقوم بها «قاسم» لإثارة فضولي أو للتهكم عليّ، خاصة حين ذكر مسألة حماية الأطفال الذكور تلك.

- أنت كثير الكلام أيها الطفل الكبير، فضلًا عن فشلك في استخدام شبكة الإنترنت وكافة أصناف التكنولوجيا الأخرى. دعنا نرى هذا التمثال إذًا حتى نُدلي بدلوِنا في رمزيته، فلدينا هنا فنانة تشكيلية كبيرة.

ولم يلحظ الرجلان التعرّق والتوتّر اللذين اعتريا «جوليا» حين أشار «فاروق» إلى أسطورة تلك المرأة الملعونة التي تهاجم الأطفال الذكور والرجال، حتى إن عضلات وجهها كانت ترتعش بشدة، وتغيّر لون بشرتها حتى اقترب من الحُمرة القانية، ثم تحوّل هذا التوتر إلى تشنّج وارتعاد بمجرد أن لمحت التمثال بين يدي «فاروق» حين أتى به من غرفة نومه.

تراجعت «جوليا» خطوات إلى الخلف قبل أن تنفجّر مثل بركان اندلع بعد أن خمدت حممه آلاف السنين، وتغيّر صوتها ليبدو أكثر غِلظة واهتزّت حنجرتها برجع الصدى المخيف،

وتبدّلت ملامحها لتعكس التعبيرات الشريرة الغاضبة محل قسماتها الفاتنة المليحة، وانطلقت كرات النار من فوهة البركان لتصهر كل شيء آخر تواجد في طريقها، وارتفعت الصرخات كدانات مدفع حربيّ ضخم تسقط فوق ساحة معركة دموية، وتصاعدت أبخرة الكلمات الغريبة التي قالتها لتحرق الأنفاس في الصدور بلغة غير العربية أو الإنجليزية؛ لغة غير مألوفة للآذان!

تصلّب «فاروق» في مكانه ولم يحرك ساكنًا وكاد التمثال أن يسقط من بين يديه من فرط ذهوله، بينما حاول «صبري» التماسك واحتواء ذلك الحريق الهائل بأن عانقها علّ العناق يلملم هزيم ريحها ويعيدها إلي رشدها وهدوئها، إلا أنها تمادت وازداد عنف صرخاتها، وحلّ بأوصال جسدها الأنثوي المثير قوة تفوق قوة رجال أشداء وهي تزيح «صبري»عنها بدفعة قوية كادت أن تلصقه بالجدار من خلفه.

وفي خضم ذهولهما التقطت حقيبة يدها ووشاحها الأسود من فوق المقعد القريب وتحرّكت صوب باب الشقة وهي تزمجر، ثم صرخت بلغة عربية واضحة قبل أن تغادر المكان قائلة:

- لا يمكن إيقاف المدّ، بحر الدم سيضرب مراكبكم، الأمواج عاتية والريح خبيث، انتظروا المحتوم وأنتم صاغرون، لا

تقاوموا فلن تُجدي المقاومة، ولا تحتموا فلن تُنجيكم الحماية، قِفوا في أماكنكم وارقبوا الطوفان، قفوا.. قفوا.. قفوا!

ثم انطلقت مندفعة إلى الخارج بينما وقف الرجلان يتبادلان فيما بينهما نوبات الصدمة والذهول إلى أن ثاب «فاروق» إلى رشده فصاح في «صبري»:

- اتبعها.. قد تؤذي نفسها وهي في هذه الحالة!

وذهب صبري.

- لم تستجب لاتصالاتي، ولم تفتح الباب كي أدخل، فانتظرت على الرصيف المقابل للفيلا حتى أظلمت أنوار غرفتها، وبدا لي أنها خلدت للنوم أخيرًا:

- «صبري».. استمع إليّ جيدًا. ماحدث من «جوليا» اليوم حدث أمامي ورأيته بعينيّ، لذا فرأيي هذه المرة قائم على مشاهدتي وليس بناءً على حكاياك، وأرى أن المسألة محتومة ولا تحتاج إلى خبير يكتشف لنا ما نحن بصدده!

أتاه صوت «صبرى» مُفعمًا بالأسى وهو يقول:

- نعم.. يبدو الأمر كذلك.

- بل هو كذلك بالفعل، وقد يزيد تشكيك وعدم اقتناعك

ومن ثم عدم وصولك إلى حلّ نافذ من خطورة ما تواجهه «جوليا»! عليك أن تتصرّف فورًا وقبل فوات الأوان!

- وماذا تريدني أن أفعل؟

- مثلما نفعل إزاء التعرّض لأي مرض، نقوم بالكشف وتشخيص العلّة ثم الشروع في العلاج بكل الوسائل المتاحة لنا، والمسّ الشيطاني مرض كسائر الأمراض، لكنه مرض يصيب الروح ويترك ندباته على قدرات العقل في التعايش مع الواقع، فيبدو صاحبه بلا روح ويفقد رجاحة العقل وتقدير المواقف.

- هل تدّعي أن «جوليا» قد مسّها الجنون؟

- كلا، بل أجزم أن «جوليا» قد مسّها الشر، والشرّ سرطان يزحف داخلها ويحدّد متى تصيبها نوبات الغضب غير المبررة تلك، بل يجعلها تتخذ كافة الوسائل الجانحة لإخراج هذا الغضب والتعبير عنه.

- وكيف يكون العلاج برأيك؟

- خطوة العلاج الأولى تكون حتمًا بالاعتراف بوجود المرض، ثم تأتي الخطوة التالية بعرض المريض على طبيب مُختصّ في نوع المرض ذاك.

جاء صوت «صبري» شديد العصبية وهو يقول:

- هل سيكفّ هذا الكوكب عن الدوران إذا تكلّمت بشكل مباشر يا «فاروق»؟

- على رسلِك يا صديقي، فلن يرتاح لي بال حتى أجد هذا الطبيب المعالج أثناء فترة وجودك في فرنسا، وسوف نشرع بمجرد عودتك في استئصال أورام هذا الشر.

- ربما صار من الأفضل الآن أن أعتذر عن تلك الرحلة؛ أعرف أنني لن أكون مطمئنًا على «جوليا» أبدًا وأنا بعيد عنها.

- لا يمكنك الاعتذار الآن عن تكريم ضخم كذاك الذي ينتظرك في باريس يا «صبري»، ثم أنك لا تمثل نفسك حتى تتراجع عن الذهاب! توكّل على الله ولا تقلق، وسنتخذ خطوات العلاج بمجرد عودتك، اترك لي هذا الأمر وسأجد المَخرج.

أنهى «صبري» المكالمة ونظر نظرة أخيرة صوب نافذة غرفة نوم «جوليا» وأكمل سيره فوق الرصيف بلا هدي تاركًا سيارته وحيدة بجوار سور حديقتها. وقبل أن يتوقف مرة أخرى ويخرج علبة سجائره من جيب قميصه الأبيض و يشعل سيجارة منها، كانت بجواره سيارة بدا أنها لم تتحرك من ذلك المكان منذ فترة طويلة؛ تغطيها طبقات من الأتربة المتراكمة فوق سطحها المعدني فتخفي تمامًا لون طلائها عن

العيون.

ألقى بسيجارته فوق الأرض ودهسها بنعل حذائه وهو يقترب من جسد السيارة الرابض تحت فراش الإهمال والتغافل، وحين وضع كفّ يده كاملًا فوق سقفها انطبعت آثار أصابعه الخمسة فوق طبقات الغبار والتراب، فانكشف لون طلائها الأسود..!!

***

(٥ / ٤ / ٢٠١٥)

خمسة أشياءٍ بها الله انفرد

ليعرف الخلق مَن الفرد الصمد

إنزاله الغيث وعلم الساعة

وعلم ما في رحمٍ من ولد

وما دَرَت نفسٌ بما في غدها

تكسبُ أو في أي أرضٍ تفتقد(024)

تخطت الساعة الثانية صباحًا حسب التوقيت المحلي لمدينة القاهرة حين دخلت «جوليا» من بوابة البار اليوناني الطراز الكائن في أحد الأطراف الراقية من شرق القاهرة وجلست فوق مقعد مرتفع أمام طاولة الشراب الرخامية، وطلبت من الساقي كأسًا من مشروب الفودكا مختلطًا بعصير البرتقال الطازج.

وسرعان ما بدأت رأسها تتمايل بتأثير الشراب، ومعه راح جسدها يتمايل بتأثير الإيقاع الصاخب للأغنية الصادرة من مكبّرات الصوت في المكان، حتى بدا جسدُها لكل الحاضرين نموذجًا للغواية وأيقونة للإغراء، حيث كان فستانها الأسود القصير المطرّز ببعض النجوم البرّاقة على جانبيه يُبدي أكثر

مما يُخفي، فكشف عن أغلب ساقيها والجزء الأكبر من نهديها مع استمرارها في التمايل المثير فوق المقعد المعدنيّ ذي الأرجل الطويلة، حتى اقترب منها رجل قوي البنية في منتصف الأربعينيات من عمره تعلو وجهه علامات التنمّر والتربّص بأنوثتها، ودعاها إلى مشروب آخر فقبلت بدون تردد.

***

تخطت الساعة الواحدة صباحًا حسب التوقيت المحلى لمدينة باريس حينما خرج «صبري» من فندقه الفيكتوري الطراز الكائن في أحد أطراف غرب باريس متجهًا نحو أحد المقاهي القريبة من ذلك الفندق، فجلس فوق مقعد معدني لامع أمام طاولة رخامية مستديرة على طرف الرصيف المبلط بالأحجار السوداء القديمة.

كان يومه طويل جدًّا منذ أن استيقظ في الصباح الباكر كي يستعد لحفل تكريمه من رابطة الجاليات العربية في فرنسا، والذي تمّ في منتصف نهار اليوم السابق، ثم أعقبته دعوة على العشاء من بعض مسؤولي الرابطة. وتخلّل كل أحداث ذاك اليوم محاولاته المتكررة للاتصال بـ «جوليا» التي لم تستجب لأي من اتصالاته كما فعلت منذ أن سافر إلي فرنسا. وفي نهاية اليوم جافاه النوم تمامًا فقرّر أن يترك غرفته في

الفندق وقضاء بعض الوقت في أحد المقاهي لاحتساء مشروب ساخن.

وبالفعل طلب من النادل فنجانًا من القهوة الفرنسية النفّاذة حين مرّت أمامه على الرصيف المقابل للمقهى فتاة ليل شديدة الجمال أرسلت له ابتسامة تفتتح بها بنود الصفقة المحتملة، وانتظرت أن يبادلها الابتسامة حسب قوانين العرض والطلب، إلا أن «صبري» أشاح بوجهه بعيدًا وبدون أي تردّد في إشارة إلى رفضه ذاك النوع من التجارة.

أوشكت الصفقة على الانتهاء ولم يتبقّ إلا الإعلان عن بنودها قريبًا؛ فالرجل الضخم القوي البنية قد دعاها مع كأس الفودكا الثالث إلى أن تصحبه إلى منزله القريب من موقع البار، وأعلنت هي أنها مستعدة لقبول دعوته بعد أن تشرب كأسها الرابع، ثم أطلقت طرفة تبعتها بضحكة طويلة حين قالت له «لا تتعجل، فأنت كأسي الرابع الذي يجب أن أتمّه». لم يفهم الرجل مقصدها، ولم يهتم بما أضحكها، وفسّر تصرّفها بهذيان الثمالة، فضلًا عن أنه كان مشغولًا أكثر بارتجاجات نهديها وهما يتمايلان مع تمايلات جسدها فوق المقعد.

***

لم يكتفِ بفنجان القهوة الفرنسية الذي احتساه ولقد تملّك

الصداع الشديد من رأسه واختلطت الأفكار في عقله وتماهت تفاصيلها، فطلب من النادل أن يأتيه بفنجان آخر لعله يستطيع أن يعيد ترتيب أشلاء مشاعره ويصل لصياغة مقبولة لخططه المبعثرة؛ غدًا يعود إلى القاهرة وسوف يتوجّه رأسًا من المطار إلى فيلا «جوليا» ويبدأ في تنفيذ مُخطّط العلاج الذي أعدّه طوال اليومين السابقين. نعم.. كانوا جميعًا على حق؛ أبوه و «فاروق» والشيخ «عبد البر»، ولم يعد للإنكار الذي مارسه طوال الفترة السابقة أية فائدة. هي حقًا حقيقة مرة ومخالفة لأفكاره ومنطقه لكن يجب الرضوخ للأمر الواقع الذي بات يؤكّد، وبدون أدنى شك، أن حبيبته ملعونة بلعنة شيطانية غامضة.

وحين تتوقف قدرات العقل عن الفهم، ويستعصي على المنطق صناعة التعليل، يجب عندئذ اتباع ما هو روحاني والتسليم بأن للعقل أيضًا مواطن قصوره، وأن هناك في هذه الحياة ما لا يخضع للملموس الماديّ، ويخضع فقط للمحسوس المعنويّ.

***

اقتربت الساعة من الرابعة والنصف صباحًا وبدأت شوارع القاهرة تخلو من روّادها شأن تلك الساعة من كل يوم؛ هدأت أخيرًا البيوت الزاخرة بالحركة والزخم حين بلغ الإنهاك

بساكنيها مبلغه، واختفت من المشهد السيارات المتصارعة على جسد شوارع حي مصر الجديدة، ولم يتبقَ منها إلا بعض الذئاب المعدنية تنهش الطرقات في آخر ما تبقّى من خيوط ظلام هذا الليل، ومن بين تلك الذئاب القليلة التي كانت تسعى للاختفاء قبيل حلول أول خيوط النهار كانت سيارة الرجل الذي تعرّف على «جوليا» في البار تسير باتجاه مخبأه القريب، بينما لم يُطّق الرجل السكّير في داخل السيارة صبرًا حتى يصل بصحبة «جوليا» إلى منزله، فأخذ يتحسّس فخذيها المكشوفين بيمناه بينما تشبثت يسراه بمقود السيارة.

وكانت هي هائمة تشاهد بقية أفراد قطيع الذئاب من نافذة السيارة في صمتٍ وبدون أي استجابة للمسات يده التي أوشكت على الوصول لكهفها المُحرّم.

***

اقتربت الساعة من الثالثة والنصف صباحًا وبدأت شوارع باريس تخلو من روّادها شأن تلك الساعة من كل يوم؛ أُغلِقت أغلب المقاهي المبعثرة في الشوارع واختفى وميض الدُرّات المتلألئة في العقد اللازورديّ الذي يزيّن جِيد تلك المدينة، وسكنت الغالبية العظمي من أصوات الموسيقى الحالمة التي تتجاوب مع بعضها البعض لتصنع هارمونية معزوفة الليل الباريسي، وانحصرت موجات العطور الصادرة من فساتين

النساء وحُلاّت الرجال لتترك مكانها رائحة الفراغ وبخر الطقس الربيعي.

وكان هو هائمًا في مشاهدة الزوجين العجوزين الجالسين على منضدة قريبة منه وهما يتبادلان القبلات المُحبة المُجرّدة التي انسلخت منها أي من الرغبات القديمة للأجساد، وانتفت منها ثورات شهوات الشباب العاصفة، فابتسم كلٌّ منهما للآخر ابتسامة بطول سنوات عمرهما المديد وهما يستعدان لمغادرة المكان والمّضيّ قدمًا في نسيان المادي الملموس والإبقاء على المعنوي المحسوس.

***

اجتذبها من ذراعها برفقٍ كي تتخطى معه البوابة المعدنية للبناية التي يسكن بها، وقادها عبر الردهة الفسيحة لمدخل البناية، ثم أمسك يدها وضغط على بشرتها ضغطة شهوانية وهو مستمر في اقتيادها باتجاه المصعد الكهربائي الموجود في نهاية الرواق.

- من حسن الطالع أن حارس العقار نائم.

لم تلتفت إلى ما قاله لانشغالها برؤية انعكاس صورتها عبر المرآة الكبيرة المعلقة فوق الجدار الرخامي للرواق المؤدّي إلي المصاعد الكهربائية، فطالعها تبرّجها المبالغ فيه ولم تلمح

وجهًا تعرفه. شعرت بأنها ترى فتاة أخرى ذات شعر أحمر كستنائي مُستعار ولم تتذكر لون الشعر المخفيّ تحت هذه الكذبة.

دفعها الرجل برفق إلى داخل المصعد، فتحرّكت معه تاركة نظرة وداع ظنّت أنها الأخيرة لوجه الفتاة غير المألوف، ولكن بمجرد دخولها إلى المصعد بزغ لها وجه الفتاة مُجددًا من المرآة الصغيرة الموجودة بداخل الصندوق المتحرك، فأشاحت بنظرها بعيدًا عنها ثم نظرت صوب الرجل وهو يضغط على زر الطابق الخامس في لوح أرقام المصعد.

* شعر بشيطان الشِعر يداعب قريحته ويجتذبه من حالة السكون التي تملّكت منه في الدقائق الأخيرة، وكأن التفكير في أمر حبيبته قد أثار شجو كلماته وأطلق قطار خياله من محطته الحالية، او كان القهوة الفرنسية قد نبهت بنات خياله وأيقظتهن من غفوتهن الليلية، أولعله مشهد العاشقين العجوزين قد حرّك في داخله الرغبة في النظم وإخراج ومضة من ومضات مشاعره الحبيسة. لم يُحدّد سببًا واضحًا للرغبة العارمة التي حلّت به الآن كي يعبّر عمّا يدور في خاطره من شعور وأفكار. لعلّها كانت كل تلك الأسباب مجتمعة، أو ربما سبب آخر لم يفطن إليه بعد، إلاّ أنه رَضَخ في النهاية واستجاب.

أخرج من جيب حُلّته دفتر ملاحظاته الصغير وذاك القلم الفضيّ الذي يعتبره رفيقه الدائم منذ أهدته إياه «جوليا»؛ أول هدية في عُمر علاقتهما، وشَرَع يكتب!

أنا لا أعرف ما الذي حدث..

ربما غفوتُ قليلًا فسقطت من فوق جوادي الأسمر

وربما متُ فكان الموت سقوطا من فوق الدفتر..

أنا لا أعرف ما الذي سأقوله

إذا سألتني العرَافة عن اسمي..

وإذا سألني موظف الاستقبال عن بطاقتي الشخصية

وإذا سألتني ذاتي أين وضعت علبة سجائري..

أنا لا أعرف متى وصلت إلي هنا

ومتى ركبت البحر ومن رافقني..

أنا لا أعرف الآن إلا الخوف مثلكم

والحزن مثلكم.. والصمت مثلكم

أعترف أنني حاولت كثيرًا أن أنسلخ من جلودكم المموهة

وأخرج من عباءاتكم الرمادية

وأن ألتقي بيقيني المنتظِر خلف بوابات المدينة

وأن أرقص مع الشمس بدون موسيقى

لكنني مثلكم..

أقف على الشاطئ وأدّعي الإبحار

تصافحني الحقيقة وأدّعي الإنكار

تراني عيناي من خلف عينيّ

وأسأل الجميع أين ذهب الإبصار..!!

كل العشاق يقامرون

وكل المقامرين يأمَرون

وكل المأمورين لا يتذكرون

وأنا نسيت...

فهل بينكم شجاع واحد يستطيع البوح بهذه الممنوعات؟

وهل بينكم ذكي واحد كي يشاركني مغامرتي الأخيرة؟

وهل يوجد ما يكفي من أخشاب السنط لصناعة مركب نوح جديدة؟

قد يكون الغد آخر الأيام

والانتظار يزيد الهُوّة عُمقًا

قد يكون هذا البحر مطيعًا

ولا يلقينا للشاطئ غرقى

قد يكون الخلاص في قُبلةٍ

وقد يكون الضياع في قُبلةٍ

لا بد وأن نكتشف المطمور

لا بد وأن نسعى كي نبقى ..!!

أيها الأغبياء الخانعون

الشيطان ليس بنكرة..

الشيطان الفكرة..

والفكرة لا تقاومها إلا الفكرة

فليمد أحدكم يدًّا

كيّما نسدّ الثغرة

ولنلقي البسمة المطمئنة

فوق عيون الحسرة

ولنشرب من نهر الحب

قد خُضنا في مياهِ عكرة

خُلِقنا أسيادًا أحرارًا

فأين نفوسكم الحُرة؟

أين نفوسكم الحُرة؟!

***

لم يطق الرجل صبرًا حتى يصل المصعد إلى الطابق الذي يوجد به منزله، بل أخذ يعانقها بطريقة بدائية بربرية كادت ضلوعها تتشابك من إثرها، وراح يُقبّل عنقها بشهوة جائعة لاغتراف طيبها وثمارها الشهية. ولم تقاومه، أو بالأحرى لم تشعر بأنفاسه المشبّعة بالكحول ولا بلثماته التنينية، بل عادت لتنشغل بمتابعة صورة الفتاة صاحبة الشعر الكستنائي المستعار، المّغالية في تبرّجها، التي تنظر إليها عبر مرآة المصعد بتفحّص مريب.

وفجأة، سمعت صوت المرأة المعتادة وهي تتحدث معها عبر صورتها المنعكسة فوق المرآة:

- الرابع قربان سيضيء النور في عينيّ السيد؛ الرابع يُدنيكِ من ملكوت الجحيم بخطوة قبل أخيرة؛ الرابع ينجيكِ من خرافات الحب ويصنع طوفًا جديدًا للإبحار في ظلمات الطاعة، والباقي من الطريق بات قصيرًا ويجب أن ننهيه، فلا

مجال للانتظار. النفس مُقيّدة والقيد حديد ونار. القيد سوار العشّاق وطوق الحب الأبديّ و سر الختم على القلوب. هيَّا يا ابنتي، هيَّا أيتها النفس المُقيدة كي ترتاحي، فقد أوشكت روحك على نيل الحرية.

أطلق المصعد صافرة وصوله إلى الطابق المسجل في دائرته الكهربية فتركها الرجل تخرج من عناقه المُحكم واستدار كي يفتح الباب وهو يُمنّي نفسه بالقادم من الملذات، ولكن ما إن استدار وهمّ بفتح الباب كانت «جوليا» قد أخرجت سكّينها المخفيّ في حقيبتها ووثبت من سُباتها وثبة عنيفة انقضّت بها على ظهر الرجل كنمر شرس حانت لحظة هجومه على فريسته، فشبكت قدميها حول خصر الرجل وأمسكت بذقنه بقبضة شديدة الإحكام يسّرت لها جذب رأسه قليلًا إلى الخلف كاشفة عن الزاوية التى تحتاجها لحركتها القادمة، فمرّرت بيدها الأخرى نصل سكّينها الحربي فوق عنق الرجل فنحرته، ثم نزلت عن ظهره وتراجعت إلى الخلف حتى التصقت بجدار المصعد بينما كان الرجل يصارع آثار نزيف عنقه برأسٍ شبه مفصول، ولم تمرّ إلا ثواني قليلة حتى خارت قواه وانهار ساقطًا مانعًا بجسده باب المصعد من أن ينغلق، وتمدّد أخيرًا بنصف جسده خارج المصعد ونصفه الآخر بداخله.

***

انتهى «صبري» من نظم قصيدته الجديدة، وحين همّ بتذييلها بتوقعيه سالت دفقة من حبر القلم فوق الدفتر..!!

***

التقطت «جوليا» أنفاسها اللاهثة وهي تمسك بالسكّين وطرفه المدبّب باتجاه الأسفل فسالت الدفقة المتبقية من دم الرجل أثر الذبح على أرضية المصعد..!!

***

(٦ / ٤ / ٢٠١٥)

خمس سور قرآنية تبدأ بـ «الحمد لله» وهي: سورة الفاتحة (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، والأنعام (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)، والكهف (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)، وسبأ (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)، وسورة فاطر (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(023)

لم تظهر الشمس إطلاقًا خلال ذلك اليوم، وهجمت عاصفة ترابية ربيعية على سماء القاهرة فأخفت الشمس وراءها ومنعتها من التلصّص على نوافذ المرسم القابع في الطابق السفلي لفيلا «جوليا»، ولم يُشكّل لها هذا الطقس المعتم الكئيب أي فارق؛ فلم تحاول إزاحة ستائر النوافذ وتقصّي حالة الطقس منذ أن استيقظت من نومها، وتوجّهت بمجرد نهوضها من فراشها إلى المطبخ مباشرة لصنع كوب القهوة الأمريكية، ثم جلست أمام حامل اللوحات الخشبي وشرعت في وضع الخطوط الأولى للوحتها الجديدة.

مرّت بضعة ساعات وهي مستغرقة كعادتها في إعمال إبداعها إلى أن تعالّت الطرقات المتتالية على الباب فأخرجت روحها الهائمة من هذا التيه.

توجّهت بعصبية شديدة إلي الباب وفتحته بشكل جزئي حتى ترى وجه الطارق المزعج، بيد أن حنقها ذاك هدأ دفعة واحدة حين طالعها من خلف الباب المردود وجهه المليح مبتسمًا، ففتحت الباب على مصراعيه وقفزت نحوه تعانقه بحرارة وهي تهتف بفرحة عارمة:

- «صبري»؟

استقبل عناقها بنفس الحرارة وقبّلها قُبلتين رقيقتين فوق وجنتيها وهو يقول فى عتاب رقيق:

- أحمد الله أنك مازلتِ تتذكرين هذا الاسم.

أخفت رأسها بين عنقه وكتفه من جمّ شعورها بالخجل، وخرج صوتُها مفعمًا بشعور كبير بالذنب وهي تجيبه قائلة:

- آسفة، أعرف كم أبدو حمقاء أمامك.

ربّت على كتفها بحنان:

- ليس هذا آوان العتاب ولا الحساب، سيأتي وقتٌ آخر نتحدّث فيه عن تصرفاتك معي وعلاقتنا، وحينها سنقوم بوضع النقاط فوق الحروف بشكل نهائي.

- نعم، الأهم أنك أمامي الآن والحمد لله على سلامة وصولك.

بدا «صبري» أكثر جدية وهو يقول:

- وهذا ليس هو الأهم أيضًا؛ فالأهم هو الاطمئنان على سلامتك أنت!

أصابتها دهشة فسألته:

- سلامتي أنا؟ ماذا تعني؟ أنا في خير حال، ثم..

قاطعها بحزم:

- «جوليا»، هناك ضيفان معي ينتظران بالخارج في السيارة، هل تسمحين لي بإحضارهما ودعوتهما للدخول؟

ازدادت دهشتها وقالت:

- أنا لا أفهم شيئًا، ولكن ضيوفك هم ضيوفي على أية حال، وتستطيع إحضارهما بالطبع.

***

دخل «صبري»من باب المرسم وبصحبته الشيخ «عبد البر» والشاب الذي يعاونه، وقدّمهما إلى «جوليا»، ثم شرح لها أسباب تلك الزيارة المفاجئة، حيث أنه اتفق مع أبيه العمدة أن يرسل الشيخ «عبد البر» إلى القاهرة في نفس يوم وصوله من فرنسا لأنه لم يعد يطيق صبرًا للوصول إلى حلٍّ حاسمٍ لما تواجهه علاقتهما من مخاطر داهمة بسبب تصرفاتها

المستهجنة في الآونة الأخيرة، كما أنها كانت ستوفر عليه هذا الإحراج إن استجابت ولو لمكالمة واحدة من مكالماته التي قام بها طيلة الأيام السابقة. أخبرها أنها لن تعاني من أية أخطار لأن الشيخ سوف يكشف عليها من خلال هذا الشاب الوسيط في محاولة للوصول إلى الأسباب التي تدفعها أحيانًا إلى الإتيان بمثل تلك التصرفات الجانحة، وحاول إقناعها بأنه بات يعتقد فيما يرقى إلى مرتبة اليقين أن كل ما يصيبها إنما هو بسبب قوى غيبية شريرة وليس بسبب أية ضغوط، كما أنها ليست حالة من حالات الشتات النفسي المترتب على الإبداع الفني كما تتعلّل هي بذلك دائمًا. حاول «صبري» أن يطمئنها بأن الشيخ عبد البر أبعد ما يكون عن المشعوذين والدجّالين، فهو رجل صالح يقتفي مسالك السحر والمسّ ويعالجها باستخدام آيات الله المحكمات، كما أنهم لن يخسروا شيئًا إن خاضوا تلك التجربة، بل ربما تكون الخسارة حقيقية إن لم يفعلوا.

تسرّب الغضب الشديد إلى نفس «جوليا» وشعرت بأنها توزّطت في هذا الموقف الذي لا يقبله عقلها ولا تجد أي بُدٍّ منه. فهي في ظنها ترى أنها أبعد ما تكون عن الحاجة لمثل تلك الأمور، ومازالت لا ترى في كل ما بَدَر منها سوى عصبية وجنوح الفنانين في التعبير المختلف عن مشاعرهم، حتى وإن بدا هذا التعبير جنونًا في بعض الأحيان؛ ألا يقولون إن

الفنون جنون؟ أليس هو ذاك الرجل الذي يدّعي لها دائمًا تحرره وفكره التقدمي الذي جعله يستوعب كم هي مختلفة طبائع البشر ورغباتهم ووسائل تعبيرهم؟ فلماذا يعود الآن إلى رجعية وتخلف أفكار الشرق، ويربط كل ما يستعصى عليه تفسيره من خلال رؤيته السطحية بعالم الغيبيات والجن؟!

لكنها لم تُرِد إحراجه أمام ضيفيه، فرحّبت بالشيخ على مضض وبكلمات مقتضبة، وطلبت منه ومن رفيقه الجلوس. وبمجرد أن جلس الجميع أخذ الشيخ «عبد البر» يردّد أدعية الاستغفار والتوبة لفترة ليست بقصيرة، ثم طلب من «صبري» أن يبدل مكان جلوسه مع «جوليا» حتى تجلس هي إلى جواره فوق الأريكة. وبالفعل جلست «جوليا» مكان «صبري» إلى يمين الشيخ، بينما كان الشاب جالسًا إلى يساره، واستقرّ «صبري» على المقعد المقابل لهما. وضع الشيخ يده اليمنى فوق رأس «جوليا» وهو يتلو الكثير من الآيات القرآنية المتفرّقة بلا انقطاع بينما لم تكف «جوليا» عن النظر شزرًا إلى الشيخ الذي زاد من إيقاع تلاوته، ورفع من حدّة صوته تدريجيًّا حتى بات أشبه بمن يصرخ في وجهها دون أن يظهر عليها أي تأثر بل زادت نظراتها تحدٍّ واستنكار لما يفعله الشيخ، بينما كان «صبري» ثابتًا في محلّه، ينظر لهما بترقّب.

الشخص الوحيد الذي بدا عليه التأثر مع تعالي إيقاع

تلاوات الشيخ كان الشاب المعاون له؛ فبدأ جسده يهتزّ بعنفٍ إلى الأمام وإلى الخلف كمصعوق بتيار كهربي، إلى أن صرخ بشكل مفاجئ وبصوت معدني غليظ اقشعّر له بدن «صبري»:

- ماذا تريدون؟

صرخ الشيخ «عبد البر» في وجه الشاب:

- ارفع صوتك أيها الملعون حتى أسمعك، فسمعي ضعيف.

عاد الشاب لتكرار ما قاله بطبقة صوت مرتفعة للغاية:

- ماذا تريدون؟

- بل ماذا تريد أنت من ابنتنا :جوليا»؟

- أريدها زوجة لي.

- خسئت أيها الملعون! هي من بنات الإنس وأنت من رجال الجن وليس بيننا وبينكم عهد زواج.

- ستظل إذًا محظيتي كما هي الآن، وسوف أُفرّق بينها وبين هذا الشاعر المخنّث.

صرخ الشيخ «عبد البر»:

- التزم الأدب وإلا أحرقتك! هل أنت عاشق فقط أم أنك خادم لسحرٍ ما؟

- قلت لك أنا أريدها زوجة لنفسي وليس هناك سحر يُحرّكني.

- كاذب كبني جنسك، بل تتحرك بإمرة سحر للتفريق بينهما، أشمّ رائحة السحر المدفون في بطن القبر، وما أنت إلا كلبه الخادم.

قاطعتهما «جوليا» بشكل مفاجئ صارخة:

- ما هذا العبث؟! كُفّ عن هذا الهراء حالًا أيها العجوز المخرف!

توقّف الشيخ «عبد البر» وانتفض الشاب الوسيط انتفاضة هائلة عاد بعدها إلى وعيه، ونهض «صبري» من مقعده وتوجّه إلى «جوليا» ملتمسًا منها الهدوء والصبر:

- حبيبتي، أرجوكِ! دعيهما يكملان وامهليهما الفرصة كاملة قبل أن تحكمي إن كان هذا عبثًا أم لا في النهاية. أرجوكِ!

ردّت «جوليا» بعصبية:

- لست مضطرة للانتظار حتى أحكم على ما يحدث! إنه العبث والجهل بعينه.

نظر لها الشيخ «عبد البر» وقد عاد الهدوء إلى صوته:

- هل أنت مؤمنة يا ابنتي؟

أجابته بعدم اكتراث:

- نعم، أنا مؤمنة، ولكن ما علاقة ما تقوم به الآن بالإيمان؟!

- علاقة وطيدة! وفي آيات القرآن والكتب السماوية الأخرى ما يكفي من أدلة على وجود عالم الجن، ويحدث أحيانًا أن يعشق أحد سكان ذلك العالم ذكرًا من أبناء آدم أو أنثى من بنات حواء، ويبدو أن هذا ما نحن بصدده في حالتك، وكما سمعتِ أن هناك عاشقًا لك من عالم الجن يريد الزواج منكِ، سخّره أحد السحرة الملاعين ليفرّق بينك وبين «صبرى»، وهو من يصنع بكِ تلك الأشياء العجيبة وقد يُفضي في النهاية إلى القضاء على علاقاتك الطبيعية بعالم الإنس كما بات يحدث لكِ مؤخرًا.

- محض خرافات!

- يا ابنتي، يقول رسول الله صلي الله عليه وسلم (الْجِنُّ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ : صِنْفٌ لَهُمْ أَجْنِحَةٌ يَطِيرُونَ بها فِي الْهَوَاءِ ، وَصِنْفٌ حَيَّاتٌ وَعَقَارِبُ وَصِنْفٌ يَحِلُّونَ وَيَظْعَنُونَ)(022).

أما الصِنف الأول، وهو الجن الطيار، فهو نوع يطير في الهواء كما يطير الطير في السماء، ويقطع المسافات بسرعة عالية، والبعض يسمّيه «الريحاني» نسبة إلى الريح. وهذا النوع من الجن إذا تلبّس الإنسي لا يستقر في الجسد أحيانًا، وله خِفّة في الحركة، وهو في الغالب شرس الطبع، وقد يهرب من

جسد المصاب إذا شعر بالخطر ما لم يكون مربوطًا بسحرٍ سُفلي. وهنا تكمن الصعوبة في التعامل مع هذا النوع حيث لا يخرج من جسد المصاب بسهولة، بل إنه غالبًا لا يتعب ولا يملّ لأن وجوده بالجسد هو رغبة منه وعشق له. وهذا الجن لا يُستخدم كثيرًا من قِبَل السحرة، قاتلهم الله، بل يدخل الجسد في أغلب الأحوال بسبب العشق. أمّا إن تسلّط عشقه وغرامه بسبب السحر فتزداد خطورته، وتصير أضراره أشدّ فداحة، كما هو في حالتك. وليس هذا فحسب، بل قد يصل من خطورة عشقه للإنسي أنه يقتل بدافع الانتقام لعدم مبادلته العشق أو بسبب الغيرة. وفي ذلك يقول شيخنا الإمام ابن تيمية في أمره (وَصَرْعُهُمْ لِلْإِنْسِ قَدْ يَكُونُ عَنْ شَهْوَةٍ وَهَوًى وَعِشْقٍ كَمَا يَتَّفِقُ لِلْإِنْسِ مَعَ الْإِنْسِ وَقَدْ يَتَنَاكَحُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ وَيُولَدُ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ وَهَذَا كَثِيرٌ مَعْرُوفٌ)(021).

سألته بعصبية ساخرة ومستنكرة:

- ابن تيمية؟

عند هذه اللحظة سمعت «جوليا» صوت المرأة يهمس في أذنها:

- يا ابنتي دعيهم يعبثون ودعينا نروّح عن أنفسنا بسذاجتهم، فإدراكهم محدود، وأفقهم ضيّق، وضلالهم متسع، وصلفهم سميك، فلنصمت ونتركهم يكملون غباءهم.

نظرت «جوليا» إلى الشيخ «عبد البر» مبتسمة، وقالت:

- حسنًا.. أكمل يا مولانا.. أكمل!

***

اللهم صلِّ على سيدنا محمد صلاة تكشف بها عن «جوليا» بنت «ليليت» هذا الكرب، والحمد لله العلي القدير.. بسم الله وبالله وعلى بركة الله وعلى مِلّة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، أدعوك ربي فأجبر دعوتي اللهم يا خالق الشهوات انزع شهوة كل عاشق في بدن «جوليا». بسم الله الأعظم ربطت شهوة كل معتدٍ وظالم عنها.. بسم الله الأعظم ربطت أعضاءه وشهوته عنها بعقدة كهيعص عقدة لا تنفك إلا بالموت.. اللهم بهذه العقدة سوي هذا الجني العاشق بالمشلولين والمقعدين فلا يجد فى نفسه شهوة ولا رغبة بابنتنا «جوليا» صاحبة هذا البدن المستقيم

بسم الله الأعظم يربط.. وبسم الله الأعظم يعقد.. وبسم الله الأعظم تبرد الشهوات في بدنك أيها العاشق المعتدي!

همست المرأة في أذن «جوليا» في خضم انفعال الشيخ «عبد البر» وضربه للهواء بعنفٍ شديدٍ:

- يكفينا هذا الحدّ من التسلية! العقاب ليس لهذا الرجل المخرّف، بل العقاب لمن جلبه، هيَّا يا حبيبتي عاقبيهم، هيَّا..

ضعي حدًّا لخرافات بني الإنس والجن حتى يعلموا أن قوة السيد تفوق قواهم جميعًا، وبسمة السيد تأتي من تذللهم وانكسار نفوسهم.

نهضت «جوليا» من فوق مقعدها وانحنت صوب الشيخ «عبد البر» حتى يسمعها دون أن تضطر لرفع صوتها، وصفّقت بيديها وكأنها تستحسن المشهد الختامي للعرض، وقالت:

- وأخيرًا نجح الشيخ الأصمّ في ربط الجني العاشق وجَعَله عاجزًا جنسيًّا فلن يستطيع إشباعي من بعد اليوم، ولن يقدر على إيصالي للشهوة المتقدة.

وقبل أن يرد الشيخ «عبد البر» استدارت باتجاه صبري، وفي لحظة استدارتها بدا لها أن كل شيء يتطاير في المكان من حولها؛ الأثاث والجدران والأشجار خارج الفيلا، بل الشيخ عبد البر ومعاونه، وكأن عاصفة ساحقة شرعت في ابتلاع تفاصيل المكان جميعها، ولم يتبقّ في المكان غيرهما، هي و«صبري»، يقفان في مواجهة بعضهما البعض في منتصف نجمة خماسية سوداء رُسِمت على أرضية حمراء كأنهما متنافسان في حلبة مصارعة يستعدّان لخوض معركة دموية لن تنتهي إلا بقضاء أحدهما على الآخر. وكان هناك مَلِك مهيب، ذو هالة عظيمة، يرتدي قناعًا ذهبيًّا على هيئة كبش يرقبهما من فوق عرشه البعيد عن مركز النجمة، وتقف بجواره

تلك المرأة المخيفة التي باتت تصاحب «جوليا» على الدوام في الآونة الأخيرة، لكنها لم تكن بهيئتها المخيفة المعتادة، بل كانت أجمل من أي وصفٍ للجمال قد رأته عين أو سمعت عنه أذن، ويتدلّى من عنقها مجموعة كبيرة من القلادات الذهبية اللامعة.

اقتربت «جوليا» من «صبري» أكثر وأكثر حتى كادت تلتصق به، ونظرت في عينيه نظرة متحدية، ونطقت بصوت المرأة المخيفة التي كانت توسوس في رأسها بما يجب أن تقوله:

- أنت كما أبوك آدم، تريد فرض الهيمنة على مصيري، وأنا كما أمي ولن أسمح لك بهذا، سأتحداك أنت وشيخك وإلهكم كما فعلت أمي وتحدّكتم جميعًا في أول الحياة.

سمعت صوت «صبري» يجيب برغم أنه لم ينبس ببنت شفة:

- ستواجهين إذًا مصير أمك، وسوف تُلعَنين وتُنفين إلى غياهب الليل لتعيشي بين البوم والخفافيش كما تعيش هي.

- وأنا قبلت التحدّي؛ فالمعركة بيننا طويلة ومستمرة لآخر الزمان، والسيد بجواري يحميني.

- هو ليس بسيّد، بل هو عبد آخر لم يظعن مثلك.

- العبيد هم أنت وبنو جنسك، العبيد هم المستمرون في

السير وراء قلوبهم، المتبّعون هراء العشق وأوهام المحبة. أما نحن فقد محونا العشق من قلوبنا، فنعمنا بحُريتنا وتسامت نفوسنا عن السقطات الساذجة.

- العشق رحمة، والمحبة سُموّ، والعطف توبة، وما أبعدكم عن كل هذا!

- رحمة؟ أي رحمة تلك التي جعلتكم تصنعون السحر باسم العشق؟ وتسخّرون أعواننا الصغار من الجن لتمارسوا شرّكم؟ وتلهثون وراء الندّاهات والعرّافات لتبدلوا مصائر لا تؤمنون بها ولا تتقبّلها قلوبكم المزيفة؟ وأي كذبٍ تسيرون وراءه فيخدعكم ويصوّر لكم أنكم الأفضل وأنكم المختارون؟

- هذه هي خدعتكم الكبرى؛ تلهثون وراء القلوب الخربة التي هجرتها المحبة فتزيدون طينها بلة، وتشوّهون ما تبقّى بداخلها من صلاح، وتحجبون النور عن نوافذها، وتمنعون ماء الطُهر من الوصول إلى روافدها، ثم تعودون للمتاجرة بها كي تثبتوا انتصاراتكم الزائفة! أما القلوب العامرة بالنور، المنغمسة في متعة العطاء، فليس لديكم عليها سلطان. سلطتكم وهمية وقدرتكم محدودة وحريتكم مقيدة.

- بل سلطاننا دائم وأبديّ، غير مُقيّد بالزمان كما قيودكم، وسطوتنا غير محدودة ونافذة إلى قلوبكم. انظر حولك ستجد أن جميعكم مشغولون بعالمنا، إما تستعينون بنا وإما

تستجيرون منّا، فأين هي حريتكم؟

- حريتنا أكبر من سلطانكم وأعظم من سطوتكم لأننا نقرر بمشيئتنا لأي صفٍّ ننحاز. أما أنتم فليس لديكم ما تنحازون إليه إلا الشؤم! حريتنا هي النور الخالد أما حريتكم فليل لا يزول!

وهنا عادت كل تفاصيل المكان تتجمّع مرة أخرى أمام «جوليا» حينما أفاقها صوت «صبري» وهو يصرخ منفعلًا:

- «جوليا».. «جوليا».. أرجوكِ دعي الشيخ يُكمل ما يفعله!

صرخت في وجهه صرخة هادرة:

- لن يكمل أحد منكم أي شيء! تفضل الآن واجمع هذه النفايات واترك هذا المكان فورًا. لن أسمح لك بتوريطي في هذه الحماقات. الليلة انكشف وجهك البدائي المتخلف. تفضل.. اترك هذا المكان ولا تعد إليه مجددا أبدًا.

بُهِت «صبري» بما قالته «جوليا»، وانتابه شلل كامل منعه من الرد ولو بكلمة واحدة؛ فعمد على الفور إلى مساعدة الشيخ «عبد البر» على النهوض، واتجه به للخروج من المكان حين وقع نظره على الخيوط الأوليّة للوحة «جوليا» الجديدة التي فاتها أن تخفيها عنه كما اعتادت أن تفعل في لوحاتها السابقة، بينما كان الشيخ «عبد البر» يردّد بحزن وأسى:

- الحمد لله.. الحمد لله..

***

(١٥ / ٤ / ٢٠١٥)

يطْرُدُ خَمْسَةٌ مِنكُمْ مِئَةً، وَمِئَةٌ مِنْكُمْ يَطْرُدُونَ رَبْوَةً، وَيَسْقُطُ أَعْدَاؤُكُمْ أَمَامَكُمْ بِالسَّيْفِ. (020)

- ما هذه البدائية؟! هل عُدنا إلى القرون الوسطى لنعالج مشاكلنا بالسحر والشعوذة وأعمال التنجيم؟! لقد أثبت بتصرفّه هذا أنه ليس إلا رجلًا غوغائيًّا كان يتخفّى وراء قناع التحضر والمدنية.

نظرت «جوليا» إلى «ريم» نظرة باهتة قبل أن تجيبها:

- أشعر بذنب كبير مما فعلته يا «ريم»! لم يكن «صبري» ليستحق أبدًا أن أعامله بمثل هذا العنف. لا أعرف ما الذي أصابني حينِها وجعلني أُقدِم على طرده بمثل تلك الطريقة المهينة وهو الذي فعل ما فعل من أجل حمايتي. ربما جانَبَه التوفيق في تصرفّه المفاجئ، لكن الحقّ أيضًا أنني أتصرّف مؤخرًا بطريقة متهورة وغير مفهومة، ولا أعرف ما الذي يدفعني إليها!

- بل أنتِ طبيعية تمامًا يا حبيبتي، وكل النساء يتصرفن هكذا تحت وطأة الضغوط، وإذا اختل توازن المرأة النفسي قد يختلّ أداؤها المعتاد مع المحيطين بها، وأنتِ على مشارف أهم محطّات حياتك، وأصبَحَت لحظة رفع الستار عن

معرضك الفني وشيكة جدًّا، ومن الطبيعي أن تكون أعصابك في قمّة توترها.

كيف لم يتفهم «صبري» معاناتك وهو من يدّعي أنه الشاعر المرهف الحس الضليع بنفسيات البشر؟! كيف قاده تفكيره الأحمق ليظنّ أن ما تعانينه ناتج عن أعمال سحرية؟! وكيف ربط لحظات اختلال توازنك بعالم الجن والعفاريت؟! بل وكيف يضعك في موقف شديد الإحراج مثلما فعل؟! صدقيني، من يفكر بهذه الطريقة قد يقضي على مستقبلك الفنيّ برمّته.

أطرقت «جوليا» وانسالت دمعة بزّاقة من عينها وهي تقول:

- لكن «صبري» رجل حقيقي؛ تحمّل المسؤولية عني ومعي منذ البداية، وساعدني وأرشدني وساندني، ولا أستطيع تخيله بعكس ذلك.

- هذا فقط لأنك ساذجة وتفتقرين إلى الخبرة الكافية لمعرفة أساليب الرجل الشرقي الداهية.

- أيّ أساليب؟

- يا حبيبتي، ربما بالغ «صبري» في عطائه في البدايات كي يثير إعجابك ويظهر أمامك بمظهر الرجل الشرقي المتمدن ذي الأصول الصعيدية الذي لا يمانع من أن تسكن حبيبته

بمفردها، ولا يجد غضاضة إن مارست مشروعًا فنيًا يجعلها متصّلة بالكثير من الرجال الآخرين من الزملاء في الوسط الفنيّ. أما وقد أوشَكَت هذه الحبيبة أن تصبح زوجة، فيجب أن تخضع لنمط الحياة الذي يليق بزوجها الصعيدي المحافظ، وبعادات أسرته ومجتمعه، فيجب أن تعيش في محراب زوجها ولا تتقدّم أية خطوة إلا بإذنه ومباركته. ولأنه يعلم أن بغيته تلك لن تتحقّق إذا جاء طلبه لها مباشرًا، فلجأ إلى أسلوب ملتوٍ وغير مباشر، مضمونه أن يبث المخاوف في نفسك ويحاوطك بالغيبيات والخرافات فتسعي مهرولة لطلب حمايته ويكون هو أمانك الوحيد، وحينها يبدأ بمقايضة تلك الحماية بشروطه ومتطلباته.

- لكن «صبري» لم يفاتحني أبدًا في مسألة كتلك، بل كان مشجعًا دائمًا لمشروعي الفني ومسانِدًا لكل خطواته.

- «جوليا».. لا تكوني مغفّلة! لماذا طرد «صبري» «عم حسّان»؟!

تردّدت «جوليا» لبعض الوقت قبل أن تجيبها:

- طرده حين شاهده يمارس بعض طقوس الشعوذة في غرفته وتملّكه الخوف أن تتسبب هذه الممارسات في أذيّتي.

ضحكت «ريم» ضحكة كبيرة وقالت:

- وبالأمس كرّر ذريعة الشعوذة هذه معك.

- نعم، هذا صحيح!

- وهل يبدو هذا منطقيًّا؟! هل أصاب السحر السفلي كل سكان حي الزمالك؟

نفذت كلمات «ريم» إلى عقل «جوليا» فبعثرت أفكارها تمامًا:

- كلا.. لا يبدو هذا منطقيًّا.

أشاحت «ريم» بوجهها بعيدًا وكأنها قد ملّت من عرض فكرتها، ثم توجهت بسؤال تهكّمي إلى «جوليا»:

- لا بد أنه ادّعى عنّي شيئًا ما كذلك.

تفاجأت «جوليا» وارتبكت بعض الشيء وهي تقول:

- بلى، أخبرني بشيء يخصّك بالفعل!

تغيّرت ملامح «ريم» وازدردت ريقها بصعوبة وهي تسألها:

- بماذا أخبرك؟

- أخبرني أنكِ حاولتِ غوايته أثناء زيارة مفاجئة قُمتِ بها إلى منزله:

ضحكت «ريم» ضحكة مصطنعة شديدة السخرية:

- فهمت الآن؛ إذًا كانت تلك الوشاية هي السبب في عدم ردّك على اتصالاتي طوال الأسابيع الماضية. حسنًا.. ليس هذا مهم الآن، إنما هو دليل جديد عن هذا الرجل الشرقي الشيطاني الذي أكلمك عنه؛ يحيطك بالمخاوف ويُخلي العالم مِن حولك حتى لا يتبقّى لكِ غيره، وحينها يبدأ في التحكم والسيطرة وتدمير ما تبقّى منكِ؛ في البداية يطرد «عم حسّان» حارس بيتك وأموال أسرتك الأمين، ثم يشي بينك وبين صديقتك الأقرب وأولى صديقاتك مذ أتيتِ إلى مصر، ثم يشكّك في علاقتك بنفسك ويدفعك للإحساس بأنك ملبوسة من الجان أو حتى مصابة بلوثة! وحين تفرغ الدنيا من حولك لا يتبقّى سواه، فيمارس سلطانه على حياتك، فيأمر وينهي فيها.

لم تجد «جوليا» ما تردّ به على حديث «ريم» الذي بدا لها منطقيًّا بدرجة كبيرة...!!

***

- أنا أحبّه! ربما أحبّه أكثر مما أحب نفسي وأهلي، ولم يعرف قلبي حبًّا غيره طوال حياتي. حدث ذلك منذ أن كنا زميلين في المرحلة الابتدائية؛ انغرست بذرة مشاعري في أرضه، ونما برعم أحلامي أمام عينيه، وتفتّحت زهرة أنوثتي داخل عناقه، وعرفتُ السهر ومصاحبة كلمات أغنيات الشوق وأنا

منتظرة هاتفة وعرفت الحزن وهوان الحياة عند خصامه، واعتبرت قلبي ملكه، وجسدي غنيمته، وسلّمت أمري لمشيئته.

وبعد كل ما قدمته من سنوات العمر، ونبضات الروح، وخيرات الجسد، هَجَرني دونما سبب وذهب لخطبة فتاة أخرى. حاولت الصبر و السلوان، لكنني كنت أكثر ضعفًا وهشاشة فلم أستطع وبدأ انهياري واستمرّ سقوطي. وعندما أعلن أن حفل زواجه قد تحدّد بعد بضعة أسابيع قرّرت أن أمنعه بأية وسيلة كانت، فهذا حقّي الذي سأدافع عنه حتى رمقي الأخير، وأريدكِ أن تعاونيني على الحصول عليه.

- لا تبكي أيتها الجميلة، حدّدي فقط ما سيشفي غليلك منه، ويهدئ من روع نفسك، وهناك جنود سوف يعملون على تنفيذ مبتغانا ومشيئتنا أيًا كانت. أترغبين أن نفرّق بينه وبين خطيبته ونزرع بينهما سدًا يرتفع كل دقيقة ولا ينهدم أبدًا؟

- كلا بالعكس! أريد أن تتم تلك الزيجة، وبعد أن تنقضي ليلة عرسه الميمون، وبعد أن ينصرف المبارِكون، أريدكِ أن تقطعي أوصال رجولته فلا تشرق عليه شمس البهجة والهناء. أريد أن تكون ليلة عرسه هي ليلة انقضاء رجولته، فلا يقدر على إشباع رغبات زوجته المختارة ولا يقدر على إطفاء نيران شهواتها. أريدكِ أن تجعلي منه أضحوكة فوق فراشها، ومُهرّجًا

فوق مسرح جسدها!

- تبحثين إذًا عن الانتقام لا عن الاسترداد.

- بلى.. أريد أن أذيقه ذُلاّ وأسقية هوانًا فيعود إليّ راكعًا نادمًا. أريده أن يعرف أن رجولته لن تُزهِر إلاّ في رحاب إثارتي، ولن تصول وتجول إلا في ميادين أنوثتي.

- لكِ هذا، لكن بالكثير من التكلفة و...

قاطعها صوت رنين هاتفها المحمول فأمسكت به على الفور ونظرت لاسم المتصلة وأجابت:

- أهلًا مدام «ريم».

جاءها صوت «ريم» مفعمًا بالحماسة والبهجة:

- حدث المُراد يا سيدة الكل.

أجابتها الساحرة بجدية:

- سأفتح مُكبّر الصوت في الهاتف وأريدكِ أن تُكررّي ما قُلتِه أمام زبونة أخرى تجلس أمامي.

وفعلت بينما كررت «ريم»:

- حدث المراد يا سيدة الكل وحلّ الخراب أخيرًا. طردت «جوليا» «صبري»من منزلها وانتهت علاقتهما بشكل مُهين

فيما يشبه الكارثة. لكم أدين لك بالفضل أيتها العارفة الواصلة. يتبقّى فقط الجزء الخاص بي وبـ «صبري»؛ أريد قلبه لي أنا.

اهتزّت الساحرة بشكل انتفضت له السيدة الجالسة أمامها وهي تُكلّم أشخاصًا غير مرئيين في الغرفة:

- القرب قرب بميعاد، القرب رغبة يا أسياد، وسعوا الهوة بين الحبيبين القديمين وضيقوها بين الجديدين، ازرعوا العشق فى قلبه للثانية والغشاوة فى عينيه للأولى، وأخبرونى متى ننول المراد.

ثم راحت تنصت لهواء الغرفة وكأن هناك من يهمس في أذنها قبل أن تنتفض من جديد وتعود لتوجه حديثها إلي ريم:

- يا «ريم» يا ابنة كريمة، يدور القمر دورة ثم يدور دورة حتى يتم الخمسة دورات، حينها تحصلين على المبتغى وتنولين المُنى.

ثم تغيّرت نبرة صوتها إلى أخرى في منتهى الدهاء والخبث وهي تردف:

- وسوف أكون في انتظارك لتجلبي المطلوب من الحلي الذهبية؛ ليس لي واللهِ وإنما هدية للأحبة وحراس العهود...!!!

***

مرّت فترة طويلة جدًّا وأنا أنعم بشهد هذا الحب مع زائرتي اليومية بين صحوي ومنامي. تملّكني شعور أنها تهبني قوة ما وتسقي عروقي بترياق القدرة والفُتوّة، بل لن أكون مبالغًا إذا قُلت أن تلك القوة التي أعطتني إياها جعلتني قادرًا على نزع شجرة متينة من جذورها بيديّ العاريتين، وهدْم سور أسمنتي بضربة من قبضة يدي، أو هكذا ظننت. ولكي أنعم بالمزيدِ من وصال حبيبتي وأحقّق اكتمال الرؤية بحضور الحواس، تعمّقت في المزيد من القراءة والبحث، وصار هناك أكثر من مِئة كتاب في غرفتي حول أعمال السحر والتنجيم تراصّوا بجوار كتاب شمس المعارف. كان همّي الأول هو الوصول بأي من طرق السحر السُفلية للتنعّم بجسد امرأتي تنعّمًا واعيًا يحضر فيه عقلي وتُعاينُه حواسّي الخمس، إلى أن وجدت الطريقة في أحد كتب السحر الأسود. لكنها لم تكن طريقة مجانية بل كان لها مقابل باهظ الثمن، وكان الحصول عليها مرهونًا بمقايضة مذمومة؛ فالحبيبة قد تتجسّد فقط مقابل أن أتخلّى عن إيماني.

أتذكّر تلك الليلة اللعينة كما لو كانت منذ ساعات قليلة. تلك الليلة التي فرّقت بيني وبين ما تبقّى من فطرتي النقية!

فبعد أن انتهيت من كل الأوراد الشيطانية التي تؤكّد أنني

قد تخلّيتُ تمامًا عن إيماني، ووهبتُ روحي قربانًا للشيطان، رسمتُ دائرة في حديقة الفيلا في ليلة مكتملة القمر، ثم وضعت خمس شموع سوداء في مسافات متساوية على محيطها، ورسمتُ الطلاسم المطلوبة خارجها بنفس عدد الشموع الخمسة، ثم وضعت جسدي في مركز الدائرة وانتظرت حتى شعرت ببعض الهدوء والسكينة، ثم أشعلتُ الشموع السوداء واتخذت بجسدي وضع النجمة الخماسية؛ ذراعان ممدوتان بشكل مستقيم بينهما الرأس وساقان متباعدتان، ثم بدأت في تلاوة طلسم الاستدعاء الأخير حتى أتت محبوبتي وحلّت في جسد كأجساد البشر، ونعمتُ لليلة الأولى بالشعور الحسيّ بها، نعمتُ بمتعة اللمس، وحلاوة الشمّ، وشهد التذوّق، وعنبر الرائحة، وطلاوة السمع، وكانت تلك الليلة بوابة المرور للكثير من ليالي الغرام السحرية.

دأب حراس العقارات المجاورة على نعتي بالجنون لأنني لم أكن أنام إلا في غرفتي الضيقة الرطبة تاركًا كافة حجرات الفيلا المتسّعة للظلام والفراغ، فتركتهم يتوّهمون أنني أفعل هذا حفاظًا على الأمانة وعفاف الروح، والحقّ أنني ما كنت أفعل هذا إلا لأن توكيل عهدي مع حبيبتي اشترط عدم مبارحتي تلك الغرفة ما تبقّى من عمري. ومرّت السنين وأنا في جنّتي الصغيرة، أستمتع بجسد حبيبتي يوميًّا، وأكتفي به عن التفكير في أجساد بنات حوّاء، وما حاجتي بهن؟! إلى أن

جاء يوم معرفتي بخبر موت يوسف بك وزوجته الأمريكية، السيدة «ليليت». عندها أيقظني شيء ما في تلك الليلة من غفوة سنوات الضلال؛ شيء ما حاول أن يذكّرني بأنني انغمست في روث الغيّ حتى حلقومي؛ شيء ما دعاني للعودة من بستان الشوك الذي دخلته باختياري، فلم أستدعِ حبيبتي في تلك الليلة ولم أستدعها لكثير من الليالي بعدها.

وبعد مرور بضعة أسابيع على ذلك النحو بدأت الكوابيس تطاردني مُجددًا، وبدأت أشكال شيطانية مخيفة تضجّ مضجعي وتلوح في استيقاظي، وزحف الغمّ الشديد إلى نفسي، وفكّرت كثيرًا في الخلاص من حياتي بالانتحار ولكنني جَبُنت. ولم يكن لي أصدقاء أستطيع استشارتهم، ولم يكن هناك كتاب واحد من بين كتب السحر الأسود التي امتلكتها يحمل في طياته كيفية التخلص من العهد الذي قطعته على نفسي مع الشيطان.

حتى جاء «عم جرجس»؛ الحارس الجديد للعقار المتاخم للفيلا. كان رجلًا طيبًا وبشوش الوجه، أعانني وجوده على احتمال ما أمرّ به من ضيقٍ وغمّ، وخفّفت عنّي روحه الملائكية ما كنتُ فيه من ضياع وتيه في دروب الشيطان. وبعد أن توطّدت علاقتنا كثيرًا وقصصتُ عليه كل ما مررتُ به تفصيلًا، سألته إن كان يعتقد أن الله قد يقبل توبتي بعد أن

بعثُ نفسي للشيطان، فقال لي حينها ما لم أنسه أبدًا: فَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ قَالَ لَهُمْ: «لاَ يَحْتَاجُ الأَصِحَّاءُ إِلَى طَبِيبٍ بَلِ الْمَرْضَى. لَمْ آتِ لأَدْعُوَ أَبْرَارًا بَلْ خُطَاةً إِلَى التَّوْبَةِ»(019).

ووجدتني أتذكّر حينها، للمرة الأولى منذ سنوات بعيدة، وبعد انقطاعي النهائي عن كتاب الله واكتفائي بكتب السحر والشِرك تلك، تذكّرت الآية التي تحمل نفس المعني: «قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا على أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»(018)، فأعلنت توبتي وأنَبت، لكنني كنت في حاجة لعلاج جسديّ من علّته، والتخلّص من تلك الشيطانة التي تستوطنه، ولم أكن أعرف عنوانًا لطبيب لمثل تلك العلّة.

حاول «عم جرجس» أن يساعدني في البحث عن علاج، فاقترح عليّ الذهاب إلى دير مسيحي موجود في محافظة المنيا حيث به أحد الرهبان القادرين على المساعدة. اعترضتُ في بادئ الأمر كوني مسلمًا ولا يجوز لي أن أتداوى في بيت عبادة مسيحي، فضحك حينها قائلًا: «وهل بقاء الشيطان في جسدك أفضل من الذهاب إلى كنيسة الله؟»، وأردف: «يا ولدي، كم من مسلم يتلقّى العلاج في مستشفيات تابعة للكنيسة، وكم من مسيحي يتعالج في مستوصفات تابعة للمسجد، رحمة الله تطولنا أينما كنا».

وبالفعل رتّب «عم جرجس» مسألة زيارتي للدير ووعدّني بحراسة الفيلا هو وابنه أثناء غيابي، ومكثت في الكنيسة طيلة شهر كامل حتى كانت تلك اللحظة التي لا تُنسى؛ لحظة خلاصي من عهد الشيطان ولعنته. جاءني كاهن الكنيسة، وكان بعض الشمامسة يضعون شمعدانين فوق منضدة خشبية، ثم وضعوا بجوار الشمعدانين إناءً به ماء، ثم أضافوا إليه ماء اللقان (017)، وآخر به ملح وقارورة الزيت المقدّس والبخور، ثم ارتدى الكاهن صدرية ما وشرع في أداء صلاة يسمونها صلاة الشكر، وتلاها بقراءة المزمور «الخمسين»، ثم راح يطوف في أنحاء الكنيسة وهو يقول: «تعهدهم بالمراحم والرأفات، اشفهم وانزع عنهم وعنّا كل مرض وكلّ سقم، وروح الأمراض اطرده، والذين أبطأوا مطروحين في الأمراض أقمهم وعزهم، والمعذبون من الأرواح النجسة أعتقهم جميعًا»، وبدأ بعدها في الصلاة على الماء والملح والزيت، ثم وضع إبهام يده اليمنى في قارورة الزيت ودهن جبهتي ونفخ قائلًا: «ليبعد عنه كل روح شرير نجس مخفي قاطن في قلبه»، وملأ كوب ماء من الإناء الممزوج بماء اللقان ورشّه بإصبعه ثلاث مرات وهو يتلو صلوات أخرى.

لم أنسَ حرفًا واحدًا مما حدث وقيل في تلك الكنيسة حتى يومنا هذا، كانت تجربة شديدة الصعوبة على نفسي، ولكنني خرجتُ منها متعافيًا ونقيًّا من جديد. ثم عُدتُ إلى الفيلا

وعزمتُ على البدء من جديد، فوهبت جسدي وروحي للاستغفار والتوبة والعبادة علّني أُكَفِّر عمّا اقترفته من آثام. آثرت العزلة، وفضّلت الوحدة، ولم يكن هناك من يُسرّي عني إلا صورة «جوليا»؛ تلك الطفلة الصغيرة التى كنت على يقين من أنني سوف أراها ذات يوم، فأستدعي في وجودها ذكرى الأيام الجميلة التي جمعتني بأبيها. كنت أشعر دائمًا كلما طالعت صورتها المعلقة فوق الجدار أنها ابنتي التي سوف يعوّضني الزمان بها عن سنين الوحدة وليالي العزلة.

وذات يوم تحقّق ما حلمت به طوال السنوات الطويلة الماضية بمجيء «جوليا» إلى مصر. رأيتها أمامي شابة يانعة وجميلة، فهرعتُ إليها مُثقلًا بالأمراض التي أنهكتني وضربَت عظام جسدي منذ أن أعلنت توبتي وعدتُ إلى صراط الله. عانقتُ فيها كل ذكرياتي مع أبيها الحبيب. لكن حدث شيء لم يخطر لي ببال ولم أتوقّعه في أسوأ خيالاتي حين طالعت ملامح تلك الابنة المنتظرة؛ كانت «جوليا» شديدة الشبه بتلك الشيطانة التي صاحبتها فوق فراشي ووَهبتُ روحي للشرّ من أجل أن أنولها في الماضي. بل كان ذلك التشابه أقرب إلى التطابق والتناسخ! لا أدري كيف حدث ذلك، وهل كانت تلك مجرد مصادفة عجيبة من مصادفات الحياة، أم أن هذا التشابه الكبير كان انتقامًا شرسًا مما اقترفته من كبائر جسام في الماضي الغابر؟ لم أفهم الرسالة الخفيّة من وراء هذا

التشابه ولم أجد من يُفهِمني، فقرّرت إيثار السلامة وعدم التفكير بتاتًا في المغزى من وراء تلك المصادفة المزعجة، درجة أنني كنت لا أنظر في وجه الفتاة التي طالما حلمت بالنظر إلى وجهها، ولم أحاول استدعاء الشعور الأبوي الذي طالما مارسته مع صورة طفولتها. كنت أضع وجهي في الأرض كلما كلّمتني أو كلّمتها، بيد أن ذلك لم يجعلني أغفل عن التطابق العجيب بين نبرات صوتها وصوت شيطانة شبابي.

ولم تقتصر معاناتي على ذلك؛ فبعد بضعة أسابيع من وصول «جوليا» إلى الفيلا عاودتني أحلامي القديمة، وشرعت شيطانة الماضي تحاول زيارتي أثناء نومي كما كانت تفعل في أوليات الأمر، وعادت لإغوائي واستثارتي مثلما كانت تفعل في لياليا الخوالي؛ الفارق الأكبر هذه المرة أن زائرة أحلامي كانت الشيطانة في صورة «جوليا» أو كانت «جوليا» في صورة الشيطانة..!!

وجدتُ نفسي أقترب من مشارف الجنون. أمامي «جوليا» طيلة النهار تُذكّرني بمن كانت عشيقتي الإبليسية في الماضي، وحين يتمكّن الليل من تلابيب اليوم تأتي أطياف عشيقتي القديمة تذكرني بـ «جوليا» ابنتي التي كنت أنتظرها!

لكنني لم أستسلم مثلما فعلت في الماضي، ولم أُسلّم جسدي أو خيالي أو أفكاري لأي لحظة ضعف، فقاومت بالصلوات والاستغفار وبقيام الليل، وعاهدت نفسي على عدم النوم كي لا أسمح لروحي بأن تشاهد الابنة في صورة العشيقة العاهرة. إلى أن حدث ذات ليلة وسمعني «صبري»ورآني وأنا أجاهد بصلاتي ودعائي من تلك الخبيثة مثلما كنتُ أصلي وأجاهد كل ليلة، وحين قام بطردي لم أجادله كثيرًا، بل وجدتُ في ذلك استجابة لابتهالي ورجائي من الله كي يحميني منها، والحلّ الذي أرسلته السماء كي يبعدني عن مصدر الشر ومنبعه. وها أنا ذا..

دقّ الشيخ «بشير» بعصاه فوق الأرض وهو يهمهم بكلمات لم تصل إلى مسامع «حسّان» الذي كان ينتظر منه أي ردّ على حكايته الطويلة، فبادره بالسؤال:

- ما قولك يا شيخ «بشير» في كل ما حدث؟

هزّ الشيخ «بشير» رأسه يمينًا ويسارًا وأجابه:

- يا ولدي، ربما تكون هذه المرة الخامسة التي تحكي لي فيها هذه الحكاية وتنهيها بنفس السؤال!

- نعم، وهذا لأنك لم تُشفِ صدري بأي تعليق في كل المرات السابقة.

دوحة الكتب العراقية

- لأن ما سأقوله لن يُشفي لك صدرًا ولن يريح لك بالًا.

حلّت نظرات الحزن على وجه «حسّان»:

- قل يا مولانا وأعدك أن أستمع حتى وإن لم يأتِ الكلام على هوى نفسي. قل وسأفعل ما تنصحني به أيًّا كان.

ضرب الشيخ «بشير» الأرض بعصاه مرة أخرى وقال:

- يا ولدي القول في هذا الأمر ليس باليسير كما تعتقد. فأمر رؤية الجن والشياطين شكّل خلافًا كبيرًا بين العلماء على مرّ العصور؛ فمنهم من قال إنهم يمكن رؤيتهم إذا تشكّلوا في غير صورهم الأصلية كما تقول أنه حدث معك، ومنهم من خصّ رؤيتهم بالأنبياء فقط عليهم السلام جميعًا، ومنهم من يزيد ويقول إن الأنبياء وبعض الناس قد يرونهم بصورتهم الأصلية. أما ما يطمئن إليه قلبي ويستند إليه عقلي هو رأي رابع ينكر تمامًا إمكانية حدوث هذه الرؤية سواء للأنبياء أو غير الأنبياء مع استثناء نبي الله سليمان لأن الله أخبرنا صراحة بأنه رآهم وتكلم معهم.

يا ولدي، إن علاقة الشيطان بالإنسان لا تقوم إلا في إطار الهمز والنزغ والتزيين والوسوسة، أي الإضلال والإيقاع في الشرّ بالتأثير على الإنسان ونفسه دون جسده، فالجسد يؤتمَر بالنفس، والنفس فقط هي التي تقع في شرك الشيطان

ووسوسته. أما على المستوى الجسدي المادي، فليست هناك أدنى علاقة بين الإنسان والشيطان، فالله تعالي يقول لنا في كتابه الكريم «إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ»(016) ، أي أنه يرانا ولا نراه، وذلك لاختلاف المستوى الوجودي بيننا وبينه. فالشيطان يا ولدي كائن من عالم الغيب، وهو العالم الذي يغيب عن عالمنا المادي وحواسنا الخمسة، أما عالم الإنسان فهو عالم المادة والموجودات، وبالتالي فإن أي اتصال ماديّ بين العالمين هو في حكم المستحيل، والاتصال الوحيد الذي قد يحدث بين العالمين هو اتصال الغواية التي يقوم بها الشيطان على المستوى النفسي، لأن النفس كائن برزخي ينتمي إلى عالم الغيب كذلك؛ فهي تقع في ذات العالم الذي يتواجد فيه الشيطان. وكما أخبرتك، فإن أسلحة الشيطان في ذلك لا تخرج عن التاثير النفسي، وهو ما سمّاه الله بـ «الوسوسة»، وهي حديث النفس والكلام الخفيّ الذي لا يُسمع.

فالشيطان يوسوس في صدور الناس، وقد مكّنه الله من ذلك عن طريق مخاطبة النفس والإيحاء إليها. والوسوسة هي سلاح إبليس الأمضى وأداته الفعالة، وما أخرج آدم - عليه السلام - من الجنة إلا وسوسة إبليس، قال تعالى: «فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا

يَبْلَىٰ»(015) . وكان يمكنك الإفلات من كل تلك الهواجس والوسوسات حينما حلّت عليك وأصابتك إذا امتلكت حينها النفس القوية الثابتة والعامرة بنور الله. أنسيت أن الله يصف كيد الشيطان بالضعف في قوله تعالى: «إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا»(014)؟ لكنك كنت ضعيف النفس فسمحت له باستغلالك واللهو بك. لعب الشيطان بنفسك فأوهمك أن هناك فاتنة تتجسّد أمامك، ثم جعلك تسعى بقدميك إليه وتلهث وراءه، فقايضتَ إيمانك بالدخان، ورهنتَ نفسك في مقابل المتعة الخيالية حتى حكّمته عليك وملّكته أمر نفسك.

إن منطق بعض المؤمنين في سائر الديانات، والذين يعتقدون بإمكانية رؤية الشيطان، بل وبإمكانية ممارسة العلاقة الجنسية معه، قد لا يخالف كثيرًا منطق من يطلقون على أنفسهم عبدة الشيطان، الذين يعتقدون كذلك في إمكانية تجسّد الشيطان لهم. ولا يوجد فارق نوعيّ بين المسّ الشيطاني في مفهوم بعض أهل الاحتراف الديني وبين عبادة الشيطان لدى أهل الغرب العلماني.

كادت الدموع تنهمر من عيني «حسّان» وخرج صوتُه متأثرًا ومصدومًا:

- هل تعني يا مولانا أنني عِشت على الأوهام طوال تلك السنوات فلم أتصل بها ولم تتصل بي حقًّا؟!

- نعم، هذا ما أعنيه. فكل ما رأيته وسمعته ولمسته وشممته وتذوقته آنذاك لم يكن إلا أوهامًا وضلالات.

- أقسم لك إنني كنت ألمسها وأشعر بمفاتنها وأصل معها لمبتغى الشهوة و...

- كان وهمًا وضلالات!

- كانت تكلمني وتغني لي وتطربني وتؤنس وحدتي وكانت...

دقّ الشيخ «بشير» بعصاه فوق الأرض بقوة أكبر وهو يكرّر:

- كان وهمًا وضلالات!

انفجر «حسّان» في نوبة بكاء كبيرة وهو يستعيذ بالله ويستغفره، فتحسّس الشيخ «بشير» طريقه إلى كتفه وربّت عليه برفق وهو يهمس في أذنه:

- وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(013).

سأله «حسّان» من بين دموعه:

- هذا عن أمر الماضي، فما الذي جعله يتكرر بعودة «جوليا»؟ ولماذا تشابهت ابنتي بصورة شيطانة وسوساتي؟

- اختبار جديد يا ولدي، ووسوسة أخرى.

- وماذا عساي أن أفعل؟

- عليك العودة إلى قدرك، ومواجهة المحتوم.

سأله «حسّان» متعجبًا:

- هل تطلب مني العودة إلى الفيلا؟

- نعم، مثلما كان السقوط هناك سيكون النهوض والخلاص من هناك.

- لا أفهم يا مولانا، زدني من علمك!

- مثلما كان السقوط هناك سيكون النهوض والخلاص من هناك.

قالها الشيخ «بشير» ثم اتكأ على عصاه محاولًا الوقوف، فمدّ له «حسّان» يده ليساعده، ونهض الشيخ وهو يخاطب السماء مردّدًا:

- تلك الأحداث تفسيرها حدوثها، تلك الأحداث تفسيرها حدوثها...!!

(١ / ٥ / ٢٠١٥)

خمس يصرفن خمس؛ لين الكلام يصرف الغضب، والاستعاذة بالله تصرف الشيطان، والتأني يصرف الندامة، وإمساك اللسان يصرف الخطأ، والدعاء يصرف شر القدر. (012)

تَدَافع بعض الشباب تجاه «صبري» بمجرد أن غادر القاعة التي كانت تشهد أمسيته الشعرية الرائعة، إما لطلب توقيعه الشخصي على أحد دواوينه أو للحصول على صورة «سيلفي» معه لرفعها على مواقع التواصل الاجتماعي، واستجاب «صبري» لطلباتهم بودٍّ شديدٍ وترحابٍ مبتسمٍ، وحاول جاهدًا أن يبدو بشوشًا ولطيفًا كما اعتاد معجبوه أن يروه، على الرغم من كل ما يجيش في صدره من معاناة وضيق. ذلك الحزن الذي لازمه طوال الأيام السابقة منذ طردته «جوليا» والشيخ «عبد البر» من الفيلا. حاول التماسك واستكمال مسيرة الحياة كما كانت من قبلها لكنه اصطدم بأن تلك فكرة شبه مستحيلة! حاول التعايش مع منطق غيابها وانتهاء وصالهما، لكنه شعر بضعفٍ شديدٍ إزاء مواجهة القادم من الأيام بدون النظر إلى سماء عينيها الصافيتين، فالحياة في غيابها تعجّ بالمرارة والكآبة، والشِعر برحيلها بات متقطّع الأبيات ومشرذم القوافي.

ربما قبل واقعة طرده من الفيلا كان حجم مشاكلهما قد ازداد، وانكمش مدى تواصلهما لأدنى مراحله في الآونة الأخيرة، لكنها كانت موجودة بشكل ما. ربما توتّرت علاقتهما واتسعت هوة الخلاف بينهما في فترات ما، لكنها

كانت داخل دائرة محبّته وبين ذراعي هواه. أما الآن، وبعد انقطاع علاقتهما تمامًا ورحيل كل منهما في اتجاه، باتت الأمور أشد وطأة على نفسه وأكثر إيلامًا لقلبه. كم آذى كرامته مشهد طردها له وكم أرّق مشاعره اشتياقه إليها، وباتت أيامه بين الشعورين المتناقضين شديدة الوجع والشجن.

- هل يسمح لي شاعرنا الكبير بالحصول على توقيعه على هذا الديوان؟

نظر إلى مصدر الصوت المألوف إلي أذنيه والذي اقتحم شروده اللحظيّ فوجدها هي! كانت تقف أمامه وتبتسم ابتسامتها الساحرة التي كم يتوق إليها، ترتدي فستانًا فيروزيًّا رقيقًا يتوافق بطريقة ساحرة مع الموج المنساب بنعومة من بحر عينيها. كان ظهورها في تلك اللحظة هو أبعد توقعاته وخيالاته، لكنه كان ظهورًا رادّا لروحه التائهة وباعثًا على البهجة الضائعة.

احتار «صبري» في ردّة فعله إزاء وجودها المفاجئ؛ هل

يجيبها بجفاء ويشيح بوجهه عنها حفاظًا على كرامته المُهدرة؟ أم يجيبها بابتسامة تحمل ذاك القدر الكبير من اشتياقه إليها وفرحته بلقائها؟

شعرت هي بمعاناته وهي تطل من نوافذ عينيه، فاخرجت كل أسلحة أنوثتها في نظرة هائمة وقالت بغنج جمّ كطفلة تكفكف غضب أبيها:

- هل تستحق هذه الفتاة المشاغبة فرصة أخيرة؟

أجابها ببعض الكبرياء المزيف:

- لا أعتقد هذا.

زادت من دلالها باقترابها خطوة أخرى غير مبالية بالزحام من حولهما:

- معك حق! فبعد ما فعلتُه معك لا أعتقد أنا أيضًا أنها تستحق فرصة أخرى. لكنها قد تستحق ساعة أخيرة من وقتك تدعوك فيها إلى فنجان قهوة.

تردّد قليلًا قبل أن تقطع عليه طريق الرفض بأن قبضت على يده وسط جموع الشباب المحيطين ووجّهت حديثها إليهم:

- سوف أستأذنكم جميعًا، فهناك موعد بيني وبين شاعركم

المحبوب قد حان آوانه...!!

***

- أعرف أن كل تبريراتي قد نفدت، وكل أعذاري قد استُهلكت، وصار موقفي في غاية الضعف والهشاشة، لكنني أرتكن إلى نُبلك المعتاد معي وتسامحك الكبير مع تصرفاتي الطفولية الطائشة. ربما لا أجيد التعبير عن مشاعري بالكلمات مثلك، لكنك تمثل لي قيمة عظيمة، ومجرد التفكير في خسارتها يشعرني بأن حياتي سوف تتحول إلى مأساة كبيرة.

أنت الرجل الأول الذي يدخل حياتي منذ أن فقدت والديّ وتيتّمت في طفولتي المبكرة، وأنت الرجل الأول الذي ربّت على كتفي ودلّلني منذ رحيل أبي وأنا في العاشرة من عمري. ربما لم أخبرك بتفاصيل كثيرة عن تلك الفترة من حياتي لأنني دائمة التهرب من تذكُّرها، ودائمة الخوف من الخوض في تفاصيلها. لك أن تتخيل شعور طفلة فقدت أبويها في تلك السنّ الصغيرة وحجم معاناتها وهي تعيش مراحل بلوغها ومراهقتها في عزلة وهي سبية في بيت خالتها الحمقاء، ولا تعرف لها أقرباء من جهة الأب ولا من جهة الأم. وفي بيت تلك الخالة كان زوجها يعاملني بسُخرة وعبودية وكأنني خادمة من عصر الرقيق الأمريكي. كان رجلًا شديدة العنصرية من طائفة يهودية شديدة التعصّب، فكان يكره الجزء الشرقي

في تكويني ويمقت الدم المصري الذي يجري في عروقي رغمًا عنّي، وكانت خالتي امرأة مستضعفة باردة المشاعر لا تقوى على ردّه أو ردعه، أو ربما لم تهتم.

نمتُ في حجرة ضيقة رطبة لا تصلها تدفئة المنزل المركزية ولا يصل نافذتها الصغيرة شعاع متسرّب من أشعة الشمس. لك أن تتخيل أن تُحرم طفلة في تلك السنّ من اللعب مع أقرانها وحتى من امتلاك دمية قطنية بسيطة، درجة أنني كنت محرومة من مجرد التحدّث مع أولاد خالتي لأن نصفي العربي – كما اعتقد زوج خالتي– هو نصف نجس قد يلعنهم أو قد يصيبهم بالغباء، فكنت معزولة ومشوّهة ومفتقرة لأدنى حقوق طفولتي.

وعن مدرستي فحدّث ولا حرج! كان الأمر شديد الشبه بحياتي المُعذبة في بيت خالتي؛ عزلة واضطهاد وعنصرية، ولم أنعم في مراهقتي بأي علاقة رومانسية مع أي فتى من الفتيان شأن كل الفتيات في مدرستي، ولم تكن لي صديقة مُقرّبة أقضي معها بعض أوقاتي، لأن الفتيات الأخريات اعتبرنني فتاة منطوية وغريبة الأطوار. كنت ألمح الخوف في نظراتهن كلما اقتربت منهن أو التمست صحبتهن. وكان زوج خالتي هو السبب كذلك في عزوف زميلاتي عنّي حين أشاع في الحيّ الذي كنا نسكنه أنني فتاة ملعونة تحمل

النحس والشؤم لكل من يقترب منها، فما كان من الأهالي إلاّ أن حذروا أبناءهم من مجرد الاقتراب مني! لم يكن هناك متنفس لمشاعري غير الرسم؛ تلك الموهبة التي غرسها الله في روحي لتكون السلوى الوحيدة من معاناتي وشعوري بالوحدة والظلم.

صدّقني حين أقول إنك أول الطيبين في حياتي، وأوّل من عاملني بحِلم وحنان، وأوّل من عانق جراحي وضمّدها، وأنت أول من صالحني على أنوثتي وردّ ثقتي إلى نفسي، فكّن أول الغافرين لجرائمي يا «صبري»، وأول المتعاطفين مع دوافعي، وأول المتسترين على لحظات ضعفي وانهياري، المكشوف منها والمستتر.

بلغ التأثر على وجه «صبري»مبلغه ولم يستطع مقاومة مشاعره الرقيقة في التحكم في انفعالاته، فاستسلم أخيرًا لأن تبدو عيناه مغروقتين بعبرات واضحة برغم ما تحمله من خجل لرجولته الصعيدية!

أمسك «صبري» بيدي «جوليا» المرتخيتين فوق المنضدة وضمّهما بشدة وهو ينظر بعمق لملامحها، وقال:

- عفا الله عما سلف. لم أضع كل تلك الأمور في حساباتي السابقة بالطبع؛ ليتك فتحتِ لي صندوق أسرارِكِ هذا من البداية!

اكتسى وجهها بابتسامة طفولية رقيقة:

- أحقًا سامحتني؟

- نعم بالطبع، ولننسَ ما حدث.

- هل تعني أنك تجاوزت وسوف تحتفل معي بليلة عيد ميلادي يوم الثلاثاء القادم؟

- بالطبع سأفعل، بل وأعدكِ أن يكون احتفالًا أسطوريًا وسوف ..

وضعت يدها على فمه وقاطعته:

- كلا.. لستُ بحاجة إلى أي احتفال أسطوري، بل أريد أن أحتفل معك وحدك بدون أن يزاحمنا الآخرون. سوف آتي إلى منزلك يوم الإثنين مساءً، وقبل أن ينتصف الليل مُعلنًا بدء يوم الخامس من مايو، أريد أن تدق الساعة الثانية عشرة وأنا بجوارك، أحتفل معك بالثانية الأخيرة من عامي القديم أمام عينيك، وأستقبل الثانية الأولى من عامي الجديد وأنا بين يديك.

شعر «صبري» بسعادة غامرة لطلبها ذاك:

- لكِ هذا بالطبع يا حبيبتي، وأعدكِ أن تكون تلك ليلة أسطورية كذلك.

- وأنا أعدك أننا سنذهب سويًّا إلى قريتكم بعد يوم عيد ميلادي كي أعتذر للشيخ «عبد البر» عمّا بدر مني في الفيلا. كما أنني فكّرت في الأمر مليًا بعد أن هدأت ووجدت فيما قاله بعض المنطق، فقرّرتُ أن أدعه يُكمل علاجه الروحاني لحالتي.

ظهرت على وجهه علامات الرضا والارتياح وهو يثمّن اقتراحها بقوله:

- ونعم الرأي!

لكمته «جوليا» في يده لكمة خفيفة:

- والآن، هل زارتك «ريم» بالفعل أم كنت تكذب؟

ضحك ضحكة مجلجلة:

- يا للنساء! هل تشعرين بالغيرة يا حلوتي؟

ضاق وجهها وهي تقول:

- جاوبني أرجوك.

- نعم زارتني، وتعرفين جيدًا أنني لستُ مدعيًا أو كذّابًا.

شاب ملامحها بعض الدهاء وهي تقول:

- حسنًا، وهل ستوافق إن طلبت منك أن نذهب لزيارتها

سويًّا الآن؟

- وما السبب وراء تلك الزيارة؟

تململت كطفلة:

- لا ترد السؤال بسؤال، تلك شؤون نسائية.

- لكِ هذا إذًا..

انتفضت فرحة كمن تذكرت أمرًا رائعًا فقالت:

- بالمناسبة، لقد عاد «عم حسّان» إلى الفيلا منذ بضعة أيام!

تهلّلت أساريره وانتفض هو الآخر فرحًا:

- أحقًّا؟!

- بلى، أقسم لك، وإليك خبر آخر رائع؛ لم يعد «عم حسّان» بمفرده، بل عاد بزوجة سمراء جميلة تزوجها منذ أيام قليلة في بلدته النوبية، لقد فعلها هذا العجوز أخيرًا!

(٥ / ٥ / ٢٠١٥)

خمسة هي لفظة سامية مشتركة، وهي تعني في السريانية Hamsen أو Hamsha أي القبض على الشيء. ونعتقد أنّ الجذر (حمس) أو (خمس) يعني اليد بكاملها. ومن فكرة (اليد) أخذ الساميون فكرة القوّة. ولفظة (اليد) تعني في كثير من اللغات السامية القوّة، والبطش، والشدّة. والجذر (حمس) يعني في كثير من اللغات السامية القوّة، والنشاط كما فى (حماس) و(حماسة) . ومن الجذر (خمص) يشتق (أخمص القدمين)، واللفظة Gamots تعني في اللغة العبرية قبضة اليد. وعلى هذا نعتقد أن لفظ (الخمسة) مشتقّ من لفظ ساميّ قديم يعني (اليد)، أو (القبضة)، أو (الأخمص). وهذه الأشياء توحي بالفكرة العددية. (011)

ما بال الخمسة تحاوطني من كل جهاتي

ما بال الخمسة تطارد وجهي في الطرقاتِ

فيومًا تأخذني ليقيني

ويومًا تاخذني لشكوكي

ويومًا تتركني بين الماضي المطموس

وبين الغيم الآتِ

ما بال الخمسة تتقافز في ضي عيوني

تُذخلني الحلبة

تضرب رأسي بأفكارٍ تغزو جمجمتي

وتثير الجلبة

تغزل من رئتي زنزانة حلمٍ

وقيود صعبة

تنبئني وبرغم جفاف الوديانِ

بمياهٍ عذبة

تقسم أن قطارًا سيزور مدينتنا

ويزيح العقبة

وأفيق على صرخة أحزاني

لأشاهد كَذبة

ما بال الخمسة تدخلني من باب المجهول

تدنيني من آخر برزخ في بطن الأرض

حيث المعقول والا معقول

تسقيني من آنية مذاقها صبرُ

وجوفها قبرُ

وفرحها مُر

وحزنها نهرُ

وعشقها عهرُ

مفعولها قدرُ، وقدرها مفعول

ما بال الخمسة صارت تحكمنا

تحدد ميعاد بسمتنا

واتجاهات ريحنا

ومواسم خصوبتنا

وتقرر مساحة عناقنا

ومسافة قُرْقتنا

أهذا طريق للجنة

أم هذا سبيل للعنة؟

ما بال الخمسة وما سر الخمسة

أعصف رياح يضرب مصائرنا

أم شوق تغمره الهمسة؟

أجذّ السيف لأشجار حديقتنا

أم دفء ترويه اللمسة

أسطر تكتبه الأفكار النجسة

أم سطرَ أمانينا الماسة

فناسٌ تعلو فوق ضغائنها

وناس بنفوسٍ بخسة

وعيون ترنو لربيع مصائرها

وعيون لا تملك عدسة

ما بال الخمسة وما سر الخمسة

فالتوراة الخمسة

وجاهلات الإنجيل الخمسة

وحكيمات الإنجيل الخمسة

وجراحات المسيح الخمسة

وصلوات الإسلام الخمسة

وأركان الإيمان الخمسة

وأسماء الرسول الخمسة

فما سر الخمسة؟!

الليلة يا حبيبتي...

الخمسة باتت تتزين

تتحلّى من عيد العيدِ

تتجلّى في نبض وريدي

تأخذني لأساطير الشرق

وتعلم صمتي تغريدي

الخمسة كشفي في العشق

والعشق يجيء بتأييدي

فواحد قلبٌ قد سلَّم

واثنان عيون تتكلم

وثلاثة خطواتُ الرقص

أربعة عناقٌ يتحكم

والخمسة كفٌّ قد مسّ

أحلام موسيقى تتنغم

الخمسة اسمك وحروفه

الخمسة شهرك وقطوفه

الخمسة هذه الأجواء

أحلام هوانا الموصوفة

أحلام هوانا الـ..

وكأن الجدران كانت المستمع الوحيد إلى قصيدته، فيشقّ صوته الرخيم السكون ثم تعود كل الأشياء لصمت مطبق حينما يصمت برهة ملتقطًا أنفاسه. أما هي فلم تكن مدركة لما يقول، وغير مستمعة إلا لصوت المرأة الذي يملأ رأسها ويصرخ بعنف بداخلها:

- هذا هو الخامس؛ هيَّا.. بات الأمر وشيكًا، والنعيم ينتظرك خلف نهر دمائه.

- أرجوكِ! أنا المخلصة لك، والمنفّذة لكل أوامرك، دعيه يعيش.. فهو حبيبي!

- سبق وأن اتفقنا أن الحب خطيئة، ومطاوعة القلب مهانة، والاستسلام له مذلة.

- الآخرون كانوا مجهولين لي؛ لم أكن أعرفهم ولم أشاركهم ذكرى ولم أبادلهم معروفًا. أما هو، وبعيدًا عن الحب، قد شاركني الكثير، وصنع الخير من أجل عينيّ، وتحمّل الكثير

من العناء لأجلي ومعي! دعيه يذهب ولنستبدله بأي روح أخرى.

- هل تعارضيني يا ابنتي؟

- حشاي أن أفعل، ولكنني أستسمحك، وأتضرّع إليكِ، وأتذلل أمامكِ، هذا رجائي الوحيد.

- رجاؤك مرفوض! الخامس يجب أن يكون من القلب قريب، ومن العين حسيب، ومن الروح نسيب، الخامس لا بد أن يكون التضحية الكبرى، السموّ فوق بقايا المشاعر الساذجة للقلب؛ والتعالي على أواخر أحاسيس البشر المتبقية في قيعان الروح؛ الخامس هو اختبار التخلّي عن المترسّب من مشاعر الرحمة في باطن القلب، وامتحان القدرة على تجاوز أنّة الوجع النهائية.

- حسنًا، نبحث عن شخصٍ قريبٍ غيره، ما رأيك في «ريم»؟!

صرخَت المرأة صرخة هادرة في رأسها:

- كفى لهوًا! أكملي عهدِك فالسيد لا يحب الانتظار. هذا هو الخامس، فهيَّا قومي بمهمّتك بلا تأخير.

لم يلحظ «صبري» الحالة التي انتباتها وهو منتشٍ بين أبيات قصيدته ومستمر في إلقائها، يترنّح كدرويش في

جلسة مدح صوفية تسيطر عليه روح الذِكر والإنشاد، حتى إنه لم يشعر بها وقد دارت حوله، وأتت من خلفه، ورفعت يدها حاملة السكين وتهوي بها بعنف شديد تجاهه. لكن، في نفس اللحظة التى انطلق السكين الكبير فى طريقه إلى مؤخرة عنقه، اجتذب انتباهه انعكاس بريق النصل على زجاج النافذة أمامه، وانعكاس مشوّش لملامحها التي اكتسَت بعنف شيطاني قاتل، فتنحّى جانبًا بوثبة مباغتة وقد وهبته الدفقة المفاجئة للأدرينالين المندفع في دمه مرونةً لم يعهدها في نفسه من قبل، فدار دورة كاملة حول جذعه كلاعب سيرك محترف حتى صار في مواجهتها.

نظر «صبري» في عينيّ «جوليا» فأبصر شرًا لم يرَه في عيون من قبل قطّ! لم يجد في ملامحها أيًّا من التي لطالما عشقها، ولم يرَ فيها حبيبته، بل شاهد عاصفة من الغضب والكراهية تقف على قدمين!

انتفضَت «جوليا» صارخة صرخة مدويّة، واندفعت نحوه رافعة يدها في محاولة جديدة لطعنه، لكنه أمسَكَ بيدها محاولًا إسقاط السكين منها دون أن يفلح في ذلك. هالته القوة التي شعر بها من دفعة يدها، كانت قوة تفوق قوّته بأضعاف مضاعفة، ولم يعرف من أين جاءتها أو كيف يقاومها، لكنه لم يملك إلا الاستمرار في الدفاع عن حياته.

عاودت هي الكَرَة في محاولة جديدة ومستميتة لطعنه، ولكنه استطاع أن يسقط السكين من يدها في تلك المرّة ويركلها بقدمه بعيدًا عنهما بمجرد سقوطها فوق الأرض، ثم انقضّ عليها مستجمِعًا كل قواه ودفعها إلى الخلف دفعة عنيفة جعلتها تصطدم بالجدار وتسقط، ثم صرخ بها صرخة هادرة:

- ماذا تفعلين أيتها المجنونة؟ أتحاولين قتلي؟!

خرج من حنجرتها صوت شرس مزمجر لا يشبه صوتها في شيء وهي تحاول النهوض من سقطتها:

- أنت مِلكي أيها الخامس، دعني أتمّم بك عهدي، دعني أُرضي السيدة والسيّد، دعني أحرر روحي بدمك الطازج وأُكمل ميثاق قرابين النجمة الخماسية!

لم يدرِ بنفسه وهو يهجم عليها بدوره وهو يصيح:

- أي لعنة تلك التي لعنتك هكذا؟!

واستمرّ في صفعها ولكمها بكل ما أوتي من عنف حتى سقطت على الأرضى مغشيًا عليها.

***

تجاوزت الساعة السادسة صباحًا وشرعت السماء ترتدي

ثوبها النهاري حين قام «صبري» بركل الباب الخارجي للفيلا بقدمه حتى يستطيع فتحه والمرور منه وهو يحمل «جوليا» بين يديه، والتي كانت لم تزل فاقدة للوعي. وقبل أن يمر إلي داخل الحديقة سمع صوت «عم حسّان» وهو يهتف:

- الستر من عندك يا رب!

هرول «عم حسّان» إليه محاولًا مساعدته في حمل «جوليا» وقد تملّك منه القلق والخوف تمامًا:

- ماذا حل بابنتي؟

حاول «صبري» أن يطمئنه بأي شيء فأجابه قائلًا:

- لا تقلق يا «عم حسّان»، لقد تمادّت في احتساء الشراب حتى فقدت وعيها.

- ألا لعنة الله على الخمر! يا ولدي أنت رجل صعيدي أصيل العادات والقيم، لماذا تتركها تشرب هذه السموم المحرمة؟

جاوبه بحزم:

- ليس هذا بالوقت المناسب لمناقشة تلك الأمور! هيّا ساعدني لنصعد بها إلي غرفتها ونضعها في فراشها كي ترتاح.

وحملها الرجلان إلى حيث توجد غرفة نومها في الطابق العلوي.

***

- تستطيع الذهاب يا «عم حسّان» وأرجو أن ترسل تحياتي إلى زوجتك. سوف أجلس بجوارها لبعض الوقت حتى أطمئن عليها.

طأطا «حسّان» رأسه متفهمًا وهو يتحرك في طريقه لمغادرة الغرفة ويقول:

- سوف أكون في الحديقة، نادِني إن احتجت أي شيء يا ولدي.

ما إن انصرف «حسّان» حتى اقترب «صبري»من «جوليا» وأخذ يتفحص ملامحها التي عادت جميلة ووديعة كطبيعتها. مرّر أصابعه بين خصلات شعرها في حنانٍ شديدٍ وهو يتابع آثار صفعاته ولكماته على وجهها.

طال التأثر ملامح وجهه وانعقد حاجباه في ضيق وهو يهمس:

- أي سحرٍ هذا الذي فعل بك هكذا يا حبيبتي؟ أي لعنة تلك التي تملكّت هذا الوجه الملائكي البريء فجعلته شيطانيًّا ناريًا كما بدا؟ لا يمكن أن تكون الأمور كما وصفها الشيخ «عبد البر»، فحتى أبعد خيالاتي يرفض تصديق أن ما رأيته منها اليوم هو تأثير سحر تفريق أو فِعل جنيّ عاشق! لا يمكن أن

تكون الفتاة المتوحشة السفّاحة التي واجهتها منذ ساعات قليلة هي تلك الفتاة الراقدة أمامي الآن، فما رأيته اليوم كان شيطانيًّا بكل ما تحويه الكلمة من معنى! ما رأيته اليوم كان شيئًا قادمًا من أتون الجحيم! ماذا عساي أن أفعل الآن؟ وأي طريق يجب أن أسلك؟

مال عليها وقبّلها في جبينها، وهمس كأنه يخاطبها:

- حبيبتي.. أيًا كان السبب، ومهما كانت الدوافع، سأظلّ هنا إلى جوارك. كل ما أعرفه الآن أنني لن أتخلّى عنكِ أبدًا، وسأظل دائما قلعة حمايتك. اخترتُ البقاء وإن كان فيه فنائي، وكل ما أريده الآن هو أن تُفيقي من غُمّتك وتستعيدي روحك المسلوبة من قوى الشر.

آه.. أيّ شر هذا الذي جعلك تفكرين بطعني؟! وأي سحر يدفعك لقتل رجل وصفتِهِ بأول رجل يدخل إلى حديقة أنوثتك ويتعطّر بشذا محبّتك؟

رفع وجه شطر السماء ودموعه تكاد تنهمر وهو يدعو:

- يا إلهي أرشدني! ساعدني كي أساعدها وأخلّصها من هذا الشر المُطبِق.

ثم صمت لبرهة تفحّص فيها ملامحها إلى أن واتته فكرة مفاجئة جعلته يقف كالملدوغ وهو يصيح:

- الغرفة المغلقة!

***

أخذ «صبري»يفتش حقيبة يد «جوليا» بحماسٍ شديدٍ وقد بلغت الإثارة داخله مبلغها إلى أن وجد في أحد الجيوب الداخلية للحقيبة علّاقة مفاتيح فضية تتدلّى منها نجمة خماسية لامعة تتطابق تمامًا مع تلك التي أهدتها «جوليا» لفاروق في عيد ميلاده، فقام بسحبها من داخل الحقيبة وهَبَط مسرعًا إلى الطابق الأرضي حيث يقبع المرسم، واتجه من فوره إلى الغرفة المغلقة التي حافظت «جوليا» على سريتها من أعين الجميع.

فتح باب الغرفة وضغط على مقبس الكهرباء فأضيئت المصابيح وكشفت عمّا خلع قلب «صبري» وجعل ما هو مُعقّد بالفعل يزداد غموضًا وتعقيدًا، فأغلق الباب من خلفه ووقف مبهورًا ملجومًا لثوانٍ معدودة.

كان أول ما انقبض له قلبه طلاء جدران الغرفة الواسعة، حيث كانت الجدران جميعها مطلية بلون أسود منطفئ وقاتم. ثم جذبته بعض الأشكال المرسومة فوق الجدار المواجه له فتقدّم صوبها بخطوات مترددة قبل أن يقف مبهوتًا أمامها. كان الجدار مُغطّى برسومات يدوية حمراء اللون تبدو كطلاسم أو رموز من لغة غير معروفة له؛ لغة

شديدة البدائية تستعيض بالرموز المرسومة عن كتابة الحروف، لغة تشبه تلك اللغات التي قامت عليها الحضارات القديمة لمنطقة الشرق الأوسط. وأسفل تلك الكلمات غير المفهومة كانت لوحة معلقة لامرأة مخيفة الملامح ترتدي ما يشبه الخمار الأسود. لم يستطع «صبري» النظر مطولًا إلى ملامحها حيث شعر بقبضة أصابت روحه بمجرد رؤيتها فأشاح بوجهه عنها وأخرج هاتفه المحمول من جيب سرواله وقام بتشغيل تطبيق كاميرا التصوير والتقط الكثير من الصور لتلك الكتابات اليدوية ثم للوحة المرأة المخيفة. وحين استدار ناحية الجدار خلفه لم يكن ما رآه أخف وطأة على روحه من مشاهدة الرموز الحمراء ووجه المرأة المقبض.

شعر برهبة شديدة تسري في أوصاله كاد يرتجف لها جسده، فالتفت يمينًا ويسارًا وكأنه يطمئن إلى أنه بمفرده وأن ليس هناك شبح ينقضّ عليه من أحد الزوايا، ثم عاود النظر إلى الجدار مرة أخرى بأنفاس لاهثة مرتعبة يطالع اللوحات الخمس المُعلّقة فوقه؛ أربعة منهن كنّ يحملون ملامح «جوليا» وهي تقوم بطعن أحد الرجال في كل مرة؛ في مركب خشبي، وداخل سيارة، ورجل فوق الفراش، ولوحة مُربِكة قليلًا وهي تطعن رجلًا داخل مصعد. أما اللوحة الخامسة فكانت تلك اللوحة التي رسمتها «جوليا» له شخصيًّا؛ اللوحة التي سهرا الليالي سويًّا كي ترسمها له، واجتهدت في رسمها

تعبيرًا منها عن غرامها به وعشقها له، ومنعته من الاطّلاع عليها وحَرَمته من مشاهدتها بحجة أنها تريد أن تفاجئه برؤيتها أثناء معرضها الفني.

شعر «صبري» بمزيد من الحيرة حين رأى فستانًا أسود مُعلّقًا أسفل تحت كل لوحة من تلك اللوحات الأربعة، بينما كانت اللوحة التي تحمل ملامحه هي اللوحة الوحيدة التي لم يعلّق أسفلها شيء بعد! أما ما جعل المأساة تزداد تشابكًا في رأسه، واختلطت كل الرؤى داخل عقله، هو التاريخ الذي كُتب أعلى كل لوحة منهم؛ فبرغم اختلاف الشهور إلاّ أن اليوم الخامس من الشهر كان هو العنصر المشترك بينهم جميعًا، أما اللوحة الخامسة التي تحمل ملامحه فكان تاريخها هو نفس تاريخ اليوم؛ الخامس من مايو!

(٦ / ٥ / ٢٠١٥)

الأشخاص المولودون في فترة العدد خمسة (٥) يمتازون بمطاطية السلوك؛ فهم يقفزون سريعًا خارج أكبر الصدمات، ولا شيء يؤثر فيهم لفترات طويلة. وإذا كانوا بطبيعتهم أخيارًا وطيبين، فإنهم يبقون كذلك، وإذا كانوا أشرارًا فاسدين، فليس هناك ما قد يغيّر من طبيعتهم تلك! (010)

- كنت جالسًا أدخن سيجارة في الطابق السفلي للفيلا حيث يقبع مرسمها، أحاول تجميع المشاهد المنهمكة في رأسي والخروج بأية استنتاجات، حين رأيتها تهبط عبر الدرج متجهة صوبي. تحفّزت كل عضلاتي وكأنني أستعد لنزال جديد سيحدث بيننا، وتملكّني القلق من أن تستهدفني بالقتل من جديد، وإذ بها حينما رأتني جالسًا اقتربت نحوى مسرعة وألقت بنفسها بين ذراعيّ، وأخبرتني كم هي مبتهجة لأنني قد جئت لزيارتها. لم يبدُ عليها أنها تتذكر أيًّا مما حدث قبل نومها، ولم يظهر عليها أنها تدّعي ذلك أبدًا، بل كانت طبيعية تمامًا وهادئة التعبيرات، تتصرف معي وكأن شيئًا لم يكن، بل إنها اعتذرت لإفراطها في الشراب وعدم قدرتها على تذكّر كيف انتهت ليلة الأمس وكيف

استيقظت لتجد نفسها نائمة بفستان السهرة الأسود، درجة أن وجهها احمّر خجلًا حين أخبرتها أنني أوصلتها إلى فراشها

بنفسي!

حكّ «فاروق» ذقنه بيده، وأغلق عينيه وكأنه يحاول استعادة شيء ما من ذاكرته، وشرَدَ بذهنه بعيدًا، فقاطعه «صبري» سائلا:

- فاروق، هل سمعتني؟

- نعم، سمعتك جيدًا.

- أين شردت إذًا؟

- أعطني هاتفك المحمول أريد أن أشاهد هذه اللوحات مرة أخرى.

ناوله «صبري»الهاتف وراح «فاروق» يتفحّص اللوحات باهتمامٍ شديدٍ، ثم نهض بشكل مفاجئ مجتذبًا «صبري» من يديه كمن وجد ضالته التي كان يبحث عنها أخيرًا وهو يقول:

- قُم معي!

واتجها كلاهما إلى غرفة مكتب «فاروق».

وما إن دخلا حتى اتخذ «فاروق» مقعده خلف المكتب واجتذب مقعدًا آخر ليجلس «صبري» إلى جواره وقال:

- اجلس يا «صبري»، أريد التأكد من شيء.

جلس «صبري» دون أن يفهم ما يرمي إليه «فاروق». كان رد فعل «فاروق» مخالفًا تمامًا لكل توقعات «صبري» منذ أن سرد عليه تفاصيل ما حدث من «جوليا» في الليلة الماضية، حيث التزم «فاروق» الصمت – بغير عادته - ولم يُعقّب على أي شيء، إلى أن قال بتهكم:

- أعتقد أن هذا الأمر لن يحتاج لخبير تكنولوجيا.

ثم اعتدل في جلسته واضعًا أصابعه فوق لوحة مفاتيح الحاسوب المحمول، ثم كتب داخل مربع البحث في موقع جوجل (جريمة قتل مراكبي في الخامس من يناير)، وبمجرد أن ضغط على زر الإدخال ظهرت نتائج البحث على الشاشة؛ كان أولها عنوان من موقع إخباري شهير

(العثور على جثة مراكبي بسيط مقتولًا داخل مركبه النيلي. الشرطة تحاول جمع الأدلة ودوافع القتل غير معروفة حتى الآن).

هبطت صاعقة عنيفة على وجه «صبري»وهو يطالع نتائج البحث مع فاروق، فصرخ فزعًا:

- يا إلهي!

لم يلتفت «فاروق» إليه بل عاد يكتب داخل مربع البحث (جريمة قتل داخل سيارة في الخامس من فبراير)، ومُجددًا

جاءت النتائج مفزعة لهما حيث طالعهما عنوان مشابه من موقع أكثر شهرة عن سابقه (الشرطة تعثر على سائق سيارة أجرة مقتولًا داخل سيارته في طريق العين السخنة. التحقيقات الأولية للمعمل الجنائي تؤكد أن القاتل امرأة وذلك للعثور على بقايا شعر بشري خاص بامرأة على قميص القتيل».

سند «صبري»رأسه بكلتا يديه وكأنه يحميها من السقوط من فوق كتفيه، بينما استمر «فاروق» يبحث عن المزيد من النتائج التي أكّدت جميعها وقوع جريمة ما في اليوم الخامس من الشهور الأربعة السابقة مع تطابق شِبه كامل مع التفاصيل التي رسمتها «جوليا» في لوحاتها، حتى أصبح الأمر جليًا ولا يحتاج إلى كثير من الفطنة كي يدرك كلاهما أن «جوليا» كانت ترسم جرائمها في تلك اللوحات، وأنهما باتا على يقين من شخصية المذنب في جرائم القتل تِلك، أو بالأحري قد صار كلاهما يعرف شخصية أحد أخطر القتلة المتسلسلين في تاريخ مصر الجنائي!

***

- ماذا ستفعل الآن يا «صبري»؟

بلغت الحيرة مبلغها فوق ملامحه وهو يجيب:

- لا أعرف! ما الذي يجب أن أفعله في رأيك؟

- الأمر كله عائد إليك وحدك، والقرار قرارك، وأنا سأدعمك أيًّا كان اختيارك.

- «فاروق».. هل تدرك أبعاد الورطة التي وقعت فيها؟ أي قرار سأتخذه الآن سوف يسفر عن خسائر فادحة ومصيرية؛ فإن أبلغت السلطات عنها أكون قد قدتها بنفسي إلى حبل المشنقة، وإما أن أختار الصمت وأراهن على حياتي أو حياة أي شخص آخر قد تقوده ظروفه ليكون ضحيتها الجديدة. كما أن القضاء لن يلتفِت إطلاقًا إلى اللعنة التي تتملكّها وتدفعها إلى ارتكاب جرائم القتل، ولن يضع في اعتبارات حُكمه حكايات العفاريت والمردة التي لم نتأكّد منها بأنفسنا بعد، وحتمًا سيصدر الحكم من خلال الوقائع المادية وتحقيقات النيابة فقط. أمّا إن أثرت الصمت ولم أبلغ عنها فلا توجد أية ضمانات لأي شيء! نحن أمام قوى غيبية غير مرئية لا نعرف منبعها ولا نملك أي تصور إلى أين سوف تقودها وستقودنا. الاختيار الآن ينحصر في تسليمها للسلطات ومن ثم التضحية بحياتها، أو بتسليمها لتلك اللعنة غير المعروفة ومن ثم التضحية بحياة شخص آخر. «جوليا» هي حب حياتي يا «فاروق»، وهي الفتاة الوحيدة التي حلمت أن تشاركني ما تبقّى من رحلتي في الحياة. «جوليا» لم تكن

قصيدة عابرة من قصائدي السابقات بل كانت الشِعر ووحيه وإلهامه، هي التي صالحتني على إنسانيتي وعالجتني من غرور الرجل الشرقي وصلفه، وهي التي أخرجتني من جلباب أفكار الصعيد البالية وألبستني ثوب المدنية والتحضر. «جوليا» لم تكن حبيبة فحسب، بل هي رؤية جديدة لأفكاري، وضوء ساطع حلّ على ليل قريتي البدائية، «جوليا» كانت إكمال للمنقوص وتتّمة للمجتزئ، هل نسيت كيف وصفتَ أنت علاقتنا بكونها «علاقة النموذج»؟! خبّرني كم مرة ستعطينا الحياة علاقات كتلك؟!

- أعلم جيدًا كل ما تقوله يا صديقي، لكن صدقني لا يوجد مفرّ ولا مهرب من هذا المصير. سبق السيف العزل وصار مُحتوم عليك أن تحسم قرارك إن عاجلًا أم آجلًا.

عصف الحزن بوجهه «صبري» تمامًا وهو يقول:

- حسنًا.. ماذا لو تبادلنا الأدوار؟ ضع نفسك في مكاني وخبّرني ماذا كنت ستفعل؟

ظهر التردد على وجه «فاروق» وحاول أن يستجمع بعض أفكاره المشتتة:

- هناك شيء لم يزل غامضًا في هذه الأحجية.

- ما هو؟

- تلك الرموز المرسومة فوق الحائط التي لا نعرف إلامَ تشير. وأيضًا صورة المرأة المخيفة التي لا يبدو أنها صورة لضحية أخرى من ضحايا «جوليا».

- ربما هي صورة ضحية مستقبلية كما كان الحال في اللوحة الخاصة بي، حيث وضعت لوحتي وحدّدت تاريخ الجريمة قبل أن ترتكبها.

- لا أعتقد، فهذه الصورة ليست لشكل بشريٍّ بالأساس، بل أستطيع أن أجزم أننا لو فككنا لغز الطلاسم المكتوبة وعلاقتها بصورة تلك المرأة المخيفة ستتضح أمامنا أبعاد تلك الأحجية تمامًا، وربما يساعدها هذا الأمر حينما تمثل أمام القانون في حالة إن قمت بإبلاغ السلطات عنها.

أنت تعرف جيدًا أنني مُطلّع بشكل كبير على تفاصيل عالم الغيبيات وقرأت حكاياته التي حدثت في كل بقاع الدنيا، وكم راعى القضاء في الكثير من الدول رأي الكنيسة بوجود روح شريرة تتحكّم في قرارات الشخص المذنب وتدفعه لممارسة جرائمه، ومن ثم يتغير حُكم المحكمة وتقرر إيداع الشخص الواقع تحت سيطرة الأرواح الشريرة إحدى دور الرعاية ووضعه تحت إشراف طبي عِوضًا عن وضعه فوق مقصورة الإعدام

صمت «صبري» برهة كي يستوعب ما قاله «فاروق»، ثم

قال:

- أولًا، لا أعتقد بوجود أمر مماثل في القانون المصري..

قاطعه «فاروق»:

- هذا ليس صحيحًا؛ ربما يدين القانون المصري المذنب الذي مارس جريمته تحت تأثير «المرض النفسي» لكنه لا يدين من تم إثبات وقوعه تحت تأثير «المرض العقلي» أثناء ارتكابه جريمته.

- وكيف ستفيدنا تلك الرموز في إثبات وقوع «جوليا» تحت سيطرة روح شريرة أفقدتها قدراتها العقلية؟

- لا أعرف تحديدًا الآن، لكن لا بد من المحاولة!

- حسنًا.. وإن سلّمنا لهذه الفرضية، كيف يمكننا حلّ لغز هذه الرموز والكشف عن شخصية هذه المرأة المخيفة صاحبة اللوحة الغامضة؟

- لا يوجد لدينا إلا أمل واحد فقط.

تنبّهت حواس «صبري» جميعها وهو يسأله:

- وما هو؟

- هل تذكر صديقي الفنان التشكيلي العراقي صاحب تمثال ملائكة الحماية الثلاثة؟

- نعم، أعتقد قلت أن اسمه قاسم...

قاطعه «فاروق»:

- قاسم عيلان، وهو ليس مجرد فنان تشكيلي فحسب، بل هو أستاذ في كلية الفنون بجامعة بغداد، ويُعتبر أيضًا أحد جهابذة علم الباراسيكولوجي(009) أو علم ما وراء النفس في العالم. وبما أنه على مشارف زيارة مصر في الأيام القليلة القادمة، أرى أن رأيه قد يفيدنا بشكل كبير فيما نحن مُقبلون عليه من اتخاذ قرارات مصيرية.

حاول «صبري» تفنيد كل تلك المعطيات في رأسه قبل أن يسأل «فاروق»:

- وكيف نضمن أن «جوليا» لن تقوم بأي جريمة جديدة لحين وصول صديقك العراقي؟

أجابه «فاروق» بشكل تلقائي:

- ألم تلحظ أنها لا تقوم بجرائمها إلا في اليوم الخامس من كل شهر؟ مازال لدينا بعض الوقت، ولابد أن نضع رِهاننا كله على رقعة واحدة!

ردد «صبري» بحزنٍ:

- ليتنا نستطيع محو اليوم الخامس من كل شهر وسنملك

حينها كل الوقت!

***

(٧ / ٥ / ٢٠١٥ إلى ١٤ / ٥ / ٢٠١٥)

شهر مايو هو الشهر الخامس في شهور السنة حسب التقويم الجريجوري «الميلادي»، ويعتبر من الشهور الرومانية الذي اتخذ اسمه نسبة إلى الآلهة اليونانية القديمة (مايا)، وهي ابنة الإله أطلس حامل الأرض، وأم الإله عطارد خادم الآلهة، وكانت مايا آلهة الخصب والنمو والزيادة، ودأب الرومان على تقديم القرابين والضحايا لمايا في مطلع هذا الشهر.

- كيف حال زوجتك يا «عم حسّان»؟

ابتسم «حسّان» ابتسامته الصافية وهو يجيب:

- هي في خير حال يا أستاذ صبري.

- حسنًا، أريد أن أطلب منك طلبًا ولكنني أشعر بخجلٍ شديدٍ يمنعني عن البوح به.

- اطلب ما شئت يا أستاذ صبري.

تردد «صبري» قليلًا ثم قال:

- دعني في البداية أتأكّد من شيء ما قبل أن أطلب منك ما أريد. أخبرتني فيما سبق أنك سامحتني عمّا بدرَ مني تجاهك حين أقدمتُ على طردك من الفيلا، وأعرف أنك تفهّمت دوافع

تصرفي، فهل كنت جادًا في هذا العفو ولم تعد نفسك تحمل أي ضغينة تجاهي؟

- يا ولدي، عفا الله عم سلف، كيف لا يعفو العبد الضعيف عن العبد الضعيف؟! بالطبع سامحتك! فانت في منزلة ابني.

- جيد جدًا، أحببتُ أن أطمئن قبل أن أكرّر ما فعلته في المرة السابقة؟

- ماذا تعني يا ولدي؟

- أعني أنني سوف أطلب منك أن تغادر الفيلا مرة أخرى، وسوف تكون مضطرًا إلى مغادرتها الليلة قبل غدٍ.

اندهش «عم حسّان» وسأل «صبري» في ذهول:

- وهل فعلت أي شيء يستحق ما تطلبه؟

- أنت لم تفعل أي شيء يستحق رحيلك لا في المرة السابقة ولا في هذه المرة.

- إذًا ما السر وراء طلبك الغريب هذا يا ولدي؟

- اسمع أيها الرجل الطيب، أنا أثق ثقة كبيرة أنك تهتم لأمر «جوليا» وأنك تعتبرها في منزلة ابنتك التي لم يَجُد بها الزمان عليك، ومصلحة «جوليا» تقتضي أن أسألك الرحيل عن الفيلا بشكلٍ مؤقت، هذا كل ما أستطيع أن أخبرك به الآن

وليس في مقدوري أن أوضح أكثر من هذا.

قال «صبري»ما قال على الرغم من أنه تمنّى في قرارة نفسه أن يخبر الرجل بتفاصيل ما حدث، فيستشيره هو أيضًا ويتخذ من رأيه دعمًا مضاعفًا، فهو أقرب الناس إلى «جوليا» بعده، كما أنه الأكثر دراية بتفاصيل الفيلا وشعابها.

تمنّى أيضًا أن يخبره أنه لا يطرده من الفيلا الآن مثلما فعل مُسبقًا، لكنه يريد أن يطمئن أن «جوليا» لن تحاول قتله إذا حلّت عليها اللعنة في الخامس من الشهر القادم. تمنّى أن يُفهِمَه أنه طرده في المرة السابقة خوفًا منه أن يؤذي «جوليا» بلعنته، أما الآن فهو يطرده خوفًا من أن تؤذيه «جوليا» بلعنتها، وقد انقلب السحر على الساحر! فأي تناقض هذا الذي حرّك قطع الشطرنج بهذا الأسلوب واستبدل أماكنها بهذه الكيفية؟!

لكن، وعلى الرغم من الحزن الذي أصاب نفس «عم حسّان» من طلب «صبري»، إلا أنه لم يُبدِ اعتراضًا، بل أزاح عن كاهل «صبري» أي حرج، وقال:

- وهو كذلك يا أستاذ «صبري»، بحلول الصباح ساكون قد رحلت أنا وزوجتي.

- أشكرك يا «عم حسّان»، وسوف يأتي الوقت المناسب الذي

تتفهّم فيه أسبابي كما تفهمتها من قبل، وأنا على يقين من أنك سوف تعذرني.

- ربّك ربّ القلوب، وستنكشف الغمة بحوله ومشيئته.

قالها «عم حسّان» وهمّ بالتحرك حين أمسك به «صبري» وأردف:

- «عم حسّان»، أريد منك أن تصنع لي نسخة من كل المفاتيح الخاصة بالفيلا قبل رحيلك.

- لك هذا.

ابتسم «صبري» في محاولة لمداعبة الرجل الحزين وقال:

- بالمناسبة يا عجوز.. هل مازالت تلك الجنيّة الجميلة تزورك ليلًا؟!

ولكن لم يبتسم الرجل وهو يجيبه:

- الحمد لله لقد عافاني وشفاني، ويبدو أن نصيحة الشيخ «بشير» إمام قريتنا قد أتت بثمارها.

- وماذا كانت نصيحته لك؟

- قال لي: تزوّج، فبنات حواء يطردن بنات إبليس، إن كيدهن عظيم..!!

***

- أيتها النصّابة المخادعة، سوف أقتص منكِ وأسترجع كل جنيه دفعته لكِ، أنت لا تعرفين من ورائي وأي سلطة يملكون!

- هذا الكلام لا يخيفني فإن كان وراءك سُلطة البشر فأنا ورائي جيش من الجن، تحلّي بالهدوء يا مدام «ريم» فلكل مشكلة حل.

- حلّ؟! هل تحاولين خداعي من جديد، ألم تسمعيني جيدًا، لقد عادت المياه إلى مجاريها بينهما مرة أخرى! وها هما العاشقان ينعمان بالحب والأشواق بينما قلبي يكاد أن يتفتت من الحسرة والغل، أهذه هي النتيجة التي أحصدها بعدما فعلت ما فعلت كي يتحقق فراقهما؟ لقد كفرتُ بالقدر وصاحبتُ الموتى وهبطت إلى رفاتهم في القبور، وفعلت الكثير من أجل الحصول على «صبري»، وانظري ماذا جنيت؟ لا شيء!

- هذا لأنكِ شديدة التعجّل بينما تحتاج هذه الأمور للتريث والصبر! لقد وعدتكِ أن يتحقق المراد بعد خمس دورات للقمر، أي بعد خمس شهور قمرية، ولم تنقضِ هذه المدة بعد، فلماذا العجلة إذًا؟

أجابتها «ريم» بعصبية مفرطة:

- هذا رد فعل طبيعي، فعلاقتهما لم تنقطع إلا لأيام قليلة ثم عادت إلى سابق عهدها من جديد ليصبحا كالسمن فوق العسل.

- اسمعيني جيدًا حتى ننهي هذا الجدال. ليس أمامنا سوى الانتظار حتى يفي الأسياد بوعودهم، أما وعيدك وصراخك فلن يُجدي نفعًا، بل ربما يسبب لكِ الضرر.

- هل تهددينني أيتها المرأة الماكرة المشعوذة؟

- لستُ أنا التي تهدّد، بل هُم، فحاذري من غضبهم، وإياكِ ولعنتهم، فأياديهم طائلة وقدراتهم لا تنفَد. ثِقي في الأسياد، وآمني أن مرادك سيتحقق قريبًا؛ أنا أستبصره وأراه قادمًا يسعى، ويحمل في جعبته الفراق والشرّ والألم. أراه قريبًا وعلى وشك الحلول، بل ربما سيأتي قبل اكتمال دورات القمر الخمس، انتظري فحسب، انتظري واستبشري، سلام.

وهكذا أنهت الساحرة المكالمة قبل أن تضيف «ريم» أي رد آخر، فتمتمت الأخيرة بغيظ مكتوم:

- نعم، سأنتظر وسوف أحصل عليكَ يا صبري حتى لو اضطررت للقتل، أنت ملكي ولن تكون لامرأة سواي أبدًا، مهما كان الثمن.

وهنا ارتفع صوت زوجها قادمًا من غرفة النوم:

- «ريم».. أين أنتِ؟! هيَّا تعالي يا حبيبتي فلم أعد أحتمل الانتظار!

تحسّست السوار النفيس الذي يُزين مِعصمها، والذي أهداه لها زوجها منذ ساعات قليلة وهمست في ضجر:

- نعم أنا آتية كي أدفع لك ثمنه!

***

صرخ بصوت هادر ارتجّت له الجدران ووصل لمسامع الطفلة التي كانت تلهو في غرفتها الصغيرة المجاورة لغرفتهما فأفزعتها:

- أين كنت؟

وقفت المرأة في برود واضعة يديها فوق وسطها وجاوبته بهدوء:

- أخفض صوتك، فابنتك تلهو في غرفتها.

زاد انفعاله فصار صوته كهزيم الرعد:

- أنا أسألك أين كنتِ، فأجيبي!

- كنتُ في زيارة لأختي «تسيبّورا» ثم ذهبنا للصلاة في المعبد، هل ارتحت الآن؟

انقض عليها وأمسكها بعنف شديد من كتفيها:

- كاذبة وحقيرة! لقد اتصلت بـ «تسيبّورا» وأبلغتني أنها لم تسمع منكِ أي خبرٍ طوال اليوم، خبّريني أين كنت كل ذلك الوقت؟

أجابته بنبرة متحدية:

- أنا لا أكذب، وما أخبرتكَ به هو الحقيقة، وتستطيع الاتصال بـ «تسيبورا» مرة أخرى لتسألها!

شدّد من ضغطته العنيفة على كتفيها وهزّها كمن يخفق زجاجة دواء وهو يصيح:

- إذًا فقد رتّبتِ الكذبة معها بعد أن كُشِف أمرك! أريد أن أعرف الحقيقة هل كنت مع أحدهم؟! هل كان «ياكوف» رفيقك القديم، أم كان «شلومي» صديق المعبد، أم هو «جيمس» جارنا الجديد، انطقي من هو؟!

لم تأبَه لمِسكته العنيفة بل اقتربت من وجهه وتشمّمت أنفاسه وقالت:

- يبدو أنكَ قد أفرطتَ في الشراب كعادتك ولا تعي ما تقول، فالتزم حدودك معي أيها السِكّير الثمل.

زمجر بشراسة حيوان بريّ غاضب قبل أن يصفعها صفعة

عنيفة على وجنتها وهو يصرخ:

- أيتها اليهودية الملعونة!

دفعتها قوة الصفعة إلى الخلف وكادت أن تُسقِطها، لكنها حاولت التوازن باستنادها إلى مقعد مجاور لها، إلا أنه لم يعطِها الفرصة لتستعيد توازنها تمامًا فأسرع صوبها وقبض على شعرها الذهبي الناعم بقسوة وهو يُهدر:

- أسألكِ للمرة الأخيرة، أين كنتِ طوال اليوم يا «ليليت»؟

على الرغم من خطّ الدماء الرفيع الذي سال من جانب شفتها أثر الصفعة، إلا أنها استمرت في تحدّيها وأجابته بسخرية واستهزاء:

- حسنًا يا «يوسف»، لقد أعادتني تلك الصفعة إلى رشدي وسوف أخبرك بالحقيقة، كنتُ في المعبد بمصاحبة «تسيبورا» وأدّينا صلاة السبت وسألت الربّ أن يعيد إليكَ عقلَك ورجولتك بعد أن أذهبتهما الخمر.

جُنّ جنونه وبلغت ثورته أقصاها فصاح بها:

- أيتها الساقطة اللعينة!

ثم انقضّ عليها يصفعها بصفعات متتالية بدون مقاومة تُذكر من طرفها، إلى أن حلّ به التعب ومنعه الشعور بالإرهاق

من التمادي في عاصفته الغاضبة، فخرج من الغرفة وهو يترنّح ويتخبط في الجدران متمتمًا من بين أنفاسه اللاهثة:

- يهودية نجسة!

وغادر المنزل.

جلسَت «ليليت» فوق الأرض وهي في حالة بكاء هيستيري والدماء تسيل من فمها وأنفها، ثم رفعت نظرها من بين دموعها الغزيرة إلي اللوحة المعلقة فوق الجدار الموجود أمامها؛ كانت اللوحة عبارة عن نسخة مقلدة للوحة شهيرة للفنان «جون كولير» رُسِمت النسخة الأصلية منها في عام ١٨٩٢ باستخدام ألوان الزيت فوق القماش، ومثلّت اللوحة صورة لامرأة طاغية الجمال تقف عارية تمامًا، وقد أخفَت عورتها بثعبان أسطوري ضخم التفّ حول جسدِها الفاتن وكأنه وشاح يغطيها. أما رأسها الجميل فكان مستندًا فوق رأس الثعبان في حنان وثقة وكأنها تريح رأسها على وسادة ناعمة. كانت تلك المرأة الجميلة تقف مع ثعبانها وسط الجنة، وتظهر من خلفها تلك الشجرة المُحرّمة التي منع الله آدم وحواء عن قطف ثمارها.

مرّت فترة طويلة وهي صامتة تتأمل تفاصيل تلك المرأة الفاتنة المرسومة في اللوحة قبل أن تنهض من فوق الأرض وتتجّه إليها وتُحرّك أناملها فوق ملامحها الفاتنة هامسة لها

في خشوع يشبه المناجاة:

- يا من سُمّيتُ على اسمها العظيم، ووصِفتُ بأوصافها الرائعة، يا أول النساء وآخرهن، يا أشجع النساء وأقواهن، يا سيدة النساء جميعهن.. أعلم أنني أخطأت حين تزوّجت من هذا المسلم العربيّ الغبيّ الذي استمرأ ضربي وإهانتي منذ أول أيام زواجنا، وأعلم أنني سمحت له في البداية بقيادتي والتحكّم في زمام حياتي مقابل ماله الوفير الذي حماني من فقري وعِوزي في أول شهور هجرتي إلى أمريكا، وأعلم أنني خالفت تعاليمك وتعاليم ديني بالزواج مِمن هو أدنى مني عُنصرًا وأنجسَ دمًا. وأعلمُ أنني في مقابل الحصول على أغلب مالِه وتحويله لحساباتي البنكية قد تحمّلت شرقيته المتعجرفة وغرورَه الأجوف. وأعلم أنه لم يعد هناك ما يستحق الاستمرار معه بعد أن خسر وظيفته وخسر المتبقى من ماله بسبب القمار والخمر. وأعلم أنه سيذهب قريبًا إلى بلده ليبيع آخر ما يملكه؛ تلك الفيلا التي أرهقني بقصصها الساذجة، وأنه سيعود لينفق ثمنها على القمار والشراب.

أعلم أنني لن أنتفع منه بأكثر من هذا ولم يعد هناك ما يربطني به، وأن تحمّلي لإهاناته الآن يبدو بلا طائل، إلا أنني مازلت مُصّرة على المُضيّ في طريق رد الاعتبار من مهاناته وعنفه القديم والجديد!

سوف أنتظر بجواره يا سيدتي حتى أُنهي انتقامي وأقضي عليه تمامًا. لقد تعلمتُ منكِ عدم الاستسلام وعدم اللجوء إلى الحلول المباشرة؛ تعلمت من سيرتك أن الطلاق سيكون حلًا سهلًا ولن يحقق الانتقام الذي كان أول مبادئك وباكورة تعاليمك؛ تعلمت أن الخلاص الذي يحدث دون أن يسبقه العقاب هو خنوع ورضوخ؛ تعلمت من سيرتك مع أبيه الأول أن القصاص لا بد أن يأتي قبل الرحيل!

وها أنا قد امتلكت أغلب ماله، وصاحبت عليه الرجال، ولطّخت ما تبقى من سمعته بالعار، وبقي فقط أن أقوده إما للجنون أو للسجن، وقد صار كلاهما وشيكًا؛ بدأ عقله يذهب بالفعل بتأثير الخمر، وديونه باتت تغزوه بسبب القمار، وسوف أظل هنا حتى أشهد آخر لحظات انهيار الدبلوماسي المصري السابق، وأتشفّى في سقوط ابن الأسرة الأرستقراطية العظيم.

أخبريني يا سيدتي.. هل هناك ما يجب أن أفعله خلاف ذلك؟ نار الغضب في داخلي لم تزل متأججة، والرغبة الشهوانية في إذلاله لم تبرُد بعد. دلّيني إلى أساليب أخرى لتحقيق القصاص، وعلّميني كيف أرد كرامتي ردًا غير منقوص، أرشديني إلى طريقتك السرية في إذلال الرجال وكسر أنوفهم، وثبّتي قلبي على اللاحب واللارحمة!

قاطعها صوت بكاء مكتوم بنشيج صادر من طفلتها ذات السنوات العشرة وهي تقف بجوار باب الغرفة وترتعد خوفًا. كانت الفتاة الصغيرة تنصت لكل ما دار بين أمها وأبيها، ثم لكل ما دار بين أمها ولوحة «جون كولير».

أشارت إليها الأم بيدها لتقترب منها وهي تقول:

- لا تخافي يا حبيبتي! تعالي إلى حضن أمك، تعالي يا «جوليا»!

انتفضت «جوليا» انتفاضة هزّت كل أطرافها حين خطرت على رأسها ذِكرى هذا المشهد وهي مسترخية مغمضة العينين تستند برأسها إلى كتف «صبري». كان كلاهما يجلس فوق أرضية قاعة الرسم في الفيلا مستندًا إلى الآخر منذ ما يزيد عن الساعة، لم يتحركّا خلالها ولم ينطق أيٌّ منهما للآخر ببنت شفة.

اهتزّ جسد «صبري» على أثر انتفاضة «جوليا» المفاجئة فانتابه قلق عليها، ولفّ ذراعه حولها وضمّها إليه بشدة وهو يسألها بحنان:

- هل غفوتِ؟

أجابته وهي لا تزال ترتعش:

- يبدو كذلك!

- هل راودكِ حُلم سيء؟

- لا أعرف، ربما!

استمر في ضمّها علّه يستطيع كفكفة ارتعاشها وبعث الطمأنينة إلى داخلها:

- خير إن شاء الله.

أخفت «جوليا» رأسها في صدره وكأنها تهرب من مشاهدة أشياء تفزعها:

- أنا خائفة جدًّا.

- ممّ تخافين يا حبيبتي؟

- لا أعرف! ولكنني لستُ مثلها! لقد حاولت التغلب عليها كثيرًا وحسبتُ انني استطعت! «صبري» .. هل تستطيع حمايتي منها؟

انتبهت حواسه كلها وهو يجيبها:

- أستطيع أن أحميكِ من شرور العالم كلها، لكنني بحاجة إلى ضوء ولو خافت أرى من خلاله أي من ملامح الخطر الذي يواجهك، فأنا كالأعمى الذي يحارب جيشًا يعتمد نظارات الرؤية الليلية في مقابل عتمتي وتعتيمي! كلمّيني وأرشديني، وأعدكِ ألا أسمح لأحد بالمساس بكِ، من هي التي يجب أن

أحميكِ منها؟

بكت «جوليا» بغزارة وهي تقول:

- كيف أرشدك وأنا بلا خارطة وبلا عيون؟

- حاولي التركيز وخبريني من هي؟

- ربما هي أنا أو ربما أنا هي، صدّقني لا أعرف، أنا مشوشة جدًّا ولا أرى موطئ قدمي!

- حسنًا، لا بأس.. لا تجهدي نفسك، لا بد أنَّ هناك أملًا ما وسوف أسعى وراءه حتى وإن تقطّعت كل السبل وامتنعت كل الأضواء؛ أعلم أن الله سيهبني حلًا، ولا بد أن للبصيرة نورًا يرشدها مثلما يرشد النور البصر.

- «صبري» أنا أحبك جدًّا، وأقسم لكِ إنني هائمة بكِ، وهذا هو الشيء الوحيد الذي أستطيع الجزم به وتأكيده.

عانقها «صبري» بكل الحب الذي يُكنّه لها:

- وأنا أعشقكِ عشقًا، وسوف أحارب من أجلكِ كل الإنس والشياطين في هذا الكوكب.

هتفت من بين دموعها:

- هيَّا بنا نسافر الآن إلي قريتك ونلتقي بالشيخ «عبد البر» ونباشر علاجه الروحي.

- هل صرتِ على قناعة بأمر المس الشيطاني؟

- أخبرتك أنني لا أعرف شيئًا ولستُ على يقين من شيء، ولكن إن كنتَ ترى أن الشيخ «عبد البر» هذا هو القشة التي ستنجينا، دعنا نتعلق بها! أنا على استعداد تام الآن أن أسير وراءك معصوبة العينين.

- كلا يا حبيبتي.. لم يعد الشيخ «عبد البر» هو قشّتنا الآن.

ثم أردف بجدية بالغة:

- «جوليا»، هناك أمر أريد أن أسألك عنه.

- تفضل!

نظر لها باستقراء كمن يحاول اكتشاف كيف ستكون ردّة فعلها تجاه سؤاله، وأراد أن يستغل لحظة الشفافية التي تمرّ بها الآن فيتأكد من السؤال الذي أضناه التفكير في إجابته، ويعرف إن كان بداخلها أي وعي لما اقترفته من جرائم أو أنها بالفعل مسلوبة الوعي والإرادة والذاكرة. لم تكن هناك أي وسيلة يعرفها للوصول لليقين الذي سيساعده على اختيار مصيرها القادم. كان دافعه الوحيد هو حبه لها، أما ضميره فلم يكف ولو لحظة واحدة عن جلده بسياط الشعور بالذنب، فهو في نظر العرف والقانون والأخلاق متستّر على قاتلة عتيدة!

- هل سافرتِ خلال الشهور الماضية إلى العين السخنة؟

أجابته بتلقائية شديدة:

- كلا، لم أفعل، بل لم أذهب في حياتي إلى العين السخنة إلا مرّة واحدة فقط بصحبتك أنت.

- ومتى كانت آخر مرة ذهبتِ فيها في جولة نيلية في مركب خشبي؟

أجابته بنفس التلقائية:

- منذ ما يزيد عن العام ولم تكن في مركب خشبي، كانت جولة نيلية في يخت أنيق بمصاحبة «ريم» وزوجها، وأعتقد أنني أخبرتك عنها.

- نعم، هذا صحيح، أذكر أنكِ قد أخبرتِني بالفعل عن تلك الجولة.

- «صبري».. ما الذي ترنو إليه؟!

عاد ليحتضنها وهو يقول:

- لا شيء يا حبيبتي، لا شيء بالمرّة!

***

(١٥ / ٥ / ٢٠١٥)

برغم أن عَلَم الدولة المصرية قد تغير عدّة مرات إلا أن النجمة الخماسية كانت دائمًا موجودة في كل التصميمات التي وُضِعت له من عام ١٨٢٦ إلى عام ١٩٧١!

لم يساعده منظاره الطبي ذو العدستين السميكتين على رؤية الصور المسجلة على الهاتف المحمول برغم تكبيرها إلى حّدها الأقصى، فأقدم على السؤال:

- هل تستطيع إيصال هاتفك المحمول بهذه الشاشة الكبيرة كي تتاح لي رؤية أوضح؟

- نعم، لديّ كابل خاص بذلك.

قال «صبري» وهو يمد يده ملتقطًا الهاتف المحمول من يد الرجل الوسيم، متوسط القامة، الذي يبدو في منتصف الخمسينيات من عمره على الرغم من أن لون شعره المكتسي تمامًا باللون الفضي قد يعطي انطباعًا بأنه في مرحلة سنيّة أكبر من ذلك.

قام «صبري» بتوصيل الهاتف المحمول بشاشة «إل.سي.دي» كبيرة، ثم أعطى جهاز التحكم عن بُعد الخاص بالتلفاز للرجل - الذي لم يكن إلا «قاسم عيلان» أستاذ الفن في جامعة بغداد - بدأ في عرض الصور على الشاشة الكبيرة،

وسط ترقّب من جانب «صبري» و«فاروق».

ظهرت الصورة الأولى للجدار الأسود المخطوطة عليه كتابات رمزية حمراء اللون من لغة غير معروفة ومن أسفلها لوحة المرأة المخيفة ذات الخمار. استغرق «قاسم» وقتًا ليس قصيرًا في النظر إلى اللوحة بتركيز مفرط قبل أن يهتف متعجبًا:

- عجبًا.. هذه كتابة «سومرية»(008)!

تبادل «صبري» و«فاروق» النظرات القلقة إلى أن بادر «فاروق» بالسؤال:

- وهل في استطاعتك قراءتها يا دكتور «قاسم»؟

- نعم أستطيع قراءة أغلب لغات حضارات بلاد الرافدين، لكنني بحاجة إلى قلم وورقة.

وعلى الفور أعطاه «صبري» الورقة والقلم، ثم مضت دقائق طويلة وقاسم منهمك بتركيز شديد في تحويل تلك الرموز إلى حروف عربية فوق الورقة حتى أنهى تجميع الرموز وحوَّلها إلى كلمات عربية مرتبة، فامسك الورقة ونظر لكليهما نظرة ثاقبة شرع بعدها في قراءة ما جاء بها:

- (المجد لسيدتي «ليليتو»، المجد لأمي، المجد لكل الثائرات، المجد لنجمة الخمسة, أما بعد.. بالعزّة وبالرأس التي

لا تذل، بالكبرياء وبالجسد الذي لا يمتهن، أُسلّم روحي لسيدة الكون وزوجة إبليس الأولى «ليليتو» الفاتنة، وأعاهدها بميثاق الدم أن أقدّم لها أرواح الرجال كقرابين حتى تسعد وتنتشي، وأن أسلمها أرواحهم روحًا بعد أخرى حتى أجد في عينيها نعمة، وأن أُتمّهم خمسة في كل يوم يكون خمسة، وفي كل ساعة تكون خمسة، حتى يرضى عني الشياطين الخمسة... فتقبّلي يا سيدتي وامنحيني بركتك وبركة اللون الأسود).

حلّ صمت مُطبِق في أرجاء الغرفة، واعتلى الوجوم وجوه الرجال الثلاثة إلى أن كسر صوت «قاسم» حاجز الصمت وهو يهمس:

- أي لعنة تلك؟! أي لعنة تلك؟!

***

استعرض الدكتور «قاسم» كل الصور التي التقطها «صبري» من حجرة «جوليا» السريّة وسط متابعة من «صبري» و«فاروق» وانتظارهما بشغف أن يفضي الرجل بأي رأي أو استنتاج. وما إن انتهى «قاسم» من مشاهدة كل الصور حتى بدأ في قراءة النص المترجم من جديد دون أين ينطق بكلمة واحدة.

لم يُطِق «صبري» صبرًا فسأله منفعلًا:

- من هي ليليتو تلك؟ لماذا لا تخبرنا بأي شيء يا دكتور «قاسم»؟ لقد بلغ توتري مبلغه!!

أجابه بهدوءٍ:

- أعطني مساحتي الكافية كي أجمع تلك المشاهدات وأستبين تداخلاتها وتباييناتها فأصل بها إلى حيّز الاستنتاجات.

عاد الجميع للصمت مرة أخرى، وبعد فترة طويلة من السكون وتبادل النظرات بين الرجال الثلاثة، نهض «قاسم» من مكانه ووقف بجوار الشاشة كمن يستعد لإلقاء محاضرة على طلاب كليته مُستعينًا بشاشة العرض.

- ما ساقوله قد يبدو مملا وطويلا بعض الشيء، لكن لا بد من الخوض فيه حتى نتفهم أبعاد اللعنة التي نواجهها.

قال «صبري» بحماسٍ:

- كلّنا آذان صاغية يا دكتور.

- بادئ ذي بدء، دعوني أخبركم من هي ليليتو وما هي حكايتها. «ليليتو» هو اسم ظهر في بعض حضارات بلاد الرافدين، كالسومرية والأكدية/ لشيطانة أو لروح شريرة

ترافق العواصف المدمرة وتجلب معها الخراب والمرض والموت أثناء عصف الريح. وربما تعود هذه التسمية إلى فترة تزيد عن ال٣٠٠٠ عام ق.م. كما ظهرت باسم آخر في المعارف اليهودية وهو «ليليث»، وكان ذلك قبل سبعمئة عام من الميلاد.

هتف «فاروق»:

- ليليث؟ أذكر أنني قد قرأت بعض السطور عن تلك الشيطانة أثناء بحثي على شبكة الإنترنت عن هدية تمثال الملائكة الثلاثة الذي أرسلته هدية لي يوم عيد ميلادي، لكنني لم أستكمل القراءة لانشغالي بكتابي الجديد و...

قاطعه «صبري» بعصبية:

- فضلًا يا «فاروق»! دع الدكتور «قاسم» يُكمل ولا تقاطعه مرة أخرى!

أكمل «قاسم» بدون أن يلتفت لهما:

- وسواء كان اسمها هو «ليليتو» أو «ليليث»، فالاسمان يدلان على الصفة المؤنثة من الكلمة السامية الأصل «ليل» والتي تعني حلول الظلام أو أول الليل، والترجمة الحرفية قد تكون «كيان أنثوي ليلي»، وذلك على الرغم من أن النص المسماري قد أشار إلى «ليليتو» باعتبارها روح أرسلتها الرياح

لتنشر فيروسات الأمراض القاتلة. وهذا ليس كل شيء عن أصل هذا الاسم. فمنذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة أطلقت عليها بعض الأساطير تسمية «جنية الليل المجنحة»، واعتبرها السومريون والبابليون والآشوريون والكنعانيون والفُرس والعرب آلهة الفسق والفجور وقاتلة الأطفال الذكور.

وحتى لا نقع تحت طائلة التشتيت دعونا نستخدم اسمًا واحدًا منهما؛ «ليليتو» كما استخدمته «جوليا».

المثير فى الأمر وفقًا لبعض التفسيرات الأخيرة أن ليليتو كانت هي الزوجة الأولى لآدم. فهناك بعض روايات يهودية تقول إن الله قد خلقها قبل حوّاء لتكون الزوجة الأولى لآدم، ثم تطورّت الأمور بينها وبينه حسب تلك الروايات اليهودية. ففي البداية خُلِقت ليليتو بنفس الكيفية التي خُلِق بها آدم، وبنفس مادة الخلق ذاتها التي خُلِق هو منها، ولم تخرج من ضلعه مثلما حدث مع حواء. غير أن آدم وليليتو لم يتفقا مع بعضهما أبدًا، فلم تكن ليليتو مستعدة للخضوع لآدم، وقد برّرت مطالبتها بالمساواة معه بأنها قد خُلِقت من التراب نفسه الذي خُلق الرجل منه، وسعت للحصول على مساواة كاملة مع آدم بتمرّدها وامتناعها عن ممارسة الجنس معه، حيث أرادت أن تكون مُشارِكة في العملية الجنسية بصورة فاعلة وليس مجرد رد فعل لرغباته.

قابل آدم امتناع ليليتو عن الخضوع له بقلقٍ وغضبٍ، واحتدّت الخلافات بينهما حتى فرّت ليليتو من الجنة في النهاية. وبعد هروبها، بحسب كتاب «الزوهر»(007) اليهودي، أصبحت «ليليتو» معشوقة للشيطان، وكانت تلد منه مئة طفلًا في اليوم، فاشتكاها آدم إلى الرب، فأرسل إليها ثلاثة ملائكة لإرجاعها ولكنها رفضت الرجوع فتوعدوها بقتل المئة طفل الذين تلدهم في كل يوم. ومنذ ذلك اليوم تعهدت «ليليتو» أن تقتل نسل آدم من ذكور البشر. ومن هنا نشأت الصورة الذهنية المبدئية لها باعتبارها «الأنثى الشهوانية»، ولاحقًا باعتبارها آلهة الفسق والفجور، وكان عقابها بأن أن تظل غاوية شهوانية وقاتلة أطفال مرعبة وأن تعيش في الأماكن الموحشة والمقفرة من الأرض بين الحيوانات الكاسرة والبوم والغربان.

وهناك خلاف شديد على ظهور شخصية هذه الشيطانة في الكتاب المقدس، ولكن حسب بعض المفسرين اليهود، فإن وصفها قد وَرَد في ثلاثة نصوص؛ حيث وصفت بأنها شديدة الجمال والفتنة وتستطيع سلب عقل أي رجل بسحرها وأنوثتها حين تتجسد له ليلًا لإغوائه ثم قتله دونما رحمة، كما وُصفت بأن لها أجنحة عريضة تُمكّنها من التحليق في سماء الليل السوداء، ولديها أيضًا مخالب طويلة وحادة تُمكّنها من قتل الأطفال الذكور ليلًا أثناء نومهم، وأخيرًا وُصِفَت بأنها

الحية التي أغوت آدم وحواء بالأكل من الشجرة المحرمة.

وبعيدًا عن هذه النظريات اليهودية، وبالنظر إلى أوصافها في أساطير الحضارات الأخرى، نجد أنها قد وُصِفت في أغلبها بكونها كائنًا متوحشًا له هيئة مرعبة ومخيفة؛ حيث صوِّرت على شكل بومة دميمة ولذلك كان البوم دومًا نذير شؤم وخراب في معتقدات بعض الأقدمين، ولأنها قاتلة للأطفال الذكور فكانت الأمهات تضع تمائم لحماية أطفالهن الصغار من شرّها تحمل أسماء ثلاثة ملائكة هم (سينوي، سانسينوي, سامينجيلوف)، وهم الذين كُلّفوا بجلبها من كهفها الموجود في البحر الأحمر ثم أرغموها على أن تقسم لهم أنها كلما شاهدت أسماءهم أو صورهم على التمائم والمعوذات فإنها سوف ترحل في سلام دون أن تسبب الأذى للأمهات أو أطفالهن. وفى بعض الحضارات كانوا يرسمون دائرة حماية حول فراش الطفل وتوضع تعويذة «النجمة الخماسية» داخل تلك الدائرة ويكتب على أطرافها الخمسة أسماء، أولئك الملائكة الثلاثة واسمي آدم وحواء ليشكل هذا الخماسي المقدس حماية ووقاية فعّالة من شرها وآذاها. وفي بعض التعاويذ الأخرى كانوا يكتبون داخل هذه التعويذة عبارة «إلا ليليتو»، وفي الكثير من الأحيان كانت هذه التمائم توضع في الزوايا الأربع للغرفة ظنًا أنها تقوم بحمايتهم من روحها الشريرة النجسة. كما كان هناك معتقد آخر شديد

الغرابة، حيث انتشرت فكرة تقول إن الطفل إذا ضحك أثناء نومه فإن هذا دليل على أنه رأى «ليليتو» وأنها موجودة في الغرفة وتحوم حول فراش الطفل، فكان أحدهم يسارع بضرب الطفل على شفتيه بأصبع واحد لإجبارها على الرحيل. واستمرّ بعض من تلك الأفكار بشكل مكثف بين الكثير من الناس حتى نهاية القرن الثامن عشر، واليسير منها لم يزل كائنًا حتى يومنا هذا، و...

وهنا عاد «فاروق» يهتف مجددًا:

- هذا يفسر ما حدث يوم عيد ميلادي؛ فبمجرد أن رأت «جوليا» تمثال ملائكة الحماية الثلاثة الذي أرسلته لي يا «قاسم» حتى تبدّل حالها وتشنّجت وأتت بتصرفات لم تكن متوقعة منها أبدا.

قال «صبري» مؤيّدًا له:

- نعم هذا صحيح يا دكتور، وسوف نحكي لك تفاصيل هذه الواقعة حين تنهي حديثك كي تضيفها إلى كل ما شرحته لك من قبل عن الأمور الغريبة التي صدرت عن «جوليا» مؤخرًا.

مطّ «قاسم» شفتيه مندهشًا:

- للحقّ هي مصادفة شديدة الغرابة أن أرسل تمثالًا يجسد أسطورة ملائكة الحماية من «ليليتو» فتراه امرأة مصابة

بلعنة الشيطانة ذاتها. لقد رأيت الكثير والكثير من الحالات واللعنات خلال رحلتي في السعي وراء الأساطير سواء بسبب الفن أو بسبب اهتمامي بعلم الباراسيكولوجي، أو للسببين معًا، وكانت الصدفة هي دائمًا العنصر المُحرّك في صياغة الأحداث وتحديد نسقها. لكن بعد مئات التجارب والمشاهدات توصلت إلى يقيني الخاص؛ الصدفة المجردة غير موجودة بالمرّة ولا يمكننا بناء النظريات على أساسها. وكل ما هناك هو أن الأقدار تتلاقى في مواعيد محددة سَلَفًا فتبدو لنا أنها مجرد صدفة غريبة. الصدفة حجر أسمنتي يتراص بجوار الصدف الأخرى، وحين يكتمل البناء تكون الحقيقة هي نتاج اجتماع كل تلك الصدف. الأمور كلها شديدة النسبية، وما يبدو لأحدنا شديد العشوائية قد يبدو لآخر ذي نسق محكم الترتيب. فلهذه الحياة أوجه واحتمالات مطروحة فوق منضدة البشر، والأحمق فقط من يدّعي العلم المطلق الذي ينفي به أي احتمالٍ آخر لا يوافق هواه.

ثم ابتسم «قاسم» للمرة الأولى وأردف:

- بالمناسبة، حين أرسلت لك هذا التمثال يا «فاروق» كان هدفي أن أداعبك؛ فأنت في عينيّ مجرد طفل كبير يحتاج في الكثير من الأوقات إلى الحماية من الشرّ المحيط به، وتصوّرت أن روائيًّا مثلك يحب الكتابة عن عالم الجن

والأرواح وخاض الكثير من دروبها سابقًا سوف يمتلك ولو خيوطًا رفيعة من المعلومات عن أسطورة الملائكة الثلاثة وعن «ليليتو»، فتأتي الصدفة الأولى بأنك لا تعرف عن أمر هذه الأسطورة شيئًا، ثم تأتي الصدفة الثانية فتجعلك شاهدًا على مأساة حبيبة صديقك الأقرب، والتي تعاني من اللعنة بسبب نفس الأسطورة، ثم تأتي الصدفة الثالثة في خطتي المسبقة لزيارة مصر، وها نحن نناقش أمر اللعنة ذاتها. لا أعرف كمّ الصدف الأخرى التي سوف تدور في هذا الفلك أمامك وبمشاهدتك، لكنني على يقين أن احجار كل تلك الصدف في طريقها لبناء حقيقة سوف نعيشها قريبًا.

سأله «فاروق» في دهشة:

- أي حقيقة؟!

- أن تحوّل كل هذه التفاصيل إلى رواية مثلًا، بل ربما تطلق عليها اسم «ليليتو»..!

مطّ «فاروق» شفتيه رفضًا للفكرة.

عاد «قاسم» ليُكمِل حديثه بجدية:

- دعونا نكمل قصة هذه الملعونة «ليليتو» بعيدًا عن الأسطاير وبعيدًا عن فلسفتي في الوصول إلى الحقيقة، وهذه المرة سنتكلم سريعًا من زاوية علم النفس والتي كان

لهذه الشيطانة ظهورها الخاص فيها. ففي عام ١٩٣٢ ابتكر عالم النفس النمساوي «فريتز ويتلز» عقدة نفسية جديدة أطلق عليها اسم «عقدة ليليث». وترتكز هذه العقدة كذلك على ما جاء في الأسطورة، حيث أن الأسطورة قد قسّمت صورة الأنثى منذ آلاف السنين إلى حواء وليليتو، فتقدَّس صورة حواء وتلعن صورة ليليتو وتحرّمها. وعليه فإن حواء ترمز لخضوع المرأة والسلبية الجنسية وللزواج الأحادي والأمومة والتضحية والعبادة وتربية الأولاد وخدمتهم، وهو في الواقع مجرد جانب واحد فقط من الأنوثة، أما الجانب الآخر فتعبر عنه ليليتو التي ترمز للمساواة والفاعلية الجنسية والرغبة ورفض الإنجاب والأمومة.

وهكذا نتعرّف في كلٍّ من حواء وليليتو على وجهين من الوجود الأنثوى، منفصلين عن بعضهما البعض ومتنافرين على الأغلب، ويكّنان مشاعرًا عدائية تجاه بعضهما البعض، ويمثلان نمطين مختلفين من النساء: القديسة والعاهرة. حوّاء هي المرأة الحنون والوفية المخلصة والخاضعة للرجل، بالمقابل نجد ليليتو تمثل حياة اللذة والرغبة والإغراء والشهوة والاستقلال.

أما الرجال فهم دائمًا ما يشتاقون إلى كلا الوجهين، ويخشون منهما في الوقت ذاته. فهم يصدّون خوفهم من

الملل وفقدان الرغبة في الزواج من حواء عن طريق المعشوقات أو الانغماس مع بائعات الهوى.

ونتيجة للخوف من القوة الأنثوية وجيَشان الرغبة والاستقلالية يحاولون قمع ومقاومة أي مظهر من مظاهر ليليتو في كل امرأة وتحريمه أخلاقيًّا، غير أن تحريم وإنكار ليليتو بالنسبة للرجال والنساء معًا يعد منبعًا للمعاناة الوخيمة التي لا يمكن وصفها، ولصراع الجنسين المرير وللعلاقات غير السعيدة، وهو السبب الكامن خلف ما يسمى «الاضطرابات المبكرة» لدى الأطفال.

أيها السادة إذا كان علم النفس قد أبقى على «ليليتو» إلى يومنا هذا ولم يترفّع عن الأسطورة ويعتبرها حماقة من حماقات القدماء، فإن التراث الشعبي أيضًا حافظ على بقاء «ليليتو» بيننا إلى يومنا هذا. وقد تندهشون إذا قلت لكم إن الكثير من البلدان العربية لازالت تخشى منها، وتنخلع قلوب البسطاء فيها من مجرد ذكر سيرتها، فنجد مثلًا أن ليليتو مازالت تُذكر حتى الآن في قرى ونجوع مصر فيطلقون عليها «النداهة»، وهكذا في الكثير من قرى وكفور المنطقة العربية ويطلقون عليها اسم «أمنا الغولة»!

أما الصدفة الأخيرة التي أريد أن أسوقها إليكم فهي نبوءة الكاتب العظيم فيكتور هوجو في كتابه نهاية الشيطان سنة

١٨٨١، والذي مزج فيها بين شخصية تلك الشيطانة الأولى وبين شخصية المرأة المصرية الأشهر «إيزيس» ليكون الناتج كيانًا أنثويًّا واحدًا يحمل كل الصفات الموجودة في ليليتو وإيزيس. وكأنما كان يعرف أن «جوليا»، صاحبة الدم المصري، سوف تتجلّى ذات يوم في صورة ليليتو والعكس.

وعن هذا يقول «هوجو»:

امرأة الشيطان، امرأة الظلام الكبرى؛ هذه ليليث التي نسميها إيزيس على ضفة نهر النيل

إنني ليليث ـ إيزيس، الروح السوداء للعالم!

قال «صبري»:

- هذه ليست صدفتنا الأخيرة اليوم عن ليليتو، هناك واحدة أخرى.

ثم نظر إلى الرجلين الآخرين وأردف:

- أم «جوليا» تُدعى «ليليت»!

***

مر وقت طويل والرجال الثلاثة يتجاذبون أطراف الحديث عن لعنة «ليليتو» شيطانة الكون الأولى التي حلّت على روح «جوليا» المسكينة، وأعاد «صبري» على مسامعهما سرد كل

التفاصيل والملاحظات التي عايشها من سلوك «جوليا» غير الطبيعي، قبل أن يتوجه بالسؤال إلى «قاسم»:

- الشيء الذي لم أستطع فهمه إلى الآن هو اللغز الخاص بالرقم خمسة. لماذا تقودها لعنة هذه الشيطانة إلى القتل في هذا اليوم من كل شهر؟! وفقًا لمعلوماتي المحدودة في هذا المنحى، أن البعض يرى في الرقم ٦ رقمًا شيطانيًا برغم أنني لا أعرف السبب وراء هذا الادعاء، ألم يكن من المنطقي أن تحل لعنة القتل تلك في اليوم السادس من كل شهر؟!

أكد «فاروق» على كلام «صبري» قائلًا:

- نعم، هذا يبدو أكثر منطقية، لماذا تحلّ هذه اللعنة عليها في اليوم الخامس؟

هزّ «قاسم» رأسه مصدقًا على كلامهما وقال:

- أوافقكما الرأي، لكن عندي نظرية في هذا الشأن.

سأله كلاهما في صوتٍ واحدٍ:

- ما هي؟!

- هناك آية في الكتاب المقدس تقول: «هُنَا الْحِكْمَةُ مَنْ لَهُ فَهْمٌ فَلْيَحْسُبْ عَدَدَ الْوَحْشِ، فَإِنَّهُ عَدَدُ إِنْسَانٍ، وَعَدَدُهُ: سِتُّمِئَةٍ وَسِتَّةٌ وَسِتُّونَ»(006) ، ولقد ذهب بعض مفسري الكتاب

المقدس لنتيجة مفادها أن هذا الوحش هو الشيطان نفسه، أما الرقم ٦٦٦ فهو الرقم الدال على اسمه لأن الحروف الأبجدية كان لها دلالات رقمية في اللغات اليونانية والرومانية والقبطية والعبرية قبل اختراع الأرقام. ومازالت هذه المعادلة الرقمية للحروف تُستخدم من قِبَل قُراء الطالع والمنجمين والسحرة. لذا، وبدون الخوض في المزيد من التفاصيل، أصبح الرقم ٦ هو الرقم الدال على سيادة الشيطان وسطوته، وبناءً على هذا الظن استخدمته الماسونية وعبدة الشيطان في أغلب رموزهم ومعتقداتهم. وزاد الطين بلة ذلك الكم الضخم من الأفلام السينمائية الأمريكية والكتب الغربية التي رسّخت لهذا الظن في نفوس الكثيرين. لذا دعونا نستخلص من هذا نتيجة ظنّية بأن الرقم ٦ يمثل الشيطان بشكل ما.

أما الرقم ٧ فهو الرقم المقدس في أغلب الديانات البشرية والسماوية. ولقد ورد هذا الرقم في الكتاب المقدس بجميع مشتقاته ٣٩٢ مرة، فهو يمثل الكمال الروحي. وحسب المعتقد اليهوديّ، فإن الله أتم خلق الكون في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع لأن كل شيء كان قد تم خلقه حسنًا وكاملًا، ولا يمكن أن يضاف شيء لما خلقه الله. كما أن أول إنسان صعد إلى السماء كان «أخنوخ» (نبي الله إدريس)، وهو الحفيد السابع من نسل «آدم»، كما أن «إيليا» استراح بظهور

الغمامة، بعد صلاته السابعة. وزيادة في دلالات التقديس، كانت أعياد اليهود سبعة. أما في المسيحية، للرقم ٧ دلالات كبيرة في العهد الجديد؛ فأسرار الكنيسة سبعة، ويتكرر هذا الرقم كثيرًا في سِفر الرؤيا؛ سبع كنائس، ومنائر، وتخوم. كما أن «نعمان السرياني» برأ من مرضه بعد أن استحم سبع مرات.

أما في الإسلام فحدّث ولا حرج. ذكر القرآن الكريم عدد السموات بأنها سبع سموات، وهكذا عدد طبقات الأرض، وآيات سورة الفاتحة سبعة، وحديث النبي أن الله سيظل في ظله يوم القيامة سبعة، وتتكون لفظة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) من سبع كلمات، وفرائض الحج وواجباته سبعة، ويطوف المسلم حول الكعبة سبعة أشواط، ويسعى بين الصفا والمروة سبعة أيضًا، وفى النهاية يرمى الجمرات على سبع دفعات، كل دفعة سبع جمرات.

ما أرمي إليه باختصارٍ شديدٍ هو أن الرقم ٦ قد يمثّل الشرّ وسطوة الشيطان، بينما يمثل الرقم ٧ القدسية وتجلي القدرة الإلهية.

أما رقم خمسة (٥) الذي نتعامل معه، وفقًا لهذه المعطيات السابقة وبناءً على نظريتي التي أحدثكم عنها، فإنه الرقم الذي يمثل منطقة الاختيار التي يخوضها البشر كي يقرروا

اتجاهاتهم، وهو الصراع الذي يعيشه الإنسان بين الشر والخير، وهو الاختبار الكبير الذي يخوضونه ليصلوا إما إلى لعنة الستة أو إلى قدسية السبعة. فالرقم خمسة الذي يمثل الحواس وعناصر الوجود هو امتحان حياتنا الأكبر، إما أن نتحقق وإما أن نفشل.

دعوني أعطيكم مثالًا لهذا الصراع في حالة «جوليا»؛ فالخمسة قد تكون حماية من الشيطان وأتباعه مثل «ليليتو» حسبما جاء في أسطورة نجمة الحماية الخماسية التي تحمل أسماء آدم وحواء والملائكة الثلاثة، وقد تكون اتباعًا لسبيل الشيطان وأتباعه مثلما يحدث في طقوس عبدة الشيطان عبر نجمة اللعنة الخماسية التي تحمل أسماء «ليموناي» الحية التي سمحت لإبليس بدخول الجنة لإغواء آدم، و «لورد بيليل» حارس الجحيم، و «لورد باثن» المسؤول عن تفعيل السحر الأسود، و «لوسيفر»

وهو الابن الأكبر للشيطان من زوجته «ليليتو»، و«سيتان» وهو الشيطان نفسه.

ما أريد قوله باختصار هو أن الرقم خمسة مفترق طرق، يختار الإنسان عنده الوصول إلى الرقم (٦) وتتبّع الشيطان أو يختار الوصول إلى الرقم (٧) وتحقيق اليقين؛ فإما الحماية وإما الهلاك.

حلّ الوجوم الشديد على وجه «صبري» وسرح بنظره بعيدًا وكأنه يحاول إعقال هذه النظرية وتصديق منطقها، بينما بدا على «فاروق» بعض التفهّم حين قال:

- إذًا فقد اختارت «جوليا» طريق الهلاك وباتت «ليليتو» مسيطرة على روحها تمامًا، فقادتها إلى محاولة إرضاء شياطين النجمة الخماسية بتقديم قربان بشري في اليوم الخامس من كل شهر.

ووافقه «قاسم»:

- نعم، وكان قربانها الأخير هو تسليم تام ونهائي للشيطان وإتمام عهد الشرّ بينهما، وقضاء على ما تبقى من فرصتها البشرية في النجاة من اختبار الرقم خمسة، لكنها فشلت في إتمام هذا العهد حينما فشلت في قتل «صبري». لذا فأنا أجزم أنها سوف تعيد الكرة وسوف تحاول حصد الروح الأخيرة في الخامس من الشهر القادم كي تكمل الميثاق وترضي رؤوس النجمة اللعينة وتحقق مبتغى «ليليتو» رفيقة الشيطان ومخلصته.

قاطعه «صبري» بشكل حادٍ:

- هذه فرضية خاطئة تمامًا؛ «جوليا» مسلوبة الإرادة ولا تعي ما قامت به ولا تتذكّره! كيف تفترض أنها تمارس الآن

اختيارًا حرًا وهي مُسيّرة بلا مشيئة؟!

رد «قاسم» بثقة:

- لا بد أنها مارست الاختيار في مرحلة ما من قبل. ألم أقل لك في غِمار حديثنا أنه لا مجال للصدفة؟!

***

قاد «صبري» سيارته وهو في حالة يرثى لها بعد أن انتهت جلسته الطويلة والمرهقة مع «قاسم» و «فاروق». كان في طريقه للاطمئنان على «جوليا» مثلما صار يفعل يوميًا في الآونة الأخيرة. شعر أن رأسه قد أوشك على الانصهار وعقله يكاد ينفجر ويبعثر أفكاره المرتبكة إلى خارجه كشظايا الزجاج، وكان كلما استرجع ما قاله «قاسم» وهو في الطريق إليها يشعر بالمزيد من الدوار وفقدان التوازن وتضارب الانفعالات. وعلى الرغم من الجزء المنطقي المقبول في كلام الرجل إلا أنه يتساوى مع الجزء المفعم بنظريات الشطط والجنوح. وبقدر ما كان متلهفًا إلى لقاء هذا الرجل، وانتظر بفروغ صبر لحظة وصوله إلى مصر، متمنيًا أن يجد عنده الحل الحقيقي للورطة التي يعيشها، فإذا بالرجل يزيد من حيرته وتشتيته لأضعاف مضاعفة، ويقوده لنظريات تعود لبداية الخليقة ولقصص أساطير الحضارات وصراعات الآلهة في المعابد القديمة. شعر «صبري» أن ذلك اللقاء قد زاد من

عجزه التام في الوصول لأي قرارٍ يهبه الراحة الحقيقية. وكما قادته أفكار «فاروق»، ووالده، والشيخ «عبد البر» إلى خيارات لم يقتنع بها حقًا، ها هو ينقاد مرة أخرى وراء أفكار «قاسم» وحلوله المقترحة! الثابت الوحيد الذى يعرفه يقينًا فى هذه اللحظة هو أنه لن يبلغ السلطات عن «جوليا» أبدًا مهما كانت العواقب؛ فمن عساه يستمع إلى تفاسير الشيخ «عبد البر» عن وجود جن يتحكّم في «جوليا» ويرفع عنها المسؤولية عن تصرفاتها؟! أو من عساه يستجيب لنظريات «قاسم» عن سيطرة «ليليتو» شيطانة الكون الأولى واستحواذها على روح جوليا؟! القانون هو القانون ولن يرحمها أحد، وسيكون مصيرها المحتوم هو حبل المشنقة.

لم يكن أمامه خيار إلا الانسياق وراء اقتراح «قاسم» الأخير، والذي جاء بعد نصيحة وافقت هواه بعدم إبلاغ السلطات عن وقائع القتل تلك، حيث أكّد له أنها تحت تأثير لعنة «ليليتو» في حكم غير المسؤولة عن تصرفاتها بشكل كامل، كما أن محاولة إثبات أمر هذه اللعنة للسلطات لن يكون أمرًا سهلًا، وسينتهي بوضعها تحت الملاحظة النفسية، وعلماء النفس لا يقرّون بوجود هذه الحالات التي يتصل فيها البشر بعوالم الغيب، والرهان على تقاريرهم سيكون شبيهًا بالرهان على فرس أعرج في سباق خيول عربية أصيلة.

أما عن الاقتراح الذي قدّمه «قاسم» فقد أشار فيه إلى أن الحل الوحيد المتاح لهم الآن هو أن يسافر «صبري» بصحبة «جوليا» إلى ولاية فيرجينيا الأمريكية، حيث يوجد هناك مركزٌ للدراسات الروحية يشرف عليه عالم أمريكي من علماء الباراسيكولوجي المقرّبين منه، والذي تربطه به علاقة صداقة وطيدة. هذا العالم قد استطاع التعامل مع حالات شديدة الخطورة كحالة «جوليا» ونجح في الوصول مع أغلبها إلى برّ النجاة. وبمجرد أن قبل «صبري» ذلك الاقتراح اتصل «قاسم» بالعالِم الأمريكي وحدّدا سويًّا موعدًا لرحلة «صبري» و«جوليا» في الأول من يونيو المقبِل، حيث لا يجب أن تبقى «جوليا» بدون ملاحظة دقيقة إذا حلّت ليلة الخامس من الشهر القادم!

لم يعرف «صبري» إن كان قد حالفه التوفيق في قبول فكرة «قاسم» أم أنه بذلك يقود «جوليا» ونفسه إلى أبواب مصيبة أكبر. وكيف له أن يعرف وهو مسلوب الإرادة تمامًا في كافة اختيارته السابقة، فيتحرك في حدود المتاح أمامه من الحلول على الرغم من أنه لم يجد قناعته الشخصية التامة في أيٍّ من الطرق التي سلكها.

شرد بذهنه بعيدًا متأثرًا بما تذكّره من حديث «قاسم» واستوحشت الأسئلة المتناقضة داخل رأسه، فتراصّت الأفكار

ونقائضها بجوار بعضها البعض حتى شعر أن عقله أصبح بات شبيهًا برقعة الشطرنج حيث البلاطات البيضاء تجاور السوداء فيتشكّل النسق المتداخل؛ الدين بجوار الأسطورة، والعقل بجوار الحواس، والشك بجوار اليقين، والواقع بجوار الغيب، والإيمان بجوار الكفر، والحدس بجوار الحس، والأرقام بجوار الحروف، و «حوّاء» بجوار «ليليتو»، و»آدم» بجوار الشيطان! فأي طريقٍ يسلك؟ وإلى أي رقعة يحرّك القطعة القادمة؟ وكيف يضمن أن تلك حركة صحيحة تؤدي لوصول البيدق إلى هدفه؟ وهل يجب أن يدافع عن ملك جيشها بقتل ملك الجيش الآخر، هل يجب القضاء على الجهة المقابلة لتبقى جهتنا في أمانٍ، وهل ستكفينا المحاولة أم لا ضمان للنجاة إلا بتحقيق الفوز والهتاف كش.. مات..

لا توجد أي وسيلة نضمن بها التعايش السلمي بين الأسود والأبيض، فلماذا تفرض علينا الحياة اختيارين فحسب؛ فإما اليمين أو اليسار؟ كيف بعد كل ما بلغناه من تقدم وحضارة مازلنا منغمسين في نفس الورطة، ومازلنا نخوض ذات المصير؟ مازلنا حائرين بين عالمين، نخلط ماء الواقع بزيت الغيب، نتشبث بالمعلوم تارة، ونتمسك بالمجهول تارة، وندّعي الوصول إلى الحقيقة باجتماع الصدف!

هزّ «صبري» رأسه بعنف وكأنه يحاول الإفاقة من غيبوبة

أفكاره، ونظر فإذا به عالقًا بين تقاطع طريقين، وزحام السيارات متشابك بشكل شديد التعقيد، والكل يهتف في عصبية وانفعال، وصافرات التنبيه الخاصة بالسيارات تصنع أصواتًا فوضوية هيستيرية. وهنا اقتربت فتاة يافعة من نافذة سيارته المفتوحة، وارتقت بجسدها النحيف فوق أصابع قدميها كي تصل بيدها إلى مرآة مقصورة قيادة السيارة، وأخيرًا استطاعت تعليق خرزة زرقاء عليها، ثم ابتسمت في وجه «صبري» وقالت ترجوه:

- نفّعني يا صاحب الوجه الجميل، خمسة في عين من يراك ولا يصلي على النبي!

***

(٢٥ / ٥ / ٢٠٠٠ و ٢٥ / ٥ / ٢٠١٥)

إن أبلغ درس يتعلمه الإنسان من الحياة هو أن ليس هناك ألم لا يستطيع المرء أن يتخلّص منه بعد فترة معقولة من الزمن، أو أن يصادقه ويتعايش معه، أو يحيله إلى أنس وسعادة بشيء من سعة الأفق وعمق البصيرة، والنظرة الشاملة للحياة بكل ما فيها من جوانب؛ فالسعادة والألم يجاوزان الجوانب الخاصة للإنسان. (005)

- أريد بعض المال.

- ولماذا تريد المال أيها السكّير؟! بالطبع سوف تذهب للعب البوكر مع الفاشلين من أمثالك.

- ليس هذا من شأنك!

- بل من شأني! إنه مالي ومال «جوليا» ابنتي!

ضحك بطريقة استهزائية:

- مالك؟ عن أي مال تتكلمين أيتها اليهودية التعسة؟! هذا النعيم الذي تمرحين بين أركانه الآن ليس إلا إرث عائلتي عظيمة الشأن. وما أدراكِ أنتِ بأمر العائلات العريقة وأنت لستِ إلا مهاجرة وضيعة رماها النظام الشيوعي على الأراضي الأمريكية؟!

ردّت بالاستهزاء نفسه:

- وما الذي يضيرني في ذلك؟! ليس في هروبي من ضيق الحال في أوربّا الشرقية ومجيئي إلى أمريكا ما يعيب. العيب على الأسر العريقة التي هرّبت أموالها خارج بلادها خوفًا من تأميمها على يد نظامكم الناصري. ثم أنك من سعى لنيل هذا الجمال الأوربي الشرقي بكل السبل. أنسيت؟!

اقترب منها مبديًا بعض التذلل:

- حسنًا.. أنتِ على حق. أعطني بعض المال وسأذهب في سلام.

- قلت لك إنني لن أعطيك أية أموال. اذهب وجِد عملًا يوفر لك المال الذي تحتاجه، ويكفي أنني أوفر لك وجبات طعامك حتي اليوم.

انفعل مُجددًا وصرخ بها:

- هل نسيتِ أنني فقدت عملي الدبلوماسي من أجل الزواج بك؟(004)

- لم أنسَ، ولم أنسَ أيضًا أنك لم تبحث عن عمل آخر مذ حينها.

ركع على ركبته أمامها وأمسك يدها يقبلها:

- «ليليت».. أرجوكِ! أعطني بعض المال فحسب.

سحبت يدها من يده بعنف:

- أي رجل أنت؟! ألهذا الحد تسلّط القمار عليك؟ حسبت أنك ستذهب لغرفة ابنتك وتبارك لها يوم عيد ميلادها، بدلًا من الركوع هكذا!

- سأذهب لتهنئتها بعد أن تعطيني بعض المال.

أخرجت من حقيبة يدها بعض العملات المعدنية وألقتها على الأرض فانحنى يجمعهم ثم نظر لها بعصبية:

- خمسة دولارات؟

- نعم، هذا يكفيّ تنحّى جانبًا الآن ودعني أمر.

- أين ستذهبين؟!

- سأذهب للاحتفال بعيد ميلاد «جوليا» مع بعض الأصدقاء.

- بل ذاهبة للقاء «جيمس»! لقد أخبرتني «جوليا» أنها رأتكما منذ ليلتين في غرفة نومنا.

ابتسمت في تحدٍّ:

- طالما تعرف وجهتي فلماذا تسألني إذًا؟

همّ لصفعها وهو يصرخ:

- ساقطة!

تفادَت صفعته ودفعته بعيدًا فلم يقوَ على معاودة الكَرّة، ونظرت له بعد أن سقط على المقعد القريب إثر دفعتها:

- أتعرف؟! لقد اكتفيت! لن تصل لحالة أكثر انحطاطًا ممّا أنت عليه الآن. غدًا سأتصل بوكيلي القانوني للشروع في إجراءات طلاقنا، ولا أريدك في منزلي حين عودتي وإلا سأتصل بالشرطة!

- أتطردينني من منزلي الذي ابتعته بمالي؟

- لم يعد كذلك! اسمي فقط فوق صكوك ملكية كل الممتلكات، بما فيها هذا المنزل.

لم يُجِبها «يوسف»، ومرّت أمامه كل مشاهد حياته السابقة منذ أيام الصبا الجميلة في حيّ الزمالك وحتي تلك اللحظة التعيسة، مرّت في سرعة الضوء لتكشف له كيف انغرس في هذا المستنقع الآسن، وشعر بالدماء تصهل في أوردته، تلك الدماء المتشبّعة بآثار الكحول، فنهض من فوق المقعد واتجّه إلى المطبخ وهو يتخبّط في كل الأشياء مصدرًا جلبة عنيفة، فأحضر سكّينًا كبيرًا وعاد ليبحث عنها. كانت «ليليت» واقفة أمام مرآة الردهة تضبط مساحيقها حين شاهدته بطرف عينها

وهو يعدو كالمجنون صوبها رافعًا سكينه الكبير، فالتفتت وهي تصرخ:

- «يوسف».. ماذا تفعل؟

لم يكن يدري ما الذي يفعله، كان مدفوعًا بشدة إلى قتلها برغم أنه كان دائمًا أشدّ جُبنًا من أن يفعل أمور كتلك، لكن الشيطان قد تملكه تمامًا في تلك اللحظة وأعطاه الشجاعة المفقودة والقوة المندثرة، فهوي عليها بالسكين الكبير ليستقر في عنقها، ثم ضحك بهيستيرية حين شاهد الدماء تخرج من وريدها كشلال أمازوني ضخم. وحين سحب السكين من بين لحمها وأوردتها لمح ابنته «جوليا» تقف أمام باب غرفتها تراقب ما يحدث من الرواق المؤدّي إلى الردهة. سالت الدموع من عينيه وهو يرفع السكين من جديد لأعلى قبل أن يقول:

- أنا آسف يا ابنتي، آسف جدًّا!

ثم طعن نفسه طعنة غائرة في القلب، وسقط بجوار ليليت، فاختلطت دمائهما لتصنع نهرًا صغيرًا يجري على أرضية الردهة التي تشبه رقعة الشطرنج، حيث كانت البلاطات السوداء تجاور البيضاء واحدة تلو الأخرى.

اقتربت الطفلة الصغيرة في خطوات مترددة حتى بلغت الردهة ووقفت متحجّرة متيبّسة لم يصدر منها أي صوت،

لكنها سمعت حشرجة تصدر من أمها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة:

- «جوليا».. استمعي إلى «ليليتو» وانتقمي من كل الرجال!

بلغ نهر الدم الساخن الجاري فوق أرضية الردهة أطراف قدمي «جوليا» فشعرت بحرارته تبلل أصابعها الصغيرة، فألقت نظرة أخيرة على الجثتين وسقطت مغشيًا عليها.

أفاقت الطفلة الصغيرة من غشيتها واتجهت صوب فراش «صبري» الغارق في نوم عميق، ووقفت على طرف الفراش ونادته برقة:

- «صبري».. «صبري»!

فتح عينيه بصعوبة فرآها أمامه ترتدي ثوبًا طفوليًّا أبيض اللون، فمدّ يده إليها قائلا:

- تعالي أيتها الجميلة ولا تخافي.

قالت بحزن:

- هل رأيتهما؟

- نعم، رأيت كل شيء!

- حسنًا.. يجب أن أرحل الآن، أما أنت فاذهب إلى الغرفة السوداء، ستجد هناك كل ما تحتاجه.

مدّ يده إليها لكنه لم يستطع لمسها وقد تحوّلت صورتها إلى بخار أبيض تصاعد إلى أعلى، فهتف بلهفة:

- «جوليا» لا تذهبي.. لا تذهبي.. لا تذهبي!

تحول البخار فجأة إلى اللون الأسود، وتشكّل في صورة امرأة مخيفة الملامح ترتدي فوق رأسها ما يشبه الخمار الأسود، وصرخت في وجهه بعنف:

- هي ملكي الآن، لا تحاول أن تستردها، لا تحاول فقبضة يدي محكمة، مصيركم بين أصابعي وها أنا أحرككم كعرائس الخشب.!

انتفض جسده انتفاضة قوية جعلته يستيقظ من نومه العميق فزِعًا، ثم اعتدل ليجلس فوق الفراش وينظر حوله بارتياع فإذا بالغرفة خالية تمامًا ولا يوجد بها أحد سواه، فمدّ يده والتقط كوب الماء القريب من فراشه ورشف رشفة ابتلع معها خوفه وارتعاشات جسده ثم همس:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أي حُلمٍ هذا؟!

التقط «صبري» سيجارة وأشعلها محاولًا جلب الهدوء إلى نفسه، ومرّت بضع دقائق إلى أن عاد عقله للوعي بشكل شبه كامل، فأدرك أن كل ما رآه كان مجرد حلم! كلا لم يكن حُلمًا، بل كانت رؤية كاشفة؛ قوة ما أتت لتظهر حقيقة ما جرى لـ

«جوليا» أمامه وتفتح له الباب المغلق بمزلاج المجهول؛ قوة جاءت لتدعمه وتزيح الركام عن السرّ المدفون، ولكم كان في أمسّ الحاجة إلى تلك القوة كي تضيء له نفق البصيرة المظلم وتغنيه عن ضبابية البصر وشوشرة صورته. فأمسك بهاتفه المحمول ونقر على متصفح جوجل باحثًا عن جريمة حدثت في الأراضي الأمريكية، جريمة تاريخها في الخامس والعشرين من مايو.

وبعد بعض البحث بدأت النتائج في الظهور:

«مواطن أمريكي من أصول مصرية يقتل زوجته صاحبة الأصول التشيكية قبل أن يتخلص من حياته منتحرًا. الجريمة وقعت أمام أنظار طفلتهما ذات السنوات العشر. الطفلة تُعاني من حالة صدمة شديدة والسُّلطات قامت بنقلها إلى إحدى دور الرعاية المتخصصة».

أصابه الوجوم لبضع دقائق قبل أن ينتصب واقفًا كمن تذكّر أمرًا هامًا، وهتف:

- الغرفة السوداء!

***

التقرير النهائي عن الحالة...

* بعد الانتهاء من اجراءات التقييم النفسي والتشخيصي،

ومتابعة الحالة منذ قدومها إلى المصحّة حتى لحظة إعداد هذا التقرير، خلصت النتيجة إلى أن الحالة مصابة باضطراب الكرب التالي للصدمة نتيجة لمشاهدتها المباشرة لحادثة قتل أمّها على يد أبيها قبيل انتحار الأخير.

*وصلت الحالة إلى المصحّة في حالة صدمة تامة، وامتنعت عن الكلام وتناول الطعام والقيام بأي نشاط أو تجاوب مع أي من طاقم الرعاية المكلف برعايتها.

* لوحظ ظهور أعراض شبه فصامية من ضلالات وأوهام متمّثلة في تحدُّث الحالة مع شخصية وهمية تدعى «ليليتو» ويُرجّح الأخصائي المسؤول عنها أنها تتوهّم لرؤية طيف أمها الراحلة تقوم بطمأنتها وحمايتها، وذلك لتشابه الاسم مع اسم الأم «ليليت».

* بعد ظهور هذه الهلاوس بفترة تحسّنت حالة الطفلة وبدأت في استعادة نشاطها الطبيعي والتجاوب مع طاقم الرعاية.

*الحالة لا تتذكّر أية تفاصيل عن يوم الحادث.

* بالرجوع إلى نتائج التقييمات ومتابعة الحالة والتاريخ المرضي العائلي، تم استبعاد وجود ذهان (فصام) أو أي أمراض عقلية مزمنة.

التوصية:

نوصي بخروج الحالة من المصحّة واستمرار المتابعة بجلسات نفسيّة لحين اختفاء كامل الأعراض وزوال آثار الصدمة، مع توقع الشفاء الكامل.

توقيع .....

على الرغم من أن الفجر كان وشيكًا إلا أنه استبدل ملابسه سريعًا وقرر أن يتوجه فورًا إلى فيلا «جوليا» حيث الغرفة السوداء!

وبالفعل، تسلل «صبري» إلى داخل الفيلا خِلسة مُستعينًا بنسخة المفاتيح التي حصل عليها من «عم حسّان»، وبعد أن تأكد أن «جوليا» مستغرقة في نوم عميق ولا تدري عن أمر وجوده شيئًا فتح باب الغرفة بمفتاحها الذي حصل عليه من حقيبتها وصنع منه نسخة بدون أن يخبرها، عاد إلى تلك الغرفة المُقبضة للروح، والتي تبعث على الرهبة، ووقف أمام صورة المرأة المخيفة التي حلّت كضيفة ثقيلة على رؤية منامه منذ قليل، فنظر لها بازدراء شديدٍ قبل أن يقترب منها أكثر ويكلمها كأنها ستستمع إليه:

- «ليليتو».. أيتها اللعينة البغيضة، أيًّا كان أصل حكايتك، أسطورة كانت أو واقعًا، صدفة أو حقيقة، لعنة أو اختبارًا، فأنا أكرهك بشدة! أكرهك مثلما كرهك آدم ومثلما سيكرهك كل نسله من الرجال!

ثم أشاح بوجهه عنها ودار بعينيه في المكان باحثًا عن أي شيء يفيده. مرّ وقت طويل وهو يبحث بدون أن يجد ضالته؛ فالغرفة كما رآها في زيارته الأولى لها تمامًا، بعض المنحوتات الصغيرة غريبة الشكل، واللوحات التي تمثل ضحايا «جوليا» والكتابات السومرية الحمراء فوق الجدار الذي توجد عليه صورة «ليليتو». إلا أن شيئًا ما جذبه ليعود إلى اللوحة الملعونة، فوقف أمامها مرة أخرى وعاد ليتحدّ إليها:

- ما السرّ الذي تحتفظين به وراءك أيتها الشيطانة؟

ترددت كلمة «وراءك» في رأسه وكأن لها رجعًا وصدى، فمدّ يديه يتحسس الجدار من وراء اللوحة فاصطدمت أصابعه بجسم معدني غريب. لمعت عينا «صبري» ببريق الانتصار وهو يزيح مسرعًا لوحة «ليليتو» عن الحائط ليكتشف وجود خزانة معدنية من خلفها؛ خزانة مصممّة لتستقر داخل الحائط ولا يبرز منها شيء. وحين حاول فتحها أعاقه ضرورة إدخال رقم سريّ، وبعد الكثير من المحاولات واتته فكرة أن يجرّب إدخال رقم خمسة لعدد خمس مرات، وبالفعل نجح الأمر وانفتح باب الخزانة ليظهر له الكثير من المستندات والأوراق والتقارير الطبية، كان التقرير السابق هو أولها، وثانيها هو شهادة من أحد المعاهد الأمريكية الخاصة بدراسة الحضارات

تفيد نجاح «جوليا» في دورة تعلم اللغة السومرية والأكدية، أما ثالث الأوراق فكانت صورة فوتوغرافية للمصحة التي عولجت فيها، حيث كان المشهد في الصورة من خلال نافذة غرفة تطل على جسر يشبه كوبرى أكتوبر يعبر بين ضفتى نهر صامت بلا أمواج!

***

(١ / ٦ / ٢٠١٥)

سأقطع هذا الطريق الطويل، وهذا الطريق الطويل، إلى آخرهْ

إلى آخر القلب أقطع هذا الطريق الطويل الطويل ...

فما عدت أخسر غير الغبار وما مات مني، وصفُّ النخيلْ

يدل على ما يغيبُ . سأعبر صفّ التخيل . أيحتاج جرحٌ إلى شاعرهْ

ليرسم رمانةً للغياب؟ سأبني لكم فوق سقف الصهيل

ثلاثين نافذة للكناية، فلتخرجوا من رحيلٍ لكي تدخلوا في رحيلٍ.

تضيق بنا الأرض أو لا تضيقُ. سنقطع هذا الطريق الطويل

إلى آخر القوس. فلتتوتر خطانا سهامًا. أكنا هنا منذ وقتٍ قليلْ

وعمّا قليل سنبلغ سهم النهاية؟ دارت بنا الريح دارتْ، فماذا تقول؟

أقول: سأقطع هذا الطريق الطويل إلى آخري.. وإلى آخره...!! (003)

- كانت خطيئتي الكبري هي جهلي وعدم اعتمادي على بصيرتي. سِرتُ وراء الأكاذيب فضللّتني وقذفت بي على جزيرة الاستسلام للخرافات، وأضعت الكثير من الوقت والطاقة في البحث عن درب العرافات وتتبّعتُ شعوذات الريح كالأعمى. لم أكن أمارس أي خيار حرّ، بل كنت أطيع أي حلّ يبعدني عن حرية الاختيار! كنت جبانًا ورعديدًا. قامرتُ بالمعلوم كي أثبت المجهول، وراهنتُ على نجاح الدخان لأنني جبنت عن إطفاء النار، حين كان من الأولى أن أتتبع همس حدسي. لكنني تتبّعت أصواتكم المدوية! أنا مذنب في حقّها مثلما أذنبتم جميعًا، كلنا شركاء في جرائمها ولا أستثني منّا أحدًا.

«عم حسّان» الذي صدّق أوهامه وأضاع أحلى سنوات عمره وهو يطارح الحب مع الفراغ، ويتبادل الهوى مع السديم، «عم حسّان» الرجل الذي يحمل جهالة البسطاء وظنونهم بأنهم سيجدوا كنز قارون تحت أقدامهم، وسوف يصلون إلى الزئبق الأحمر أسفل منازلهم.

«ريم» التي تحمل شر السفهاء وحقدهم؛ «ريم» العابثة بكل المعاني، والمتاجِرة بكل المفاهيم، تلك هي «ليليتو» الحقيقية التي تقتات على خيانة الجميع وتشرب من كؤوس دمعهم لتقف فوق ربوة غرورها وأنانيتها محقّقة انتصارتها الفردية.

«ريم» الشيطانية التي لا تعرف إلا السعي وراء تنفيذ رغباتها وإن كان سعيها سيمّررها فوق جثث الصداقة والأمانة والعدل.

«فاروق» الغارق في أفكاره، والمنجرف وراء قلمه وقصصه الخيالية؛ «فاروق» المؤمن بمشاهداته لعالم الأشباح والأرواح، والمتوحّد مع قناعاته الغيبية التي يلويها على كل وقائع الحياة من حوله ليثبت نظريته الضاربة في جذور شهوة الكتابة وكشف الغيب في الروايات الناجحة، والتواصل مع العوالم الأخرى عبر أحباره وأقلامه.

الشيخ «عبد البر» المتاجر بمئذنة التديّن والمنتفع بآيات الله، يضرب الرياح ويهسهس الحديث ويُحرّف الكَلِم؛ الشيخ عبد البر الذي يُصدّر للجميع أكذوبة مقدرته على إخراج الجن من البدن، بل وحرقه وسلسلته وإعادته إلى رشده وهديه إلى دين الإسلام إن شاء، الشيخ «عبد البر» الذي يزعم أنه العارف والكاشف، والمُدّعي أمام كتاب الله ملكه لبعض أسرار النبي سليمان.

الدكتور «قاسم» الغارق في عالم الأسطورة حتى أذنيه، صاحب التفسيرات وقائد أسطول النظريات والاستنتاجات والأطروحات؛ الدكتور «قاسم» المسفسِط والمهرطِق الذي يشاهد الإنسان من منظار الحضارات القديمة، ويحكم على

مشاعر البشر وكأنها جزءٌ من كتب التاريخ أو كأنها أقصوصة من مخطوطات التراث، الدكتور «قاسم» الرابط بين الماضي والآتي بمسامير ما وراء النفس وما وراء الطبيعة.

أما أنت يا أبي، الحاج «أحمد أبو حجاج»، العمدة المرموق المحافظ على العادات والتقاليد، السائر وراء الموروث والحامي لحمى الفولوكلور، العمدة الصعيدي الأصيل المصدّق لحكايات جدوده والمبارك لقصصهم والمتمسك بأفكارهم.

كلكم ضللني بضلاله، وزيّف الصورة في عينيّ كما هي مزيّفة في عينيه؛ كلكم ساقني وراء رؤيته كالنعجة، وأنا تمسكت بكل سراب لاح من صحراء أفكاركم ومشيت خلفكم معصوب العقل، كلكم شريك في جرائم «جوليا»، فكلكم ربط رغبته في المساعدة بتنفيذ فكرته، وكلكم بدلًا من أن يستميت في الدفاع عنها استمات في الدفاع عن وجهة نظره، كلكم شركاء يا أبي، كلكم!

مرّت بعض اللحظات والأب يتابع نظرات الحزن في عينيّ ابنه قبل أن يسأله:

- وماذا عنك يا صبري؟

أجابه بصوت مشروخ:

- أنا كلكم يا أبي، وكلكم أنا؛ أنا الجهل والغرور وشهوة

الكاتب والمتلاعب بنصوص الدين والمدعي للمعرفة واللاعب في سيرك التراث الشعبي، أنا الإنسان يا أبي بكل جيناته الفاسدة، وكل متناقضاته البذيئة.

أنا الذي وافق على كل اقتراحاتكم ونبوءاتكم ولم يفكر ولو لدقيقة واحدة في كونها مريضة بحاجة إلى العلاج. أنا لم أُجهِد نفسي للوصول إلى أكثر النتائج وضوحًا؛ وهي أن «جوليا» قد تكون مريضة نفسية وأن علاجها الحقيقي قد يكون في دخولها إلى مصحّة أو مركز للرعاية. لم أفكر إلا في أن أبدو أمام نفسي ذلك العاشق الولهان الذي يعاني من اضطراب حبيبته،

ويشتكي للجميع سوء طالعه ومعاناته في هواه، أنا المعجب بصورة العاشق المُضحّي براحته وهناء باله كي يضمد جراحات غيره. أنا الرجل الذي أعجبه أن يبدو في نظر الآخرين عاشقًا مكلومًا حزينًا يصطبر على اضطراب حبيبته ويكافح من أجل مساعدتها. وجدت متعة دفينة في ظهوري بتلك الصورة فأبقيت عليها، واستفدت منها قصائد وشعرًا، ووقفت على المسارح الباريسية ألقي معاناتي على الجمهور وقلبي يرقص سعادة بتصفيقهم وانبهارات عيونهم، أنا كنت أرعاها حينما أحتاج للظهور في مظهر الراعي، وأتركها حينما أريد الظهور في مظهر المجروح!

ألم أقل لك يا أبي أننا جميعًا شركاء!

- حسنًا يا ولدي، ليس هذا بالتوقيت المناسب كي أجادلك فيما تظن، أريد فقط أن أطمئن، ماذا ستفعل؟

أجابه بشكل حاسم:

- سأفعل ما كان يجب عليّ فِعله من البداية. لقد اتصلت بأحد أصدقائي المقيمين في فرنسا وتوصّلنا لاتفاق مع مصحة نفسية شهيرة في مدينة مارسيليا. وتواصلت بالفعل مع الطبيب الفرنسي الذي سيشرف على حالتها، وارسلت له نسخة من كل شيء يخص حالة «جوليا»؛ تقاريرها السابقة لفترة وجودها في الولايات المتحدة، واللوحات التي رسمتها، وملاحظاتي الشخصية عن حالتها.

- وهل كوّن هذا الطبيب أي رأي مبدئي بناءً على هذه المعطيات؟

- الأمر ليس بهذه السهولة، فالأوراق والتقارير القديمة ليست كافية. ينبغي أن تخضع «جوليا» لإشراف نفسي دقيق. لكن، بالرغم من ذلك، أشار الطبيب أنه إذا تأكّد من خلال الفحص النفسي أنها لم تكن واعية أثناء ارتكاب تلك الجرائم، فهناك احتمالية كبيرة لأن تكون مريضة بمرض يُعرف بـ «الذهان»(002).

- وهل تستطيع إقناع «جوليا» بدخول مصحة نفسية وهي لا تعلم عن حالتها شيئًا؟

- لقد أقنعت «جوليا» بالفعل بأمر السفر، أخبرتها أننا سنذهب في عطلة قصيرة ننشد فيها راحة الأعصاب من كل عناء الفترة السابقة، ونسترجع عافيتها النفسية وصفاء ذهنها قبل موعد معرضها الفني. ومتى وصلنا إلى مرسيليا سأخبرها بأمر المصحة وسأواجهها بما فعلته.

- ومتى ستسافران يا ولدى؟

- للأسف لم أجد غرفة فارغة في المصحة قبل العاشر من هذا الشهر.

- إذًا سوف يحلّ الخامس من الشهر وهي بعيدة عن الملاحظة، أليست هذه مخاطرة كبيرة كما أخبرتنى؟

- لا تقلق يا أبي، سوف نتناوب أنا و «فاروق» مراقبتها حتى نعبر هذا اليوم بسلامٍ. هذه هي نصيحة الطبيب الفرنسي الذي أخبرني أن اليوم الخامس لا يأتي بأي أسطورة من ورائه كما كنا نظن، كل ما في الأمر أنه نتيجة نفسية مرتبطة بتاريخ وقوع حادث والديها.

اقترب الأب من ابنه وأحاطه بذراعيه وهو يقول:

- لا تكرر الخطأ الذي انتقدته بنفسك يا ولدي، ولا تعالج

الأزمة بأزمة جديدة، لا تجلس فوق مقعد القاضي وتحدّد مصير القادم وفق ما يروقك. عد إلى رشدك ودع العدالة تأخذ مجراها، دع القانون يحكم في أمرها ويحدّد مستقبلها. لا بد أن تبلغ السلطات وتترك الأمر لهم!

نهض «صبري» من جواره وهو يقول بعصبية:

- قُضي الأمر يا أبي، وهذا هو قراري النهائي.

توقّف عن الكلام لبرهة كمن تذكّر شيئًا:

- نسيت أن أخبرك يا أبي .. قبل السفر بليلة سوف أعقد قراني على «جوليا»!

***

(٥ / ٦ / ٢٠١٥)

عندما لا ندري ما هي الحياة، كيف يمكننا أن نعرف ما هو الموت؟!! (001)

تثاءب «صبري» بكسلٍ شديدٍ وهو ينظر إلى الساعة الرقمية الموجودة في سيارته تعلن أنها الثالثة بعد منتصف الليل. شعر بالإرهاق يغزو جسده كاملًا نتيجة لجلوسه داخل سيارته منذ ساعات طويلة على هذا الوضع. كان قد اتفق مع «فاروق» أن يكثّفا مراقبتهما لـ «جوليا» في الساعات الأخيرة، ولا يتركان لها ولو فرصة واحدة لمغادرة الفيلا بدون أن يتتبعها أحدهما، فأرسل «فاروق» ظهيرة اليوم السابق ليراقب الفيلا عن بُعد، بينما اضطر هو لحضور مؤتمر ثقافي دعاه إليه مكتب وزير الثقافة المصري ولم يستطع الاعتذار عنه، وما إن انتهى من بروتوكولات هذا المؤتمر توجّه رأسًا إلى «فاروق» المرابط أمام فيلا «جوليا» طوال اليوم، واطمأن منه أن كل شيء على ما يرام؛ فلم يدخل أحد إلى الفيلا ولم تبارحها «جوليا» على الإطلاق. ثم استلم من «فاروق» نوبة المراقبة الخاصة به والتي بدأت في التاسعة من مساء اليوم السابق ومازالت مستمرة حتى تلك اللحظة.

كان مضطرًا لهذه الفكرة البوليسية حيث نصحه الطبيب الفرنسي بأن يضع «جوليا» تحت المراقبة الدقيقة طوال

الساعات الأولى من صباح اليوم الخامس من الشهر، وهي الفترة التي تمارس فيها «جوليا» جريمتها الشهرية حسبما عرف من «صبري» الذي أتيحت له هذه المعلومات من الأخبار المتواترة في الصحف عن الجرائم الأربعة الماضية، بل ومثلما حاولت قتله في مثل ذلك التوقيت أيضًا. كما نصحه الطبيب أن يُتمّ ذلك بدون علمها وبحيث يكون قريبًا بشكلٍ كافٍ للتدخل وإنقاذ أي موقفٍ قبيل تفاقمه، حيث أنها وفي كل الأحوال لن تكون «جوليا» التي يعرفها خلال ساعات إصابتها بحالة «ليليتو» وحين تسيطر عليها موجة هلوساتها وضلالاتها.

مرّت ست ساعات حتى الآن وكل الأمور تبدو مطمئِنة للغاية، وما زاد من جودة الموقف أنه ومنذ ما يزيد عن الساعة تقريبًا دخلت «جوليا» إلى الشرفة لبضع دقائق دخّنت فيها لفافة تبغ قبل أن تعود للدخول إلى الغرفة من جديد لتطفئ الأضواء ويحلّ الظلام، مما أكّد له أنها قد خَلُدت إلى النوم أخيرًا، ويا ليتها تواصل نومها ولا تفكر في الخروج من الفيلا إلى أن تشرق الشمس ويعود الصباح ببشائر الفرج وانقضاء الغمة.

قاوم رغبته العارمة في النوم بأن أدار مذياع السيارة باحثًا عن صوت يؤنسه فلم يجد أجمل من صوت أم كلثوم تشدو

مقطعًا من رباعيات الخيام:

«أفِقْ خَفيفَ الظِلِ هذا السَحَر

نادى دَعِ النومَ وناغِ الوَتَر

فما أطالَ النومُ عُمراً

ولا قَصَرَ في الأعمارَ طولُ السَهَر»

مرت الدقائق طويلة وكأنها سنوات العمر، استرجع فيها كل ذكرياته مع «جوليا» بحلوّها ومُرّها، ورفع رأسه إلى السماء وترجّاها أن تحمي حوّاء التي أحبها، وأن تغفر لها لحظات استماعها لوسوسات الحيّة الملعونة. أبقى «صبري» نظره مُعلّقا على الفيلا وترك قلبه المفطور يناجي ويطيل الدعاء.

وفجأة شعر بقبضة تسري في عروقه ورعشة ترج روحه! لم يحدث أي شيء حوله يستدعي هذا الشعور، فـ «جوليا» لما تبرح الفيلا، ولم يدخل كائن كان عبر باب حديقتها منذ أن ربض هو في سيارته يراقب الموقع عن كثب، ولم يعرف السبب وراء هذا الشعور المخيف والمتنامي داخله والذي سيطر عليه تمامًا وجعله يشعر أن مصيبة ما قد حلّت.

نظر إلى ساعة سيارته التي بلغت الخامسة وخمس وعشرين دقيقة وقرّر أن يطمئن بنفسه أن كل الأمور بخير.

تـرك «صـبري» سـيارته ثـم عبـر الشـارع متجهًا إلي باب حديقة الفيلا، ثـم أخـرج نسـخة مفاتيـح الفيـلا التـي يحملهـا وفتح البـاب بهـدوء وحـرص شـديدين، ودخل إلى الحديقة متسلّلا على أطراف أصابعه كلصّ ليلى محترف. ولكن قبل أن يدرك باب دخول مبنى الفيلا سمع صوت آنّات مكتومة قادمة من بعيد، فالتفت حوله بقلق بالغ وهو يبحث عن مصدر الصوت فلم يجد أي شيء في أنحاء الحديقة، فأرهف السمع إلى مصدر تلك الأنّات وحاول تتبعها. كانت تصدر من مكانٍ ما بجوار مبني الفيلا، فتحرّك ببطء وترقّب محاولًا الوصول إليه ومعرفة مصدره وسببه، والقلق يعصف به.

وجد نفسه يقترب من موقع غرفة «عم حسّان»، وإذ به يشاهد ضوء طفيف يصدر من نافذة غرفته المغلقة، فاقترب من باب الغرفة ودفعه ببطء إلى أن انكشفت الغرفة أمامه؛ فوجد ما لم يتوقّعه على الإطلاق وما لم يخطر له على بال قط!

كان «عم حسّان» مُلقى على جانبه فوق سجادة صلاته والدماء تنزف من الجزء الخلفي من رقبته، فيما بين كتفه وعموده الفقري، بما يدلّ على أنه قد تلقّى الطعنة من الخلف أثناء صلاته.

اندفع نحوه واحتضنه بين ذراعيه صارخًا باستنكار:

- «عم حسّان»؟!!

نظر الرجل إلى عيني «صبري» وابتسم من بين أنفاسه المبتورة وخرج صوته من حنجرته متهدجًا مبحوحًا:

- نعم يا ولدي عمّك «حسّان»!

فرّت دمعة من عيني «صبري» وهو يزيد من احتضانه للرجل:

- ما الذي أتي بك إلى هنا ومتى أتيت؟ لقد كنا نراقب الفيلا منذ الثانية عشر من ظهر يوم أمس، ولم يدخلها أحد ولم يخرج منها أحد!

قاوم «عم حسّان» سَكرة أخرى من سكرات موته رجّت جسده وهزّت جدران روحه:

- النصيب يا ولدي، الأجل يستطيع عبور الأبواب المغلقة، وتخطي العيون المراقبة، لقد أتيت إلى الفيلا في العاشرة من صباح اليوم السابق. اتصلت بي ابنتي «جوليا» منذ يومين وقالت إنه ينبغي عليّ العودة إلى القاهرة فورًا لأنها تريدني في أمرٍ شديد الأهمية، كما أخبرتني ألا أبلغك بأمر عودتي لأنها تعدّ لك مفاجأة، حتى إنني تعجلت ولم أحضر زوجتي معي!

تغلّب البكاء على «صبري» وهو يقول:

- لقد حذّرتك يا «عم حسّان».. حذّرتك!

ابتسم العجوز ابتسامة واسعة:

- قالها الشيخ «بشير» والآن أفهمها؛ تلك الأحداث تفسيرها حدوثها..!

لم ينطق الرجل بكلمة أخرى ولقد ضربه الموت ضربته الأخيرة وحصد روحه بمنجل الميعاد المقرر.

هزّ «صبري» جسد الرجل بعنف وهو يصرخ:

- «عم حسّان» .. «عم حسّان»!

وضع «صبري» جسد الرجل ليرتاح فوق سجادة صلاته، وجلس بجوار جثته يطالعها في حزنٍ جارفٍ، ثم أخرج هاتفه المحمول من جيب سرواله برغم الارتعاش الذي أصاب يديه وأجرى اتصالا فأتاه صوت أجش من الجهة الأخرى للمكالمة:

- شرطة النجدة، اذكر اسمك الثلاثي ورقم هاتفك وسبب الاتصال

- أريد الإبلاغ عن جريمة قتل.

ثم استدرك:

- لا، بل أريد الإبلاغ عن خمس جرائم قتل!

(٥ / ١ / ٢٠١٦)

لديكم خمسة تحميكم ولدينا خمسة تهلككم...!!

تقدّم الدكتور «عماد» في أروقة مستشفى الأمراض العقلية بخطوات سريعة مستهدفًا الوصول إلى غرفة حفظ مستندات المرضى، وما إن وصل إليها حتى قرع الباب ثلاث طرقات متتالية قبل أن يدخل.

نهض الموظف المختص من خلف مكتبه وهمّ لمصافحة الدكتور:

- أهلًا دكتور «عماد»، هل أستطيع مساعدتك؟

- نعم، أريد أن ألقي نظرة على تقرير اللجنة التي أشرفت على حالة «جوليا يوسف» مريضة الغرفة رقم ٢٥.

- هل تقصد التقرير المقدم إلى النيابة العامة؟

- نعم هو بعينه.

أخذ الموظف يبحث بين كومة الملفات الملقاة بإهمال فوق الرفوف الخشبية العتيقة، إلى أن أخرج ملفًا رثًّا مُغطى بالغبار. تصفّح الأوراق بداخل الملف حتى وجد التقرير المطلوب فجذبه من بين الأوراق الأخرى وناوله للدكتور «عماد».

أمسك «عماد» التقرير وشرع يقرأه على الفور:

بعد التواصل مع المستشفى الموجودة في الولايات المتحدة المعالجة للحالة في الماضي، وبالاطلاع على كافة التقارير الخاصة بها، تم تطبيق إجراءات التقييم النفسي والتشخيصي اللازم لحالة «جوليا يوسف شهاب الدين»

وبعد مراجعة النتائج والاطلاع على التقارير السابقة ومراجعة واستخلاص بعض المعلومات الخاصة بجرائم القتل الواردة في محاضر التحقيق المرفقة توصل المعالج إلى الآتي:

الأعراض: وجود هلاوس سمعية وبصرية وحسية شديدة، ملازمة للحالة منذ فترة تزيد عن الستة أشهر وحتى حينه في صورة امرأة تدعوها بـ «ليليتو».

وجود أفكار راسخة بوعي «جوليا» بأنها «المختارة من قِبَل ليليتو» لتنفيذ إرادتها وأوامرها.

تم تنفيذ هذه الأوامر عن طريق ارتكاب خمس جرائم قتل عشوائية لذكور لا تربطهم صلة بالحالة طبقًا لما ورد في محاضر الشرطة، فيما عدا الحالة الأخيرة وهو حارس عقارها الشخصي.

التشخيص:

اضطراب تفككي حلولي يُعرف اصطلاحًا بـ(Trance

(000)(000) possession) بالإضافة إلى أعراض (ذهانية) شديدة.

التفسير:

ظهور المرض منذ الطفولة بعد التعرض لحادث نفسي قوي وهو قتل الأم وانتحار الأب، وظهور الهلاوس برؤية المرأة (ليليتو) وسوء تفسير هذه الأعراض من قِبَل المعالج الأمريكي باعتبارها طيف أمها المتوفاة وذلك لتشابه الأسماء ولتعرض الحالة لاضطراب ما بعد الصدمة في هذا الوقت.

إهمال العلاج والمتابعة نتيجة لاعتبارها أعراض مؤقتة تالية للصدمة ولعدم وجود تاريخ مرضي عائلي، وقد أدى هذا إلى تدهور الحالة ورجوع الأعراض بشكل أقوى، ونتج عن هذا التدهور تنفيذ جرائم القتل الخمس سالفة الذكر.

التوصيات:

يقر الطبيب المعالج بعدم أهلية الحالة وانتفاء المسؤولية القانونية عن الجرائم المذكورة سلفًا.

إبقاء الحالة تحت المراقبة المستمرة والعلاج المكثف بداخل المصحة.

يعتمد.....

وما إن أنهى الدكتور عماد قراءة التقرير حتى حكّ رأسه بيده واستغرق في تفكير عميق حتى قاطعه الموظف بسؤاله:

- هل هناك أي جديد بخصوص هذه الحالة؟

لم ينظر له الدكتور «عماد» وهو يجيبه:

- نعم، لقد حاولت قتل أحد الممرضين في فجر هذا اليوم...!!

أثناء ذلك....

تقدّمت امرأة أمريكية على قدرٍ كبيرٍ من الجمال والفتنة بين أروقة المعرض الفني الأنيق المقام في إحدى أشهر دور المعارض الفنية في القاهرة قبل أن تتوقف طويلًا أمام إحدى اللوحات المعلّقة وتطيل النظر فيها.

- هل تعجبك؟

نظرت إلى مصدر الصوت الصادر من الرجل الشرقي الوسيم الذي كان واقفًا إلى جوارها، فأجابته مبتسمة:

- نعم تعجبني بشدة! هناك سحر وغموض وراء الملامح المخيفة لهذه المرأة، لا أدري ما الذي يجذب فيّ النظر لملامحها البشعة وكأن وراءها حكايات وحكايات.

هزّ رأسه مؤيدًا:

- أوافقك الرأي تمامًا!

التفتت حولها قبل أن تسأله:

- أين الفنانة البارعة صاحبة لوحات هذا المعرض؟ أريد أن أصافحها وأهنئها على هذا الإبداع العظيم!

شرد بذهنه قليلًا:

- للأسف ليست موجودة، في استطاعتك التفاوض معي إذا رغبتِ في اقتناء أي من أعمالها الفنية، أنا المسؤول عن هذا المعرض.

ثم أردف:

- كما أنني خطيبها.

عادت للنظر باستغراق شديد إلى اللوحة المُعلّقة أمامها، وحاولت قراءة الاسم المكتوب أسفلها:

- هل هذا هو اسم اللوحة، «ليليتو»؟!

- نعم، اسمها «ليليتو»!!

تمت بحمد الله

القاهرة – الإسكندرية ٢٠١٦

***

شكر خاص

استشارات نفسية:

د/ نبيل القط

أ/ دعاء عبد الرحمن

رسومات داخلية

هبة عيسي

المراجعة:

أ/ رشا جمال

مصادر ومراجع

- الجانب المظلم من الأنوثة /عقدة ليلث «هانس يواخيم» ترجمة الدكتور/ سامر جميل رضوان

- ما وراء الطبيعة «كمال غزال»

- الجامع الصغير «السيوطي»

- مجموع الفتاوي «ابن تيمية»

- جريدة وموقع الراصد الإسلامية والمختصة بمذاهب وفرق أهل السنة

- حكمة أحكام الدين «الشيخ/ عبد الباسط القاضي»

- الأعداد في الكتاب المقدس «القس/ أنطونيوس فكري»

- الطاو والفضيلة «لوتسو»

- موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية «د/ عبد الوهاب المسيري» مؤسسة الإهرام ١٩٧٥

- كتاب عبادات الشيطان وسلطان القديسين «حلمى القمص يعقوب»

- شرح الكتاب المقدس «القمص/تادرس يعقوب ملطي»

- عبادة الشيطان «مجدي صادق»

- الطب النفسي المعاصر «د/ أحمد عكاشة»

- الجن والمرض النفسي «د/ الأمين إسماعيل بخاري»

- كتاب الزوهار «النسخة العبرية»

- جريدة عين الجمهورية السورية

- نهاية الشيطان «فيكتور هوجو»

- ويكيبديا وبعض المواقع والمنتديات الإلكترونية

- The Mystical of vision of Kabbalah «Keveni Williams»

---

(052) حكمة هندية

(051) من تفسير إنجيل متي، انتظار الملكوت.

(050)سورة الكهف (٥٠).

(049) التوراة – سفر التكوين ١٨:٢٨

(048) الإمام علي بن أبي طالب

(047) أبو نواس.

(046) حقيقة علمية.

(045) سفر أشعياء ١٧:٣٠

(044) حقيقة.

(043)حقيقة.

(042) حقيقة.

(041) سورة البقرة، آية رقم (٣٠).

(040) الحصين بن حمام الفزاري.

(039) سورة المجادلة، آية (١٩).

(038) الإمام علي بن ابي طالب.

(037) الأعداد في الكتاب المقدس – شرح الكتاب المقدس - القس أنطونيوس فكري.

(036) إنجيل لوقا ٥١:١٢ إلي ٥٢:١٢.

(035) حقيقة.

(034) القداس الأسود هو طقس يقوم به عبدة الشيطان بتقديم قربان حيواني للشيطان، أما القداس الأحمر فيكون قرباهم للشيطان قربانا بشريا..!!

(033) لقمان٣٤، والحديث من صحيح البخاري من حديث ابن عمر.

(032) فلسفة صينية تحاول تفسير وتعليل وفهم كل الوجود الطبيعي والمجتمعي والإنساني

(031) هي فلسفة صينية نشأت منذ حوالي ٤٠٠٠ عام، وتتحدث عن فن التناغم مع الفضاء المحيط وتدفقات الطاقة من خلال البيئة، كما تضع أسلوبًا للتصالح مع النفس ومع الطبيعة المحيطة بالإنسان حتي يتم التعايش بشكل إيجابي بين داخل الإنسان وبين محيطه الخارجي.

(030) تقول الإحصاءات الغربية أن كتاب الطاو هو واحد من أكثر الكتب طبعا ومبيعا في العالم، والفلسفة الطاوية ببساطة هي قبول ما أمامك بدراسة قانون الطبيعة والأشياء. كتاب الطاو والفضيلة...لوتسو

(029) تفسير الأحلام لأبن سيرين.

(028) سورة الناس: قل أعوذ برب الناس

سورة الجن: قل أوحي إليّ

سورة الإخلاص: قل هو الله أحد

سورة الكافرون: قل أيها الكافرون

سورة الفلق: قل أعوذ برب الفلق

(027) الرموز المسيحية.

(026) حادثة حقيقية.

(025) حادثة مشهورة جدًّا حدثت في مدينة «سآلم» - حاليًا دآنفرز- الأمريكية تعتبر من أبشع حوادث التاريخ الأمريكي وأكثرها صناعة للذعر.

(024) حسين بن حمدان الخصيبى.

(023) حقيقة.

(022) الحديث أخرجه ابن حبان والحاكم وأورده السيوطي في الجامع الصغير رقم ٣٦٥.

(021) ابن تيمية..مجموع الفتاوي.

(020) سفر اللاويين ٨:٢٦.

(019) إنجيل مرقص ١٧:٢.

(018) سورة الزمر ٥٣.

(017) اللقان هو اسم يوناني، ويعني الاناء الذي يوضع فيه الماء للاغتسال، ويطلق على الصلوات التي يقدس فيها، حيث يصلى الكاهن على الماء الذي يملأ به هذا الإناء، ليجعل منه قوة للشفاء والتقديس.

(016) الأعراف ٢٧.

(015) طه ١٢٠.

(014) سورة النساء ٧٦

(013) سورة الأنعام ٤٣

(012) الإمام علي بن أبي طالب.

(011) موسوعة الرياضيات

(010) فترة العدد ٥ هي الفترة الواقعة بين ٢١ مايو إلي ٢٠ يونيو

(009) يبحث علم الباراسيكولوجي في علم الخوارق، وهو يحاول الإجابة عن الأسئلة الحائرة حول المس الشيطاني

والمعروف بمس الجن أو مس أرواح الموتي الهائمة في الحياة، وهو يشمل دراسة القدرات غير المألوفة التي يحوزها بعض الأشخاص، كما يهتم بتفسير الإدارك بدون استعمال الحواس الخمس، ويستخدم وسائل علمية كثيرة وعلوما شتي ومنها علم النفس وعلم الفيزياء والبيولوجي بالإضافة للعلوم الإنسانية مثل علم الإجتماع، ويجب التفريق بينه وبين علم النفس طبقا لمفاهيم فرويد لأن مجال علم النفس بعيدا تماما عن مجال الباراسيكولوجي، كما أن علماء علم النفس وعلي رأسم سيجموند فرويد لا يؤمنون بكل ظواهر الجن والأرواح ومس الشيطان، ويرفضون تماما فكرة البحث عن المجهول فيما وراء المادة في عالم الأرواح، ولهذا يفسر فرويد مس الشيطان والجن والأرواح علي أنه مرض نفسي أو مدركات حسية متوهمة..!!

(008) هي لغة سومر القديمة والتي تحدث بها السومريون في جنوب بلاد الرافدين «جنوب العراق حاليا» منذ ٤٠٠٠ سنة ق.م

(007) كلمة عبرية تعنى «الإشراق» أو «الضياء». وكتاب الزوهار أهم كتب شريعة الكاباله اليهودية ، وهو تعليق صوفي مكتوب بالآرامية على المعنى الباطني للعهد القديم، ويعود تاريخه الافتراضي، حسب بعض الروايات إلى ما قبل

الإسلام والمسيحية، وهو ما يحقق الاستقلال الفكري (الوهمي) لليهود، وكتابته بلغة غريبة، تحقق العزلة لأعضاء الجماعات اليهودية الوظيفية. وينسب الكتاب أيضًا إلى أحد معلمي المشناه الحاخام «شمعون بن يوحاي» في القرن الثاني وإلى بعض زملائه، ولكن يقال أن «موسى دي ليون» (مكتشف الكتاب في القرن الثالث عشر) هو مؤلفه الحقيقي أو مؤلف أهم أجزائه، وأنه كتبه بين عامي ١٢٨٠ و١٢٨٥ ميلادية، مع بدايات أزمة يهود إسبانيا.

والزوهار، في أسلوبه، يشبه المواعظ اليهودية الإسبانية في ذلك الوقت. وبعد مرور مائة عام على ظهوره، أصبح «الزوهار» بالنسبة إلى المتصوفة اليهود في منزلة التلمود بالنسبة إلى الحاخاميين. وقد شاع «الزوهار» بعد ذلك بين اليهود، حتى احتل مكانة أعلى من مكانة التلمود، وخصوصًا بعد ظهور الحركة «الحسيدية».

(006) رؤيا يوحنا الاهوتي ١٦:١٣.

(005) طاغور.

(004) نظام السلك الدبلوماسي والقنصلي الصادر بالقانون رقم ٤٥ لسنة ١٩٨٢ ينص فيما معناه علي منع عضو السلك الدبلوماسي من الزواج بغير مصري الجنسية، ويعتبر مستقيلا

إن فعل.

(003) محمود درويش

(002) مرض الذهان هو مصطلح يشير إلى إحدي الاختلالات التي تصيب العقل البشري، والإصابة بهذا المرض تؤدي إلى سلب المريض قدرته على التفكير بأساليب منطقية، كذلك يتأثر الإدراك الحسي للمصاب باضطراب بالغ قد يصل إلى حد الهلاوس، ويصنف العلماء مرض الذهان كأحد الأمراض المؤدية لحالة الانفصال عن الواقع.

أعراض الذهان:

الهلوسة: وهي استلام حسي في غياب محفزات خارجية، وقد تصيب حاسة من الحواس الخمس أو قد تصيبهم جميعًا، وقد تكون بسيطة مثل أن يري الإنسان أضواء أو ألوان أو أصوات، أو أن تكون أكثر تعقيدا أي أن يري المريض إناس أو حيوانات وغيرها.

أهم هذه الهلاوس هي الهلاوس السمعية، حيث يسمع المصاب أصوات قد تكون لشخص واحد أو لعدة أشخاص، وقد تتحدث هذه الأصوات عنه أو تتحدث معه، أو أنها قد تأمره بأعمال معينة قد تكون شديدة الإيذاء لنفسه أو للغير..!!

(001) كونفوشيوس.

(000) الاضطراب التفككي..

تحدث للمريض نوبات انشطارية حيث تتفكك القدرات العقلية من إدارك وذاكرة وتفكير والإحساس بالذات والوعى، وقد تكون مصحوبة بحركات أو تشنجات لا إرادية وتفوهات مبهمة، يكون المريض أثناءها مضطرب الوعي، لذلك تعتبر الحالة وكأنها ممسوسة من الشيطان

وفي بعض الأحيان يأخذ هذا الاضطراب التفككي منحى آخر بأن يعتقد المريض أن الشيطان قد حل به أو تقمصه وكل ما يبدر منه إنما هو بفعل الشيطان. الفرق بين هذه الحالات ومرض الفصام أن هذه الحالات تظهر على المريض من وقت لآخر يكون بينها طبيعيا تمامًا، وأثناء ظهور النوبة يحدث له تشوش كامل في الوعي، كما أنه لا يحدث أي تدهور واضح في أداء المريض المهني أو الاجتماعي أو في شخصيته بين هذه النوبات..!!